قلب العراق

١ - ٤٩

الكتاب الكامل: ١ - ٢٧٦ + ملحق
٣ صفحات

تمهيد

(التفريق ال[…])

من خلال العرب: خلة اولية في التوحيد و…

الشخصية والقومية، تبدو في كل مظهر من مظاهر … وهي

او في المنازع … سياسية دينية ادبية.

الحياة: هي خلة اجتماعية … ان تستنطقه في مادة

كذلك لغوية. وحسبك شاهداً … المعنوية او اللفظية

خذ القاموس … محال الصلة …

واحدة هي مادة "ضرج" و … "التحريش" و "اضطرار"

بين "ضرج التراب" وبين … هذا في السطرين الاولين من

السنبل بعد الخضرة"؟ هذا … فينبغي ان

المادة. ولو فرضنا ان نوحدها … الاصلي لفظا ومعنى.

ينبذ منها كل ما لا يلتئم … الذوقي او الادبي او

لكن الاقتراح التام … الاختراع … التشابك العناصر بعضها

الاجتماعي الذي يختلط فيه … مناسبة ثابتة

السياسي او … وحدة حقيقية … وجهها - ان هذا

ببعض، فيتألف منها … او نقيض … ويلوح ان

وحدة خالية مما يتغلغل فيها … في كل مظاهرها.

الاقتراح مفقود في الحياة العربية … يقفون في المزج عند الجمع

… ان العرب … يقفون … بين الاثنين

تقول: على الاجمال … ولا يرون فرقا … فما وفق الاسلام

او في الادغام عند الضم … الوحدة الكبرى الدينية … لعلم

اعطيك المثال من … لقد ضمها اليه

شتى العناصر التي دانت به … تنصهر في صفات جزئياته

مزج … جسما مركبا واحدا … تتآلف فيها الصفة الكبرى

… جعلها … بعضها ببعض … للجسم

او … اخرى تمتزج

بالجسم الواحد الاكبر: تضامنوا، وحافظوا
— تعالوا، وظلوا كما انتم: ادفعوا الجزية،
على عصبياتكم وعاداتكم وشيخاتكم: توحّدوا، ولا تتنازلوا
وتمسكوا باصالتكم
عن لهجاتكم ولغاتكم، كان ينطق السيد والحاكم
بمثل هذا، على ما يخيل لي،
والامام والاديب. وكل واحد منهم من وجهة واحدة
في الرقي البشري، مثال الكرم والسماحة والتساهل.
وكل واحد منهم، من وجهة اخرى جهة، قليل الفطنة، قصير
النظر. مقسمين على كثيرين خطأ
لولا ذلك لما كان العرب حتى اليوم [illegible]. لانهم يتضامنون، ولا
الاجداد، وظل الاقدمين. يجتمعون
يختلطون، واذا تضامنوا فلا يتوحدون. هم [illegible] بالماء. اختلاط
ولا يمتزجون روحا وحسا امتزاج التراب
ترى ان لكل قبيلة تقاليدها القديمة وعاداتها واحكامها
ولهجتها وعصبيتها. وعندما تدخل في الحكم المدني
العصري تشترط على الحكومة ان تحافظ على تلك
التقاليد والاحكام. فتقبل الحكومة الشرط، اما
لانها عاجزة، واما لانها لا ترى الامر يستحق
نفقات حملة عسكرية، وهي تلجأ في كلا الحالين الى الطريقة
القديمة: ادخلوا في الطاعة وظلوا كما انتم:
ادفعوا الخراج، واحتفظوا بحقوقكم التقليدية.

كلمة في القاموس جرتني الى هذا الموضوع، وهو جدير
بكتاب. وما كان في شيء ان اكتب حتى هذا التمهيد
لولا رغبتي في الجواب على سؤال قد يسأله القارئ. وقد
سألته انا قبله، لقربت من البحث عرق
ولكني قبل ان ظفرت بالجواب، نفضت الغبار عن طائفة من
القريبة كما يقال. فقد نفضت طائفة من العث
الكتب القديمة، وقلبت طائفة من العث فيها
ثم

ثم قلت فقلبت في صفحاته السوداء الصفراء، ولا تبويب
يهدي، ولا فهرس يعين، وانا ادعو لأصحابه، وطابعيه
وبائعيه بدوام النعيم في أعلى الفراديس، ولو
وظننت في بادئ الامر الى القاموس لاستغنيت عنها
كلها. وما السؤال؟ لماذا سميت البلاد
بالعراق
موضوع هذا الكتاب،
رحم الله كل من حمل حجراً الى بيت هذه اللغة، وكل من وضع
حجراً في اساسه، وكل من رفع حجراً في تشييده. رحم الله القصابين
والحائكين والبنائين والطحانين والمزينين جميعاً.
فقد كانوا كلامهم مثال السماحة والتساهل — والحماقة. فحذوا
حذو سادة القوم، واقتدوا برجال السياسة والدين.
تعالوا ايها البناؤون كل
ادخلوا بسلام وظلوا كما انتم
ما عندكم ولا تخافوا عليه.
لذلك نقرأ في القاموس: "اللغة ما جرى على لسان
كل قوم؟" و"اللغة هي الكلام المصطلح عليه بين كل قبيلة".
فقد رضي البناؤون، فحكموا
ولقد جاءت كل قبيلة بما عندها، دون ان يراعوا علم المنطق او
التجارة بعضها فوق بعض، او قاعدة الامتزاج، وضرورة الالتحام
مبدأ التناسب والانتقاء.
وها قد وصلنا ايها العرب، الى مادة عرق فماذا
عندكم منها؟ هاتوه كله بحذافيره، ولا تخشوا ان يضيع شيء منه.
كلا! الارض والسماء البلاغة، اي ورب الكعبة!
الارض [illegible]
جاءت هذه القبيلة تقول: عرق، والاخرى تقول: عرق
الثالثة تقول: عرق. فصاح البناؤون: اهلاً وسهلاً
ومرحباً بعرق وعرق وعرق وعرق، وما فوق ذلك
[illegible]

ثم قلت تقلبت في صفحاتها السوداء الصفراء، والتبويب
يهديني، والفهرس يعاين، وانا ادعو لاصحابها، وطابعيها
وبائعيها بدوام النعم في اعلى الفراديس. ولو
وطفت في بادئ الامر الى القاموس لاستغنيت عنها
كلها. وما السؤال؟ لماذا سميت البلاد،
موضوع هذا الكتاب، بالعراق.
رحم الله كل من حمل حجرًا الى بيت هذه اللغة، وكل من وضع
حجرًا في اساسه، وكل من رفع حجرًا في تشييده. رحم الله القصابين
والحائكين والبنائين والطحانين والمزينين جميعًا.
فقد كانوا كلهم مثال السماحة والتساهل — والحماقة. فحذوا
حذو سادة القوم، واقتدوا برجال السياسة والدين. تعالوا ايها البناؤون كل
ادخلوا بسلام، وظلوا كما انتم
ما عندكم ولا تخافوا عليه.
لذلك نقرأ في القاموس: "اللغة ما جرى على لسان
كل قبيلة." و"اللغة هي الكلام المصطلح عليه بين
كل قوم". ولقد جاءت كل قبيلة بما عندها. ولقد بنى البناؤون، فرصفوا
الحجارة بعضها فوق بعض، دون ان يراعوا علم المنطق او
مبدأ التناسب، او قاعدة الامتزاج، وضرورة الالغاء
والانتقاء. وها قد وصلنا ايها العرب، الى مادة عرق فماذا
عندكم منها؟ هاتوه كله بحذافيره، ولا تخشوا ان يضيع شيء منه.
يا لك الارض والسماء والبلاغة، اي حرب ذلك العسير
الامر [illegible]. جاءت هذه القبيلة تقول: عَرَق، والاخرى تقول: عِرْق
والثالثة تقول: عُرُق. فقال البناؤون: اهلا وسهلا
ومرحبًا بعرق وعَرَق وعِرق وعُرُق. فبنا فوق ذلك
ثمن

تتضمن لكل لفظة اشتقاقاتها وشواردها – هي المساواة حتى في اللغة –

فنقول عُروق أعراق عِراق الخ، والنتيجة؟ إنها

ثلاث صفحات كاملة من قاموسي

القارئ العزيز، الفيروزبادي.

العادي، ولا أدري كم صفحة من

أما الذي يهمنا الآن من كل المصادر والاشتقاقات [illegible]

الآن هذه اللفظة وحدها، في مفردها وجمعها

عِرق وجمعه عِراق. وهي

تبلبل طالب العلم وتثير أشجانه. فماذا تفعل بتلميذ اللغة

حبلى بالمعاني المتناقضة العجيبة، الأصلية والمولدة والمعجمة؟

وما حال الكاتب المسكين وأشباهه وهو المرعوب من كل قلبه وعقله

يتفصّح ويتكلم لغة سيبويه،

ودرويه بالخاتمة فنادى بهم جميعاً.

والكسائي والمبرّد وابن دريد

إذا أخطأ الكاتب بتحريك أو تسكين حرف من

هذه الأحرف الثلاثة – ع ر ق – استهدف لسهام النقد،

بل لحجر التقريع والتوبيخ. فلو قال عَرْق بدل عِرق،

أو لو كتب اللفظة دون حركاتها، لترك القارئ في بادية من

الحيرة والشك والاضطراب. وقد يشك حتى في جنسية

المؤلف. فهل يُراد منه أي من القارئ، أن

«يعرُق العظم» أي يأكل ما عليه من اللحم، أو

«يعرَق» أي يترشح

«يعرِق» أي تذهب، أو

جلده فهو عرقان»؟ إن في الأمر لعمري ما

يعرّق حقاً. حتى ولو حصرنا غرضنا في

وليس ثمة ما يخفف منه

عِرق، أي اللفظة التي نأمل أن تنير لنا ا[illegible]

هذه /

اسم هذه المملكة القديمة الجديدة التي انخرطت اخيرا في
سلك عصبة الامم . فمن "الماء القابل" أحد
معانيها، الى "تواشيج (اشتباك) عراق النخيل"
هذه اللفظة
تمر بنا على "شاطئ النهر" الى "الجبل الغليظ
المنقاد" ثم تصعد بنا الى "الجبل الصغير"
وتهبط بنا الى "السبخة" فتمر بنا فيها
"الطرفاء" ثم تنقلنا الى "حبل رقيق من الرمل
المستطيل" وهي اثناء ذلك تزيدنا علما بجوف
الريش" و "بقايا الخمائص" و "ما احاط بالظفر"
و "الحشا فوق السرة" و "فناء الدار" و "الخرز
[illegible]
المثنى في اسفل المزادة" [illegible]
"قطر الجبل" و "الجسد واللحم والنتاج الكثير"!
وهل يبتغي اكثر من هذا النتاج اللغوي، وهو
كله من فضل "عرق" ؟ وهل في هذا الخليط من لغات القبائل
ما يهدينا الى الضالة المنشودة؟ اين منبع "العراق"، اي اسم
البلاد التي استخفت هذا الكتاب؟
قال احد الثقات انها سميت بهذا الاسم
"لتواشج عراق النخل والشجر فيها". وان الاشجار السوم
في بوادي العراق؟ وقال آخر من اساطين اللغة (1):
سميت بالعراق لانها استكفت [illegible]
[illegible]
ارض العرب". وقال ثالث: "انها معربة ايران
شهر" ومعناه كثير النخل والشجر" [illegible] فضاع الاصل
في التعريب كما ضاعت الحقيقة في سراديب هذه اللغة.
[illegible]

(1) الخليل

ينظرون
استكشافًا احاطوا به
(١) استكشف الناس حوله [illegible] بارضه العرب ام
[illegible] ادري
البيد - فهل العراق احاطت [illegible] لست
الا انه قال ايضًا:
ارض العرب احاطت بالعراق
هل ارضه العرب احاطت بالعراق
صاحب القاموس لم يدري:
ولا [illegible] صاحب ويبعد ان يكون
الشيء اخذه يلفه. ولا يستكشف
استكشف الشيء اخذه ... فالجزء لا يستكشف
الكف المراد حتى في الحجاز: [illegible] كبيرة
ولو فرضنا ان العراق كله كشف
الكل. ولو فرضنا ان العراق
ولا استكشاف
فما هذا الكف لينطبق دون ارض العرب.
ونستغفر
غير هذين المعنيين نغضبك منهما
عما تقدم:

٦

طريف ما جاء به الاساطين هو ان الاسم مأخوذ
من عراق المزادة "لجلدة تُجعل على ملتقى طرفي
الجلد اذا خُرز في اسفلها لان العراق بين
الريف والبر." هو لا مجاز، في المجاز.
اما المعقول في كل هذا العلم المنقول فهو ان
البلاد هي على "عراق دجلة والفرات اي شاطئهما".
هو ذا معنى اللفظة العربية الذي يدنينا من اللفظة
المركبة اليونانية التي اطلقها الاغريق على العراق اي
ميسوبوتاميا، وترجمتها الحرفية ما بين النهرين.
ولكن الاغريق اطلقوا اللفظة على البلاد الواقعة
بين النهرين فقط، وقد اسماها العرب بالجزيرة،
واطلقوا "العراق" على البلاد كلها، من عبادان
الى الموصل طولاً، ومن القادسية الى حلوان عرضاً.
وان في الاسم العربي، على تعدد معانيه، وغموض مبانيه،
ما يجيبه الى المعرب بالاقتصاد في هذا الزمان. فاذا
كان يفتقر الى الاثبات والتمويهات الحافلة في اللفظة
اليونانية — ميسوبوتاميا — فهو ابسط واقصر منها،
وهو قبل كل شيء عربي!
وهو اسهل لفظاً وحفظاً، وهو والسلام على
من تحمل منا هذه اللغويات، وما الطف، وهو
يقرأها — باللعنات.

امين الريحاني

الفريكة — لبنان
في ٢٣ ايار ١٩٣٤ و٨ صفر ١٢٥٢

العراق

حدوده: شمالاً ~~جبال ارمينيه والاناضول~~ بلاد تركيه، شرقاً،
بلاد ايران. جنوباً، خليج فارس. جنوباً
غرب، البادية وبلاد نجد، غرباً، بادية الشام.

الويته: ١ً الموصل، ٢ً السليمانية، ٣ً كركوك، ٤ً اربيل،
٥ً ديالى، ٦ً بغداد، ٧ً الكوت، ٨ً الحلة،
٩ً الدليم، ١٠ً كربلاء، ١١ً العمارة،
١٢ً المنتفق، ١٣ً الديوانيه، ١٤ً البصره.

عدد سكانه: نحو ثلاثة ملايين ومائتين وخمسين الف نفس

مساحته: نحو مائتي الف ميل مربع.

شعوبه: عرب وفرس واكراد واتراك وارمن
وكلدانيون واشوريون.

اهم قبائله: المنتفق وبنو لام والبو محمد وربيعه
وشمر والاقرع وعفك
وتميم والدليم وعنزه
وما يتفرع عنها من الافخاذ والبطون.

اكثر
الشيعة: جعفريون وبعض الزيديين من الاسماعيليين

مذاهبه:
السنة: حنفيون وشوافع وحنابلة
المسيحية: يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان كاثوليك
ولاتين وبروتستانيون،
وروم ارثوذكس
ثم اليهود والصابئة واليزيدية
والفرس والهندوس والبهائيون.

مدنه الكبيرة: بغداد والبصرة والموصل وكربلاء
والنجف والحلة واربيل

٨ حوار
بين
الماضي والمستقبل

— وكان الكهان في معبد عِنْليل بأُور
وَنيبور يألّهون ملوك سومر، الدولة الأولى
في وادي الرافدين (٢٥٠٠ قبل المسيح)

— وما الذي صنع أولئك الملوك والكهان
لخير السواد من الناس؛

— وسرجون الأول ملك أكاد اكتسح السومريين،
وفتح بلادهم، وقدّ ملكه جنوباً الى الخليج وشمالاً الى
الجبال (٢٧٥٠ ق.م.)

— وما الذي قام به سرجون وخلفاؤه لخير السواد
من الناس؟

— ومن الجبال في الشرق والشمال انحدر كتيبة كدور
ناخُنتا ملك عيلام، فغزا بلاد سرجون والسومريين،
وحمل تماثيل آلهتها الكلدانيين الى سوزان عاصمة
عيلام (٢٢٨٦ ق.م.) وما الذي شاده خلفاؤه

— وما الذي صنع كدور هذا، وما الذي شاده خلفاؤه
العيلاميون لخير السواد من الناس؟

مدينة القصور والمعابد
للملوك والكهان،
والجهل والفقر والعبودية
للسواد من الناس.

— وكان كهان عشتروت بنينوه، وكهان مردوخ
ببابل، يتعاطون السحر والشعوذة، ويملأون بطونهم
من ضحايا الهيكل، بينما ملوك بابل وآشور يحتربون
ويتطاحنون من اجل السيادة والمجد: والسحر
— السيادة والمجد للكهان وللملوك، و
والنير للسواد من الناس:
— وحمورابي اول المشترعين، وآشوربنيبال اول
المحبين للعلم والعلماء —
مصباحان في الليل الدامس.
— واحتان في البادية، ونبوخذنصر المصلح —
— سنحاريب الفاتح، ومذل اسرائيل،
— وناهب فينيقية، ومن
من جبال الشمال تدفق الحثيون، ومن
جبال الشرق انحدر اكزارس يقود جنوده
الماديين، ومن السهول في الجنوب
سار جيش بابل الى نجدة جيش
المحاصرين
بادي، وقد تحالف النهران
طغى الفرات وطغى دجلة طغيانا
الجيوش المتحالفة، وصاحوا
كلهم قائلين: لتسقط نينوه!
سقطت نينوه (٦٢٥ ق م)
وبعد ستة وثمانين سنة (٥٢٩ ق م)
سقطت بابل.

— دول

— دول تدول، ومجد بعد مجد يحول، مجد سومر
وعيلام، ومجد بابل وآشور، ثم ينتقل صولجان الملك
من يد الساميين في وادي الرافدين الى يد الآريين من الملوك.

— وما الذي صنع الملوك الآريون من أجل
السواد من الناس. أفي سبيل المجد تشييد
الدول أم في سبيل الانسان؟ انهم لطامعون،
الساميون والآريون جميعاً. انهم النهابون والقاهرون،
الفاسقون. شيدوا المعابد وكانوا
يسخّرون الهة العباد، ألّهوا أنفسهم وكانوا
قساة عتاة، وكانوا عبيداً للشهوات.

— ٥ —

— ومن معهد الثقافة الغربية جاء تلميذ ارسطو
الشاب العجيب اسكندر المقدوني. اجتاز البحر الى
الآسيوي. قاد الالوف الثلاثين، وكان ظافراً في كل مكان.
هزم الفرس في واقعة ايسوس الغرانيق، وفتح فينيقية، واستولى
على مصر، وتعقب دارا الى بلاد الرافدين، فادركه قرب
اربيل، وكانت الواقعة الفاصلة بين الشرق والغرب (٣٣١ ق.م).

— في اربيل أُبدل نيرٌ من حديد عتيق بنيرٍ من
حديد مصقول. راح الفرس وجاء الاغريق.

— كان الاسكندر فاتحاً باسم العلم والسيوف. غزا الشرق

— كان الاسكندر ... بناء الصرح

— كان الاسكندر ... قائماً على الارض وعلى السماء،
باسم الآلهة، وعاد ...
— ولكنه في بابل كان مجدداً.

رشاد

— نشأ الاسكندر ان "يأغرق" العالم،
فكانت بابل النهاية لصرعة - لسكرة - مفجعة، وكانت
النهاية لحالم ذهبي، فبعد الاسكندر دون
— قد تحقق قسم منه ذلك الحلم
التآخي بين الشرق والغرب:
فقد تغلب البرثيون الشوريون
— حدثت ثم ارتدت. يوم كان ذلك
على السلوقيين الاغريق (١٢٦ ق.م) اختطفوا علمه
التآخي في ازدهاره الاول مجال الشرق الادنى،
— زرعت بذوره في ارض طيبة
— فجاءت روما بجيوشها لتدوسه وتسحقه سحقاً. وما
كانت روما ممن يحلمون الاحلام فضل يذكر في الرقي والعمران،
— مع ذلك فقد كان للرومان عقيدة والطرق لجيوشهم
المعابد لا لالهتهم وتسهل على الشعوب
— عمّروا مثل الجيوش لاخذ اجل
وكانت الآلهة من اجل روما، من اجل
والامم باسم روما.
القياصرة في روما هي هدم مدينة العصور
— مدنية المعابد والطرقات للملوك والصعاليك.
والمعابد. يقصد للملوك والطرقات كالسواد في
— ولكن السواد من الناس في عهد الرومان كان
عبيداً للكهان والملوك
عهد بابل وآشور،
وحطباً للحروب في وادي الرافدين.
وما افلح الرومان
بعد مائتي سنة من الاغارات
والحروب

١٢

والحروب سلّمت رومة الى سلوقية. وما خلا الجو لسلوقية طويلا. عاد الفرس الى العراق (٢٢٦ بعد المسيح) فاستولوا عليه، واستمرت فيه الدولة الساسانية اربعمائة سنة. ذلك النزاع الذي

— والنزاع بين الشرق والغرب، تجدد بشكل

كاد ينتهي بعد واقعة أربل، تجدد بشكل ديني: بين المسيحية والوثنية، المستطعين

— وما الذي أثمر جدال ارباب الدين، والمتعصبين، لخير السواد منهم الناس، بل لخير الناس جميعاً؟

— ٥ —

— وفي ظلمات الجاهلية في سماء الحجاز، سطع نور النبوة، نور دين جديد. فمن المؤمنين ملتزمين بسلاحهم الاسلام وكلمة التوحيد، فاجتازوا البوادي الى الارض الخضراء يرومون الفتح لله، والخلاص للناس. فكسروا فسوانه وعلى الفرس في العراق. وبددوا جحافلوا على الروم في (١٢هـ ٦٣٤م) وبعد جند هرقل في اليرموك (١٤هـ ٦٣٦م) وبعد جنود فارس في القادسية سنة عشر سنوات من وفاة النبي رفعت اعلام العرب فوق قصور فارس، وفوق حصون دولة الروم.

/هي

— هي نار النزاع بين الشرق والغرب تزداد اضطراما.
وهي كذلك اول شعلة من نزاع يتجدد بين الساميين
والاريين: بين العرب والعجم.
— ولكن الاسلام دين التوحيد، ودين العدل
والاخاء والمساواة:
— المساواة والاخاء في الحروب بين السنة والشيعة.
والاخاء والمساواة في الحروب بين التاتار والترك
والمغول والعرب من الصليبيين!
— انما الحكام المسلمون، وخصوصا العرب منهم يتفوقون
في العدل والانصاف بل في كرم الاخلاق والمبرات.
سموهم على الاجيال اكثر حلما وعدلا من اكثر ملوك
الفرنجة في الخلفاء الراشدين وفي نخبة الخلفاء
— يصح هذا في الدولة العباسية في العراق المثل
الامويين: اما الدولة العباسية فما كانت
(١٣٢-٦٥٦ هـ = ٧٥٠-١٢٥٨ م) ولا كانت المثل الاعلى في الاسلام
الاعلى في العروبة، واخرهم العاجز المستعصم بالله.
اول خلفائها "السفاح"
— وهرون الرشيد؟
— شخصيته باهرة اجتمعت فيها الاضداد. فقد كان
هارون ورعا تقيا، وخليعا اباحيا. وكان يشرب المسكرات
والملذات، عادلا يوما، وفرعونا ظالما تارة اخرى
على ابهة الملك، وطورا يرمي بجواري للصيادين..
ولا اذكر نكبة البرامكة..

— والمأمون، ما تقول يا مأمون؟
— المأمون، غفر الله ذنبه في أخيه، هو مثل حمورابي
في آشور. — المأمون نجم العباسيين الساطع، ونورهم
اللامع على الدوام.
— وجاء هولاكو بجيشه الجرار صائلاً فاتحاً
— هولاكو من كبار القواد المسلمين الذين وقف الإسلام
على شفاههم، وما دخل إلى قلوبهم
— فتح هولاكو بغداد لسنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م، وعمل السيف بأهلها
— التهمها ودمرها
— وحكم التتار في العراق نحواً من ثمانين وخمس
سنة، فعاد الفرس (٩١٤هـ - ١٥٠٨م) ثم جاء الترك بعد
ربع قرن فنزعوا البلاد منهم، فنزعوا البلاد من يد الفرس
واستولوا على البلاد (٩٤١هـ - ١٥٣٤م) سنة
وظلوا أسيادها أربعمائة سنة
— أربعمائة سنة مظلمة، يبدو إلى جانبها العهد
التتري عهداً سعيداً، ولو استطاع الترك
أن يحملوا النهرين، دجلة والفرات، لكانا اليوم
أجف من رمل البادية، وأقفر من أرض الحماد.

وفي السنة ~~[illegible]~~ السابعة عشرة من هذا القرن
العشرين جاءت الجيوش من الغرب - رجاله زرق
العيون، متحدرون من الفرد الكلتي السكسوني
والنجم الفاتح السنوسندي - فحملوا على الترك
وانتصروا بمساعدة العرب عليهم، وقد قرأ
قائد الجيوش على اهل البلاد مادة من عهد
مقدس يضمن للناس حقوقهم العامة منهم
والخاصة على السواء، ولاول مرة في تاريخ
العراق الاسلامي وغير الاسلامي تأسس
في البلاد مجلس نيابي، وجلس على العرش
ملك دستوري. رجل ابهر المرء اذ وعى في
تواريخ دول هذا القطر كلها - الدول
الآرية والسامية والتاتارية والتورانية -
التي تعلن حق البلاد وتنص في دستورها
حقوق الانسان

—

—

-١-

القسم الاول

بغداد

الفصل الاول

الحقائق في الارقام والاحلام

المدن العربية التي زرتها — بغداد الف ليلة وليلة وبغداد
اليوم — بين الحقيقة والخيال — عصر هارون الرشيد
ومن نعموا به — كيف يلتقي الخليفة والصياد
ويتآخيان — الحقائق والاحلام "الألفليلية" —
المدنية والمدينة — ~~...~~ نعيم الحياة وحسرت
عنه — شغف الشرقي بالخيال — الشاعر
والمؤرخ والقصاص — الحكايات والحسد ببغداد
العباسيين — القهوي لبغداد اليوم —
و"لا يعلمها غير الله" — طريقة الاحصاء —
الاوهام في الارقام — الحقائق في الاحلام —
أثر من عهد الطوفان — اللؤلؤ والذهب
مجذاف الملاح — شاعر من ٣ عصور ولت
من بابل — شمس الصباح في العراق —

—

الفصل الأول

الحقائق في الأوهام والأحلام

كنت أحمل في ذهني، عندما أقدمت على رحلتي العربية، لكل مدينة زرتها، صورة صوّرتها لي ما قرأت وسمعت. وما تغير في الصورة بعد الزيارة شيء مهم. بل شاهدت في الصفة البارزة لكل مدينة تفوق ما صوّرت. فكانت صنعاء أكثر عمرانًا وحسنًا، والحديدة أكثر خرابًا وقبحًا، وعدن أكثر تجارة وأقل عروبة، وجدة أكثر عتقًا ورثّة، وجيزان أشد وحشة، والرياض أحب قداسة، وعنيزة بين نفودها الذهبية أصفى جمالًا، والهفوف أكثر غبارًا وذبابًا مما كنت أتصور أو أظن. فما كذّبت هذه المدن ما قرأت، ولا أفسدت ما سمعت.

أما بغداد فأمرها غير ذلك. قد جئت بغداد من أفق كان في قديم الزمان كثير الأنوار والألوان. جئتها وفي القلب أثر شديد بدهشة لا يزال من تلك البهجة. بل جئتها من عالم الأحلام، كتب التاريخ والشعر. وبكلمة أخرى لقد جئت بغداد من عالم «ألف ليلة وليلة» المبهجة حواشيه بالذهب والأرجوان. فهل يُعجب إذن خيبتي، هل يُستغرب غمّي؟

ميدان تتباين الحقيقة والخيال هو في يومنا هذا كما كان في الماضي، ولكن الزمان يلبس الأشخاص ثوبًا جديدًا من التقليد

التقديس، ورفعها في عيون الناس الى منزلة الوحي المنزل.
يحق لنا اذن، ونحن في هذا الزمان نعرض للبحث حتى الوحي
المنزل، ان نبحث وننقد ما يجيئنا به التاريخ قبل ان
نقبله مصدقين معجبين، او نرفضه مستنكرين.
وليس هذا بالامر السهل. فمن ذا الذي يستطيع ان
يجيب مثلاً على هذا السؤال: اين تنتهي الحقيقة في عهد العباسيين
الذهبي؟ واين يبدأ الخيال؟ اي اسأل سؤالاً آخر. ولكني
اقول قبل ذلك اني اصدق فرضاً كل ما قاله المؤرخون والراوون
في ذلك العصر الذهبي. ثم اسأل: هل كانت اسباب تلك
المدنية منتشرة شاملة؟ هل كانت بغداد كلها، او هل كان
جلّها، على طراز ما كان من بناء وبهاء للخلفاء والامراء
والاعيان؟ وبكلمة أخص: هل كانت المرافق مثلاً واحدة
في المدينة، وهل كانت عامة على انواعها، كما هي في هذا الزمان؟
وما هي الحقيقة في عصر هرون الرشيد؟ وما هي الحقيقة
في بغداد هرون؟ هل ننكر ما جاء بخصوصها في "الف ليلة وليلة"
وفي التواريخ كثيرها في تلك الحكايات؟ لا شك ان لبغداد
كانت كالقاهرة او كدمشق، او كانت تفوقها في
عمرانها وبهجتها. ولا شك ان الرشيد كان يفتخر بها ولقد حببها
مدحين الى حب طرائفه وغرائبه. ولا شك ان الصيادين
كانوا ينعسون بل ينامون على شاطئ دجلة وهم يرمون بشباكهم
للاسماك. اني اصدق كل ذلك لانه الحقيقة بعينها حتى
في هذا الزمان. فهناك بغداد تزيّن البلاد. وهناك مليك
مثل هرون من صميم العرب، وله مثل ذلك العباسي رغبة بالتفكر
فرارًا من أبهة الملك، وحبًا باستطلاع اخبار الرعية.

[illegible]

وهناك كثير من الشعراء والصيادون :

أما تلك الصلة الأخوية "الرشيدية" "الألفليلية"
بين الملك والصياد فإنك لا تجدها . قد يكون الملك ديمقراطيا ، وقد يكون الصياد
فيلسوفا سقراطيا . لكنهما يسيران كل في سبيله ،
في خط مستقيم او معوج ، ولا يلتقي الخطان حتى
يجيء صاحب (القاعدة الكذبة) او صاحب الحكايات
الشهرزاديات ، فيرى ذات يوم ظل الملك قريبا
من ظل الصياد ، فيلفق القصة ، او يؤلف الاسطورة ،
التي تتذبذب فيها الخطات - الظلان - ويدنو الواحد
من الآخر ثم يتلامسان ، ثم يلتفان ويتشابكان ،
ويتلونان بألوان قوس قزح ، ويتكونان أشكالا
فنية ، رومنتيقية ، "الفليلية" تبهر الابصار ،
وتسحر الألباب الصغار والكبار .
لست أنكر سحر الآيات ، وأعاجيب الحياة ، حتى في هذا
الزمان . فالصياد البغدادي موجود كما قلت ، والملك
كذلك من حقائق الوجود . ولا يستغرب اذا امعن
الصياد في الاحلام وود ان يكون حاكما من ملوك الزمان . ولا
يستغرب اذا اشتهى الملك في بعض الاحايين ان
يكون من الصيادين . وقد تتحقق رغبة الاثنين (الاثنان)
فيهتف الشعراء قائلين : لا حقيقة ثابتة غير
حقيقتنا . الحقيقة الشعرية فوق كل الحقائق .
وإني أسأل سؤالا آخر : كم كان حظ عامة
الناس من تلك المدينة العباسية الباهرة ؟ هل
كان

كان يستمتع الصياد والملاح والاسكاف والفلاح بشيء من ذلك
النعمة التي كانت تبسط اجنحتها الذهبية في البلاط
وفي قصور البرامكة، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور
الملكية والاميرية؟ هل كان للسواد من الناس
بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة؟
هل عم بغداد ذلك الترف والتأنق في العيشة وذلك
الزهو والسرور، وذلك المجد والعز والتهذيب؟
لا يلزم ان نعود الى التاريخ لنجيب على هذا
السؤال. كان للماضي الحاضر الدليل والبرهان. اذ في
شرقنا اليوم - في المدن التي لا تزال شرقية، او لم تمس
بغير القليل من مدنية الغرب في البناء وفي المرافق
العامة والخاصة - ان فيها من ظلمات الاسواق وقذارتها
ومن ازدحام الحياة وموبقاتها، ومن النتانة والعفونة
والامراض، ما لا نجده ابدا في اوروبا الا في بعض احيائها التي
تدعى slums وهي مهد الاوبئة الادبية والاجتماعية
والروحية والجسدية. اما الفرق بين المدنية
الغربية والمدنية الشرقية فهو ان مثل هذا الحي
في الاولى جزء صغير منها، وهو في الثانية الجزء الاكبر
وهذا الجزء الاكبر هو المدينة. اما الدور والقصور
وان كانت في قلبها فليست هي منها. وفي الدور
والقصور المرافق والاثاث والاعلاق، وفي غيرها
الفقر والقناعة والاقذار، والاستسلام الى الاقدار،
هناك اقلية تستمتع بخيرات الارض وطيبات
الحياة

~~[illegible]~~ الحياة، وهذا السواد من الناس وهم قانعون
بالنعيم المنتظر، وبما تعدهم به الكتب المنزلة. هناك
المدنية، وهنا المدينة:
وبما ان السواد من الناس يعيشون محرومين في الدنيا
تراهم يشغفون اكثر من سواهم بالقصص والاساطير التي
تمثل النعيم المنشود — حقيقة النعيم، او لعلها حقيقته، للامراء
والاغنياء. وحدثت عنه حكاية او اسطورة او
قصيدة — لسواد من الناس. ومع ان السينما
تغزو اليوم بلاد القصاص، فيتهافت العرب عليها
ليروا ويسمعوا شهرزاد هذا الزمان — الشاشة
البيضاء وما وراءها من سحر الناطق والتصوير — فان
القصاص لايزال ملكاً سعيداً، وله عرشه في المقاهي؛
وهذا الشغف بالحكايات والآيات والمعجزات،
هذا التعظيم للخيال، هذا التقديس للمحال، لايزال في الشرقي
من الخلال البارزة. فهو يقنع بظل الحقيقة، ويقبل متورعاً
مجبوراً ما يحاك من الظلال كما لو كان حقائق دينية؛
ثم يعلل النفس بلحم تلك الحقيقة ودمها بجسمها المادي؛
كذلك كان الشرقي، ولايزال على الاجمال كذلك.
وقد شحذت هذه الخلة المخيلة منه، فاصبحت لعامل
الوراثة شقيقة العواطف في السيطرة على نفسه، في عقائده
واحكامه، وفي آرائه واهوائه. ولا عجب اذا خضعت
كلها للخيال، واعتصمت بالمحال. فمنهم يستمتعون بطيبات
الحياة

الحياة لا يضيعون الوقت في احاديثها. ومن يحرمونها
يسترسلون في الاحلام التي تزينها المخيلة وتذهبها
الاهواء. فتتمثل امامهم اذ يسمعون القصّاصين
او يجلسون اليوم امام الشاشة البيضاء، صورًا مستغربة،
وصورًا خلابة.

ومن هذه الصور صورة بغداد في عهد العباسيين الاول،
اشارة الى ما يولده الشغف بالخيال
وحب اللبيب والتلذذ بالمحال من حب المبالغة والغلو حتى في النظر
الى حقائق الحياة اليومية؛ حقائق التاريخ. فالمؤرخ منه
هذا القبيل يشاء، وان عرض مؤرخ، والقصّاص مؤرخ
بل هم احيانًا يجتمعون في الشخص واحد عجيب،
وشاعر معًا. فقد
وكلهم مجمعون على ما كان من عظمة بغداد ومدنيتها.
كان فيها، كما يقول المؤرخون، عشرة آلاف حمام، وثلاثون الف
مسجد! فاذا كان عدد سكان المدينة مليونًا في نفس، كما جاء
في التواريخ، يكون لكل مائتي شخص حمام، ولكل ستة وستين
مسجد واحد. والمائتان يقيمون في ثلاثين بيت، والستة
والستون في عشرة بيوت. فهل يُعقل ان يكون لكل ثلاثين
بيت حمام عمومي، ولكل عشرة بيوت مسجد؟ (1)

(1) عدد الجوامع التاريخية في القاهرة نحو خمسين. اضف اليها
ضعف او ضعفي هذا العدد من الجوامع الجديدة والمساجد،
وفي مدينة نيويورك من الكنائس والمعابد الكبيرة
المسيحية والاسرائيلية، مائة وخمسون عددًا. وكلها الكبيرة
والصغيرة لا تتجاوز الثلاثمائة.

العربي يرى ولا يعد. وهو في التقدير، اذا كان ما
يراه كثير العدد، يعول على الخيال دون العقل. وهاك
المثل، اذا دخل اعرابي الى بغداد اليوم من الجهة الغربية
يرى في ناحية الكرخ، عند الجسر، الى الجانبين، عدداً من
القهاوي. ثم يرى صفين آخرين في ناحية الرصافة
كذلك عند الجسر، بينه وبين شارع الرشيد. واذا
ما مشى في شارع الرشيد الى جامع مرجان يرى بين
كل مائة متر واخرى جماعات من الناس يدخنون
الاراكيل ويلعبون الطاولة والدومينو. فاذا سئل
بعد ذلك ماذا رأى في بغداد لقال: القهاوي،
القهاوي في كل مكان. فيحدث عنه من يسمعه ويقول: ليس
في بغداد غير القهاوي. فيحدث الثالث ويصفها بالمئات!
فاذا سمع المؤرخ يجدد المئات، وقد يتجاوزها الى
الالف او الالفين. ولكن الشاعر يفضل عليها لفظة الالوف
لانها في الشعر اعذب من مائة، وابلغ من الف. وعندما
يسمع القصاص الشاعر، وطفق يلفق الحكايات،
فحدث عن قهاوي بغداد ولا حرج.
لذلك تجنبنا الاحصاءات. وقد بلغت
عشرة الاف من الحمامات، وثلاثين الف من المساجد، وعشرات
الالوف من القهاوي. وليس في بغداد اليوم ما يتجاوز
الاربعمائة قهوة، ~~كلها او جلها~~ اكثرها في شارع الجديد، شارع
الرشيد. وليس فيها من الجوامع اكثر من خمسين، اضف
اليها ضعف ~~[illegible]~~ هذا العدد او ضعفيه
اصح/

من المساجد. غدًا

ويلي من الارقام. فيبدري لي احد ارباب التاريخ الحديث

المحققين المدققين ويوبخني قائلاً: ان في بغداد خمسة

وخمسين جامعاً واربعمائة قهوة وعشر قهوات.

ويبدري له محقق مدقق آخر ويقول: القهاوي هي

ثلاثمائة وتسعون عدًا والجوامع سبعة واربعون.

وتحتدم بعد ذلك المناقشة فيخرج منه احد

القهاوي حافظها ليعدها ويتبرع احد

الائمة او المؤذنين باحصاء الجوامع والمساجد.

وعندئذ يتبين اننا كلنا في خطأ فحسب،

وان كان الفرق صاعدًا او نازلًا لا يتجاوز العشرة او

العشرين بيد ان ذلك في علم التاريخ ارتقاء يذكر

والفضل فيه لمن وجه السؤال ذات يوم الى احد

الصيادين الذي كان يطبخ السمك المسقوف على شاطئ

النهر تحت القهوة بالقرب من جسر مود. الى جانب

الكرخ. سألته: وهل تعرف كم يبغداد من القهاوي؟

فاجاب: بقد ما في دجلة من السمك. فقلت:

وكم تظنه في طرف هذا الشاطئ؟ فقال: كله قهاوي. ولا غددها

يحصيها الا الله.

فرحت اعدها – احصيها – فاذا هي: من شمال

الملك فيصل الى الجسر تسع قهوات لا غير،

ويلي من الارقام. فقد يتعطل الفونوغراف في احدى

هذه القهاوي فيغني "ابناء الدوميتو والسشينة" وجوه

اسطر

شاطر قهوة اخرى، فونوغرافها عاطل، والحانة صيّاحة -
كردية تركية مصرية - فيضطر صاحب القهوة المعطّل
فونوغرافها ان يقفل بابه، ويودع الصحابه. او
انه يجيء كردي ~~[illegible]~~ بفونوغراف جديد
ويضعه تحت النخيل، ويضع حوله طاولات
ودواوين من الخشب العاري المسوّس، فيزداد
عدد هذه القهاوي (او ينقص) قبل ان يصدر هذا الكتاب، قهوة
واحدة او قهوتين

ـــه

عوذاً بالخيال من الارقام. واعيذك ايها القارئ العزيز
منها. تعال اذن نقتحم الخيال الشعري، وعندي منه الان
ما لا ينكره العقل ولا ينفر منه التاريخ.
هاك دجلة، وهاك القفة فيه. تلك القفة التي صنعت
بعد الطوفان تجاه مرفأ اور الكلدانيين. وهي اليوم، كما كانت في
عهد العباسيين على الاقل، تصنع من الخوص، وتطلى بالقار
داخلاً وخارجاً. فلو عاد الى هذا الوجود احد نوتيي بغداد
القديمة لكان يهلل للقفة، ويحمد الله انها لا تزال على
شكلها الاول، وان الف سنة لم تغير شيئاً فيها. وقد
يكون النوتي البغدادي الذي يحرك مجذافها اليوم من
سلالة صيادي الرشيد، وقد يكون كذلك احد اسلاف سلالة
مقبلة من الصيادين تستمر الف سنة اخرى. فيجيء
رحالة القرن الواحد والعشرين، ويقف فوق دجلة على جسر
معلق من حديد، فيرى القفة، ويغبط بغداد ذلك

على

على نسخة من هذا الكتاب، فيستشهد المؤلف على
الفسيسة في الأقل من عمرها.
وما هذا كل ما في القصة. فيبين صاحبها كيف
من زمن الى حين ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر،
ويبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمحوها يد الفناء،
ولا تعبث بها يد التغيير. هناك، على وجه دجلة،
في صباح يوم شمسه كريمة، أترى اللؤلؤ في نقط الماء
التي تتساقط من المجذاف، وهو يرتفع فوق
الموج، وترى حول الموجة، وهو يغطس
فيها، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج.
فلو عاد الى هذا الوجود شاعر من شعراء نينوى،
او كاهن من كهان أور
او بنت من بنات بابل، لهذه النجمات الرقة،
لهلل — لهللوا كلهم — الثائرة على
المقيمة على عهدها، الثابتة في جوهرها،
دجلة، حتى حول مجذاف "القفاف" لؤلؤ الذكريات،
وذهب الآمال — الذكريات والآمال التي تنعشنا
وتحيينا، كما أنعشت وأحيت أهل
اليوم
أور وأبناء بابل وآشور.
وفي هذه الارض المنبسطة ارض العراق تجيء
الشمس في الشروق والغروب لطيفة النور، ناعمة الوهج،
لا تحمل الكآبة كما يصورها الشعراء، لتطارد النجوم
روزي

وترمي بسهامها القباب [illegible] والابراج [illegible]

هي شمس الأم، تحتضن الأرض في الصباح

وتتغلغل حبًا وحنينًا في قلب العراق وابنائه.

هي شمس الفنان، تلمس اللازورد في

قباب الجوامع فيستحيل ياقوتًا أصفر، وتكسو

المآذن البيضاء بحلل من الذهب المعصفر.

هي شمس المحبة الأعظم، تسير فوق السطوح

المسوّرة، ولا تكشف سرها، وتقف فوق الجفون

النائمة، فتبشرها بعودة الحياة.

ساعة في الصباح سرها السحر المسحور،

ساعة منه نعيم الحرارة والنور.

الفصل الثاني

الزيارة الاولى

اصل بغداد واسمها – ابن الاندلس وابن لسان لبغداد –
المرثيات والتأثيرات في القرن العاشر والقرن العشرين –
نكبة بغداد الاولى – الدولة التترية – النكبة الثانية –
دولتا الخروفين الابيض والاسود – اسماعيل الصفوي –
الاتراك – النكبة الاخيرة – اشتات الشعوب – القفلية
البدوية – كيف تنبعث بغداد بعد نكبتها الاخيرة – جسر الرصافة
الجادات و"الدربونات" – الشارع الجديد –
وجسر "..." – ابن جهم والشاعر الانكليزي طوماس هود –
الجسور واهل الغرام – اهل بغداد اليوم – الساعات
السافرات – الشحاذون – صوت من الماضي ينشد الاشعار –
سوق النحاسين – سوق الصاغة – خان تلكيف –
جامع الحيدرخانة – مصنع الآجر الملون – الجمال في
القباب وتحتها – مثال من صناعة اخرى قديمة –
"الدار الالفليلية" – شواذ الهندسة – نحن في
بغداد الرشيد – في مثل هذه الدار ... ويحك
يا حمال!

الفصل الثاني

الزيارة الاولى

في الربع الاخير من القرن السادس للهجرة رحل الاديب الاندلسي
ابن جبير رحلته في البلاد العربية، فوصل لبغداد سنة تسع
وسبعين وخمسمائة (١١٨٤ م) وكان لما شاهد هذه المدينة
المشهورة من المحزونين. فُجع في ما حمله اليها من الشوق
والحب والامل. ولا عجب. فكان قد ولّى مجد العباسيين،
وذهبت صولة آل بويه، واشرف عهد السلاجقة في فساده
على الزوال، وأمست دار السلام(١) بغداد مهدًا للفتن، ونهبًا
للتتر الفاتحين.

---

(١) يقول الثقات من المؤرخين ان لبغداد بابلية الاصل. فقد
بناها نبوخذنصر في المكان الذي دارت فيه رحى الحرب بينه
وبين اعدائه، تذكارًا لانتصاره عليهم، واسماها بعل داد
اي مدينة البعل. ومما يثبت ذلك ما اكتشف في سنة ١٨٤٨
العالم الانكليزي السر هنري رولنسون في الجانب الغربي
الذي يدعى اليوم كما كان يدعى في زمن العباسيين الكرخ،
فقد اكتشف في الكرخ بقية حائط مبني بالآجر المحفور
عليه اسم نبوخذنصر وفتوحاته. وكانت بعل داد لا تزال
قائمة، الا انها مشرفة على الخراب، يوم فتح العرب العراق
وجعلوا الكوفة عاصمة البلاد. وظلت الكوفة العاصمة
الى بداية العهد العباسي، فعقد النية الخليفة المنصور
الذي كان يكره تلك المدينة واهلها، على بناء عاصمة
جديدة، فساح في وادي دجلة شمالًا يبحث عنها فكان
يسيره فآثر السهل المجاور لبعل داد، المقابل لما هو
اليوم

لبغداد دار الانس والسرور – «قد ذهب اكثر
رسمها» كما جاء في كتاب ابن جبير، «ولم يبق منها
غير شهير اسمها، وهي بالاضافة لما كانت عليه كالطلل
الدارس، والاثر الطامس.» وما رأى ذلك الرحالة
الاندلسي من حسن فيها يستوقف البصر غير
دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة
الصقيلة.»

«بالله، كيف تتشابه المرئيات في القرنين الثاني
عشر والعشرين، وكيف تتماثل التأثرات، تأثرات
السائح العربي الاندلسي، والسائح العربي اللبناني؟
أكان تغيير شيء لبغداد منذ ايام ابن جبير
بلى، قد تغيرت اشياء، بل تهدمت المدينة باجمعها
وذلك في سنة ١٢٥٨م اي بعد اربع وستين سنة من
رحلة ابن جبير، يوم جاء هولاغو حفيد جنكيزخان
يغزو بغداد، فاكتسحها وبعد ذلك دمّرها. وعندما

تابع الحاشية في الصفحة السابقة:
اليوم البلاط الملكي في الجانب الشرقي، فبُنيت فيه المدينة المدورة
ودُعيت بالزوراء «لان ابوابها الداخلة جُعلت مزوّرة
(مائلة) عن الخارجة.» ولكن لمادة زور من المعاني غير
المألوفة ما تلاعب به اعداء المنصور غمزاً ولمزاً عليه فحمله
ذلك على ابدالها باسم آخر، ولكي يبرهن لهم على حسن نيّته
وحلمه، وانه مسالم على الدوام، اطلق على العاصمة الجديدة الاسم
الذي كان يُعرف به وادي دجلة، وهو دار السلام

...وعندما أُعيد بناؤها كان الناس لا يزالون في
ظل النكبة، فما همّهم في البناء الاصول الهندسية
او المحاسن المدنية، ولا كانوا يحفلون بغير
اللازم للمأوى والسلامة. بُعثت بغداد وما حسنت
حالها الا بعد ثمانين سنة اخرى، اي في اول عهد الدولة
التترية الثانية، التي اسسها (١٣٢٩م) حسن الجلائري.
ثم نُكبت بغداد نكبة اخرى في اواخر القرن الرابع
عشر لما زحف تيمورلنك بجيشه عليها، ففتحها وعمل
فيها بعد اكتساحها السيف والنار. فأُعيد بعد ذلك
للمرة الثالثة بناء ما هُدم منها [illegible] وتهدم منها،
ومنذ ذلك الحين الى يوم احتل العثمانيون العراق
(١٥٢٥م) دالت في هذه البلاد دولتان من التركمان، دولة الخروف
الاسود، ودولة الخروف الابيض (١) وللاثنتين في التاريخ
آثار بربرية دموية. ثم جاء من بلاد فارس (١٥٠٩م) الصفوي
الكبير اسماعيل، فقضى على "الخروف الابيض" الذي كان قد
ابتلع "الخروف الاسود"، وجدد لفارس عهدا في العراق
قصيرا، استمر سبع وعشرين سنة لا غير. فجاء الترك
العثمانيون (١٥٢٥م) يخرجون الصفويين من العراق
وكان اهم ذلك فما استطاع اولئك الترك المتحاربون المتقففون
ان يعيدوا الى بغداد خلال عشرين سنة شيئا
من ذلك العمران وذلك الرونق الذي كان لها في الزمن العباسي
الاول. فغدت، وقد توالت عليها الفتوحات
وتعددت النكبات، كما كانت يوم رآها ابن جبير كالطلل
الدارس والاثر الطامس !!

/ وصل

(١) الخلب

(1) سمّيت بذلك لانه كانا ينقش على علم الاولى حروف
اسود وعلى علم الثانية حروف ابيض، وما كان من وداعة
ذلك الملك التركماني [illegible] في
الحروف [illegible] وسكينته
غير الاسم والرسم،

وهل دامت كذلك في عهد العثمانيين؟ ألم تُهدم
مرةً أخرى في خلال الاربعمائة سنة وتُشيَّد مرة
من الخير والهناء تشييداً حسناً متناسقاً كما لو كان
سيدها المنصور او الرشيد؟ يقول العارفون
من العراقيين اليوم ان بغداد كانت على جانب عظيم من
حسن الذوق في جمالها الهندسي والمدني
العمران، كما الخارجي والداخلي. ولكن الوباء - الطاعون - فتك
باهلها منذ مائة ونيف من السنين فحالفه دجلة في طغيانه،
وكان الاثنان اشد عليها، وافعل بها من غزوات
هولاكو وتيمورلنك. فقد كان الوباء يذهب
بخمسة عشر الف نفس كل اسبوع، والذين نجوا منه
فقد ذهبوا ضحية دجلة الذي طغى على المدينة
تحت المياه الجارفة.
التهم الاثار منها — وهي الاخيرة ان شاء الله —
بعد النكبة الرابعة
على الارض التي امست يباباً، وكادت
تهافتت الشعوب ملكوه منها، وسرحوا
تكون مشاعاً، فملكوا ما المدينة بعد النكبة
يبنون كما بنى سكانها الغابرون
الاولى. جاء المهاجرون جماعات من كل حدب
وصوب — من بلاد الاكراد، ومن بلاد الاناضول، ومن
ايران، ومن البوادي العربية. وما كان بين هذه
الشعوب معرفة ما، ولا كان بينهم صلة وطنية
او

احس قومي او صدفي. بل كانوا كلهم غرباء،
بعيدين بعضهم عن بعضه، ومعادين غالبًا بعضهم لبعضه.
الرائد يطرق اهله كما يقال. وقد كان لكل جماعة
رواد يعرفونها، ولا يطرقون غيرها. فتعيش
لنفسها متحفظة متحفزة
مع انهم كانوا كلهم مسلمين؛ فما جمعت رابطة
الدين شملهم، ولا الطفت شعورهم، وما ازالت غير القليل
من التنافر والتنابذ فيما بينهم. هؤلاء المهاجرون
المتوطنون لبغداد، بعد كارثتها الاخيرة، هم اجداد
سكانها اليوم. وما كان فيهم من العرب لم يكن في النسب
العربي غير القليل، مثل آل السويدي وآل السعدون
وآل الشاوي وآل جميل وبيت الالوسي. وآل الحيدري
اما السواد من الناس، وجل الاخلاط، فلا يزالون
على الاحوال، كما كانوا في الماضي بعيدين من بوتقة
اليوم. وما غير التزاوج المختلط فيما بينهم وان
الادغام والامتزاج، ونزعاتهم الكنسية
قل، شيئا جوهريا في اصولهم القومية، وان تزاوجوا بعضهم مع البعض،
فالايرانيون والاتراك والاكراد، منذ مائة سنة اكرادا واتراكا
ايرانيون كما كان اجدادهم او انهم على الاحوال مثل اليزيديين والاشوريين
والارمن. هم والصابئة يعيشون عقليا في الاقل بعيدين بعضهم عن
بعض، كل جماعة منفردة في شؤونها، وما هم بسكان
بغداد، بل هم سكان الاحياء التي يقيمون فيها، كل جماعة
وكل

وكل طائفة في حيها:

وقد تتجاور الاحياء وتتلاصق بعضها ببعض، ولا
تتجاور القلوب، ولا تتلاصق الاحساسات القومية.
فالعقلية في كل جماعة لا تزال في الغالب عقلية بدوية،
مفتوحة لاخوانها، مقفلة دون الاخرين. والعرب
في هذا مثل سائر الجماعات. خصوصاً القبائل التي لا
تزال في ما كانت عليه. فهي تحافظ على عاداتها،
وتقاليدها، واحكامها الخاصة، ولا تنسى، وشرف
العرب، ما بينها من دم، ومن عداء قديم. هي ذي
المعضلات الكبرى الاجتماعية والوطنية في العراق.

اما بغداد فقد بناها اجداد هذا المزيج من الشعوب
~~بنوها~~ كما بنى من تقدمهم
بعد نكبة سنة ١٨٢١،
بعد كل نكبة من نكباتها. بنوها كما يبني من لا يأمن
حق يومه، ولا يأمل بطول الاقامة. بنوها كل يملي
ذوقه، وحسب اقتداره، وعملاً بالاحوال القاهرة، بدون
تصميم، وبدون اتساق، وبدون نظام هندسي يرعونه،
او اوامر مجلس بلدي مطاع. بنوها على عجل كأنهم كلهم
مسيرون بحاجة يومهم، او مهددون بغارة اخرى،
ووكلوا امرهم الى رب الصدف والتقادير. فنشأت
من الجدران المتعبة جدران معوجة، وعلت السطوح
سطوح، ودرجت الادراج من النوافذ، ولاذت
الاكواخ /

الدواوين بغرف النوم، واشرأبّت الشرفات الى الشرفات،
بل امتدت بعضها الى بعضها، فتوسّعت السقوف وضاقت
الحارات، فصارت تدعى بلغة البغداديين "دربونات".
وهذه الدربونات، جدار الشرفات المتعانقة فوقها،
سقوف ظليلة! انها لهندسة عجيبة
اوحت بها الفوضى، وأيدتها التقادير، وما كان الاتراك
لينكدشون بهذه او تلك، مادام ابناء
التقادير والفوضى يدفعون الضرائب،
ان في بغداد سوقاً واحداً طويلاً عامراً يمتد
من الجنوب الى الشمال، من باب شرقي الى بوابة الاعظمية، في
خط مستقيم، انما كالرمح، فيقسم الجانب الشرقي
قسمين يحلو ان ندعوهما لشكلهما بالكتلة والسفين:
فيلبث القسم الاول شرقاً في سهل رحب، ويكون
القسم الثاني الى جانب دجلة في شكل هرمي قاعدته
العلوازية، ورأسه دار شركات النفط بباب شرقي:
وفي هذه المظاهر الثلاثة من نشوء بغداد تبدو بوضوح
قبح تلك الآفات التي ذكرت: الفوضى في البناء، والصدف
في التخطيط، والقذر في اهواء السكان.
وفيها كذلك المتناقضات المدهشات المكررات.
فهي قديمة وهي جديدة، وهي مزدحمة وهي متبعثرة،
وهي مدنية وهي بدوية. فان شارع الطويل الذي دعاه
الانكليز بالجديد، ثم غيرت امانة العاصمة اسمه فدعته
شارع الرشيد، (هذا الشارع) بما فيه من مخازن حديثة،
ودكاكين

ودكاكين قديمة، ومقاهي ودور سينما، وانوار
كهربائية واسلاك برقية، وعربات وسيارات و"الصبات"
ومنافذ في جانبيه الى "الدربونات" انه لشبيه
بشارع من شوارع احدى القرى الاوروبية. والبلدة
او المحلات شرقه، وان كانت بمجملها لا تتجاوز
المائة سنة، هي جد قديمة بما في ظاهرها - ولا
تخلو بعض داخلها - من السيئات المدنية الشرقية
واهمها ضيق الحارات واعوجاجها، التهدم فيها، والقتام، والروائح الكريهة!
اما القسم المحاذي للشط، وفيه الاندية والقهاوي
والسراي، وبعض بيوت للسكن جميلة، وبعض
البساتين التي ~~النخيل و~~ تزينها اشجار النبك
والنخيل، فما هو بشرقي ولا بغربي، انما هو
جديد بحسن الذوق والتقدير. ولكن في الجهة
اليمنى من دجلة، اي الجانب الغربي الذي لا يزال يدعى الكرخ،
وخصوصاً في الناحية التي تمتد من الجسر حتى الى كرادة مريم،
دوراً على شاطئ النهر جميلة بوداعتها، وفسحاتها، ونخيلها،
وشرفاتها التي تجري من تحتها المياه.

ان بين شعراء العرب شاعراً من الطبقة الوسطى
ظفر بالشهرة في قصيدة واحدة نظمها، بل في بيت واحد
من تلك القصيدة. وقد تكون الشهرة للبيت لا للشاعر. فقد
تغنى ابن جهم بمجازفة له غرامية، في الجهة اليسرى من
الشط قرب الجسر. ومن لا يذكر مطلع تلك
القصيدة /

٢٤-١

القصيدة التي خلد فيها اسم الجانب الشرقي من بغداد،

"عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري".

يذكرني ابن جهم بالشاعر الانكليزي طوماس هود الذي
وثب الى قلب الشهرة وثبة عجيبة في قصيدة واحدة او
قصيدتين. وليس بين الانكليز من لا يعرف المقطع الاول(1) في
الاقل من قصيدته "جسر الزفرات" الذي كان مجلبة
للعيون التي هي مجلبة للهوى، وموضوع القصيدة حسناء
قضت نحبها هناك. كأن الجسور في كل المدن مغناطيس القلوب او كانها
شباك للغرام. وقد يكون فضلها او اثمها في المياه
الجارية تحتها، في رائحة الازهار القرنفلية او رائحة البحار
الزنجبيلية، فتبعث في النفس نشوة يعقبها سكرة-
سكرات! وقد يكون فضلها او اثمها في دنوها من الاجل
المحتوم المقدر، اي من المكان الذي يصلح للانتحار...
"أوله سقم وآخره قتل"

انا كثيرا ما الاثر عند الجسور باوروبا تشهد ساحة
اذا كان قد شهد
حول الغارض. اما دجلة فلست ادري اذا كان حيل
مرة هذا النوع من آخرة الحب. ولست ادري اذا كان ا
الغرام في ايام ابن جهم كانوا يأخذون الجسور للمواعيد على
العرصات والبساتين. انما كانت هناك مواعيد ولا
ريب، واجتماعات. وما فقدت بغداد هذه المزية
الاجتماعية الغزلية في الاقل، حتى في عهدها الاخير

/ يوم

(1) اقلب

"Take her up tenderly,
Lift her with care;
Fashioned so slenderly,
Young, and so fair."
Bridge of Sighs, –
Thomas Hood

يوم اجمها ابن جبير. والعجب دهو الاديب الاندلسي
اذا اشار الى حاجة للماء من الفصل بالقلوب. في قوله:
"حسن الحريمي من هوائها ادهواء بغداد) ومائها
بناء. هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة
موصوفة." وكلنه، على غير عادة الاندلسي، يتخوف
من فتنة الهوى "الا ان يعصم الله منها".
وفي بيت ابن جهم اذ يقول: "فيه حيث ادري
ولا ادري" شيء من هذا التخوف. بيد ان امره الان لا
يجلب همّاً او يستوجب اهتماماً. انما هناك سؤال لا ادري
هذا الموقف منه. ما الذي اكسب بيت [illegible] الشهرة
وضمن له الخلود؟ المكان بين الرصافة والجسر ام عيون
المها؟ وهل كانت حسان بغداد تسفر عند الجسر
يا ترى؟ هذه المسائل جديرة بالنظر، وقد تدعو
للتمحيص والبحث. وقد تثير الجدل. وهي
ولكن هناك حقيقة لا تقبل الجدل والبحث
ان الجهة الشرقية من بغداد لا تزال تدعى باسمها القديم -
الرصافة - المخلد في بيت ابن جهم، كما تدعى الجهة
الغربية بالكرخ. ان هاتين الناحيتين قديمتان
اسماً ورسماً. اما النواحي الاخرى فهي حديثة
في هندستها وفي اسمائها، وسيجئ ذكرها.
كان سكان بغداد في زمن العباسيين يبلغ الفي
الف نفس، على عدهم، اي مليونين. وكانت المدينة
مقسمة الى اربع عشرة ناحية. انما بغداد اليوم
تختلف في تقسيمها، كما تختلف في ادارتها، وعدد
سكانها

هل هي حكاية كما زعم ابن الجهم [illegible] واقعية؟

سكانها يتجاوز الثلاثمائة الف نفس،

اما المحلات التي اشار اليها ابن جبير وذكر اسماء بعضها، فقد كانت كلها في الجانب الشرقي، مع ان الخراب كان مستوليا عليه." وكان الجانب الغربي اي الكرخ قد تقدم في الخراب كما شاهد ابن جبير فيه غير الاثر الطامس." وقد ذكر شكل المحلات في الرصافة فقال ان كل محلة منها مدينة مستقلة. يفهم من ذلك انه كان بين المحلة والمحلة ارض خالية من السكان، او ان بعض المحلات كانت مسورة. وقد امتدت الرصافة يومذاك الى مكان الاعظمية اليوم. وكانت بوابة البصرة مكان باب شرقي او دونه جنوبا. ومع ان هذه المساحة هي نحو سبعة كيلومترات طولا، ولا اظن ان الرصافة تجاوزت الكيلومترين عرضا، فقد كانت ولاشك مزدحمة بالسكان اذا كان ينيف عددهم على المليونين، امس للتشابه ان المدينتين، مدينة اليوم ومدينة امس، من هذا القبيل. فاذا استثنينا الشارع الجديد، شارع الرشيد، وبعض الاحياء الجديدة التي سيجيء ذكرها، يجوز ان نقول ان كل الجادات والدربونات في الرصافة وفي الكرخ تفتقر الى النور، والهواء النقي، والنظافة، والتفريج، في جادات ضيقة متعرجة، بيوت متراصة متعوجة، ما رأيت مثلها في المدن العربية الاخرى التي زرتها، وهي تنعج من القتام والأثام!

اما اهل بغداد يختلفون في طبائعهم عن اهل الكويت مثلا او اهل البحرين. والظاهر انهم / لم

لم يتغير كثيراً منذ ايام ابن جبير، الذي أحكم
ساخرة من كتابه تسوّد منها وجوه، ولا سيما
للاندلسي الاديب، لو عاد اليوم (احيًا) الى بغداد، السلامة
والامان. واقل ما يقال في البغدادي العريق
ببغداديته انه صورة لأهل الارض ويلقي الرعب
في القلوب — انا بغدادي صو(ما) عجمي. فك عينك
زين!! هي
والبغدادية العاملة السافرة هي "دربونة"
في عنجرتها مثل البغدادي، رأيتها
جالسة على الارض، وامامها القفص الخضر تبيعها،
ورأيت احد المارة يتعثر في طرف المنديل
المفروش قبليها، وسمعتها تصيح به، وتصب عليه
جام غضبها، بلغة ممتازة في علم السباب،
كأنها أخذت من احدى رسائل الخوارزمي الى بديع الزمان
الهمذاني! — اين عينك، يا ملعون
الوالدين؟ عوفك الله الرجلين! يا ابن الطريق،
يا ابن البطريق، الله ياخذ [illegible]! لا واطنة
ان [illegible] العرب من هن اذرب
لساناً، واحلى بياناً من البغدادية، ولا اظن
ان ببغداد من يفوقها في بلاغتها الذابحة، الا ان
يكون الشحاذ البغدادي،
سمعت احد اولئك الشحاذين يردد آيات
من الكتاب، وهو جالس على مزبلة في الجادة،
ثم

ثم يسأل قائلاً: أين أهل الصلاح؟ أين الكرام وُلد الصباح؟
أين بحر الجود؟ لقطة منه يا معوّد(1) "لقطة" ولا
تزوّد!
وما كان هناك في ذاك الصباح، ولا هنالك، أحد من المعوّدين
فقد رأيت شبحاً آخر في جادة
أخرى، جالساً عند الحائط، وسمعته، وقد رفع يديه
ودقّات "عينيه" يصيح: اللعنة عليكِ يا بغداد ثم وعلى ذكرك، وعلى
هلاك! الدود يأكل عظامك يا بغداد، وعظام أبنائك!
النار والنفط والوباء عليك وعلى أبنائك، فلا يبقى
منك ومنهم غير الرماد والتراب!
وما أسِفَ مع ذلك أحد المارّين ولا
استرعى نظر أحد [illegible]
إنما هناك صنف آخر من المستجدين، ولهم في
[illegible] لغة غير اللغة التي أسمعتك أمثلة منها
ومع أن التقوى تتمشى بين أضلعهم والورع متساقط
شعراً من أفواههم، فالناس قلما يفقهون، وقلما يسمعون.
هاكم درويشاً من الدراويش يرفع صوتاً هو كصوت
ربابة في خابية، وينشد الشعر شدواً محزناً، وفيه التغزل
وفيه أن كل شيء يزول،
وفيه الكناية:
وفيه الزهد
ويبقى وجه ربك القيّوم
"خيالك في قلبي، وذكرك في فمي
وصوتك في أذني، وحبك في دمي."

(1) أي يا من عوّدت الناس على فضلك و"اللقطة" هو من اصطلاحات البغداديين.

هو صوت سمعته ذات يوم في محلة الشيخ، فاستوقفني
وانا اكتب في غرفتي، ووقفت في الشرفة، فاذا بدرويش
في قارعة الطريق يحمل عصا طويلة وبجانبه النساك.
ورأيت العربات تسير الى يمينه والى يساره، دون ان
تدنو منه، كأنه شرطي. وكان اذا سمع صوت بوق
السيارة يرفع عصاه — هو درويش ضرير — فتميل السيارة عنه،
ويستمر هو في طريقه وشدوه:

"أين فؤادي؟ أذابه الوجدُ
وأين قلبي؟ فما صحا بعدُ
يا سعد زدني جوى بذكرهم (1)
بالله قل لي — فُديت يا سعدُ."

فيقف عند
وها قطعة من النقود ترن في الصحن بيده،
ثم يرفع صوته فوق ما كان منه،
القرار شاكراً

"يا أهل ودي أنتم أملي ومن
ناداكم يا أهل ودي قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا
كرماً فاني ذلك الخل الوفي."

انه يشجي هذا الصوت، وانه ليهيج، صوت يهيج اهل الحب
لانه يردد من اصوات الماضي ذلك الصدى الخالد، صدى ما
صفا منه الروحيات والذكريات. وهو يشجي لانه
يمثل طيفاً من الاطياف التي يرسلها الماضي
"رشادية"

(1) اقلب

وقتی محمد لیزیدک مقاومتی

"وحید" شبی با سعد عشم فردنی

شجونا قودنی که حجرلری "یا سعد"

سيادية في شوارع بغداد المسيرة اليوم باصوات - وقل

بسياط - العمل المرهقة بتكاليف الحياة المدنية

المادية. الذي لا يعرف الشارع

انما هناك في قلب المدينة، هناك كذلك اصوات من

الجديد تتعامل من عوامل المدنية الغربية، التي تستعملها

الماضي بظهر انها ابدية. هي الاصوات

المطارق تطرق النحاس، والمنافخ تنفخ في نار الصاغة

وهناك في قلب بغداد، يمشي العمل الهوينا

يتحادثون، ويزاحمه التكالب.

مسبة الورع المفتوح [illegible] الهم،

هناك يجري في عروق العامل والتاجر والصانع والصانع

ذلك الدم الذي يجري في عروق الدرويش، وان كان البشر لا

يجري على الشفاه، كما يجري على لسانه، فانما لغة قلوبهم

هي كلغة قلبه من قاموس واحد هو قاموس القناعة والوداعة،

وهناك الصباح تتجسم تلك الظاهرة العربية - الشرقية -

التي تناقض كلمة "حب" الكلمات الدينية الذهبية، وهي انه

من الايمان. ولعمري ان بين الايمان والنظافة

النظافة سحيقة.

ان كان في الدرويش او في احد الصاغة، وهذه

وهاكم في السوق المثال الحي الناطق لما في العامل العربي

من الصبر والمثابرة ومن التجويد والجمود، ومن الذوق

والاهمال، ومن الورع والوداعة والقناعة. والقذارة.

تعال أريك اجمل الاشياء من ذهب وفضة تصنع

امام عينيك، تباع وتصقل في اماكن فرشت بالغبار،

طليت بالدخان، وازدانت بالعنكبوت. لنبيس

الولد صاحب المتفخ من العبيد المناكيد. هو اسود الوجه واليدين،

ولكنه عربي الفتيان البيض، تراه مقرفصاً امام النار

لينفخ بها ، ويمسح عينيه بطرف جبته الدكناء ، وترى
سيده في ثياب الزبائن يمسح العرق من جبينه
بالمنديل الذي يستعمله لمسح جواهره ، وهو ينقش
سواراً ، او يدق قطعة من الذهب على السندان .
هذه امرأة في عباءة وحجاب تجلس على حافة الدكة
الى جانب كومة من الفحم والرماد ، ثم ترفع طرفاً من حجابها وتلقي
السلام وتلوم ، فيعتذر الصائغ اليها ، ويقسم بالله انه ما
نساها . ثم يفتح خزانة صغيرة ، ويخرج منها ~~عا~~ الصندوق
صندوقاً جميلاً من النحاس المطعم ، ثم يخرج منه ، فيفكه
منديلاً اطلس كان في قديم الزمان ابيض او احمر ، مرصعين
ويأخذ منها قرطين من الذهب المشغول ، ثم
بالماس ، فيرفعهما بالابهام والسبابة امام السيدة ، حلت
يمسحهما بطرف المنديل ويقدمهما قائلاً :
البركة . فتتناولهما باسمة شاكرة ، وتربطهما بطرف
منديلها ، ثم تفك الطرف الاخر وتدفع ثمنهما ذهباً
وفضة . ثم تنهض وتمشي ، ولا تبالي بما قد يلوث
~~[illegible]~~
لصق بثوبها من وسخ المكان .
قال رفيقي الاديب البغدادي ، ونحن نمشي في ذلك
السوق المسقوف ، ذي الدكاكين الدكن والجواهر الثمينة ،
ان المياه في الشتاء تجري فيه كالساقية ، فتستمر الاشغال مع
ذلك ، ولا احد يبالي . وقد يكون هناك يومئذ الرجل
الذي يحمل دكانه في عبه ، وهو جالس كما رأيته على الارض ،
وظهره الى الحائط ، وامامه منديل مفروش وميزان صغير ،
قد

قد يكون هذا التاجر بالحلاوة هناك في اليوم الماطر الى جانب
الساقية، وهو ينتظر الرزق من كريم ربه.

أتقول، ايها القارئ، ان ما نشاهده في سوق
الصاغة او سوق النخاسين لا يستغرب في مدينة شرقية قديمة
كبغداد. تقال اذن: ليس في احياء الفقراء بلندن او
بنيويورك او ببمباي، على ازدحامها، وقذارتها
وظلماتها، وفساد الهواء، وفظاعة الحياة فيها، ما
يفوق ما شاهدته في الخان السائرين اليه -

هو خان تلكيف وهو من اوقاف بغداد. بناؤه
مربع، ذو طابقين، وصحن كبير مكشوف، حوله
صفوف من الحجرات الصغيرة المظلمة، الشبيهة بالاكواخ.
وفي كل كوخ عائلة لا تقل عن الثلاثة انفس وقد تتجاوز
الستة. وفي الصحن مرابط للدواب، ويلعب الاولاد
بين حوافرها، وبين الحمالين والمكارين، ويتلقفون منهم
اللغة التي اسمعتك نموذجات منها، ان فهم تلك
البائعة، وذلك الشحاذ.

كان مستشار الاوقاف يومئذ الرفيق الدليل. فسارعت
النساء اليه شاكيات متظلمات. وما يشكون الازدحام
والمقاذر، وما يشكون صياح المكارين وروائح المرابط، ولا
يشكون دخان الجيران، والاوساخ التي تلقى امامها في
الايوان. انما لفتن نظر المستشار الى جدار يتداعى،
او الى باب لا قفل له ولا مزلاج، او الى قسطل ماء
مسدود او مكسور، او الى سقف تتساقط
احجاره. وجاءت احدى النساء تحمل ثلاث آجرات
وتقول انها سقطت على اولادها وهم نيام. ثم كشفت
رأس

رأى احدهم تربيا الجرح فيه.

ولما ونحن نمشي في الايوان نرى النساء

امام اكواخهن يقمن باشغالهن البيتية: يغسلن

الثياب، يشعلن النار، يخبزن، يطبخن، يرضعن

اطفالهن، ومنهن من كن يمشطن صغارهن فيقع

القمل في احضانهن، وعلى الارض حولهن. وهناك

في وسط الصحن "مزين" يحلق رأس احد الرجال، وينثر

الشعر وما فيه من المتحركات، بين ارجل الصبيان، وهم

يلعبون، ويغنون، ويتهيجون، ويتفحشون. والى

ان مدخل الخان كمدخل القلاع عميق مظلم.

جانبيه سلسلة خروق لا يتجاوز الواحد العشرة

اقدام عرضا، ومثلها طولا، ومثلها علوا! هي كذلك جعلت

للسكن. وقد استوقفتنا امرأة هناك، وهي

جاءت تحمل طفلا على صدرها وتقول للمستشار

تومئ الى احد تلك المآوي ! ان اجرته ثماني

روبيات كل شهر، وهي لا تستطيع ان تدفع الا خمس،

وترجوه ان يأمر بالتخفيض. فوعدها خيرا!

وذلك خان تحت اشراف ادارة الاوقاف.. والوقف في التعريفات[6]

هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعته.

ولكن للاوقاف

من اجدر بالصدقة يا ترى من هؤلاء البؤساء.

ادارة هي على ما يظهر مثل ادارات الشركات المالية.

لا روح لها، ولا قلب، ولا عين تبصر تلك التي ترى

الارقام، وتعد الاموال. ومن هذه الاموال ما هو

مختلس /

مختص بالمساجد فلا يُصرف في غير سبيلها . وفي المساجد
من فضل ذلك ما لا يجده البائس الفقير في بيته،
او في حيه او في مدينته . ثم هي المساجد الملجأ الحصين، والميناء
الأمين — ملجأ الأتقياء والأغنياء والأشقياء
والمتشردين . وهي ميناء كل ذي وزر ثقيل
وأمل دفين . فالحمد لله ان في بغداد اوقافاً يُحبس
بعض ريعها، وان كان من دم الفقراء، على هذه الاماكن
المقدسة التي هي لجميع المؤمنين .
وكان المؤذنان في مأذنة جامع الحيدرخانه
يؤذن الظهر . وكانت قباب الجامع في شمس الظهيرة تشع
وتتلألأ فيبدو الاصفر خلال زرقتها كالذهب
على طبق من اللازورد . وكانت مياه الشاذروان
في صحن الجامع تتناثر كالفضة . وكانت الرحبات الهادئة
والظلال الناعمة تبدو من الباب كأنها حضن لدن الرحمة،
وهي تلوح للمارين ان ادخلوها آمنين .
دخلنا فاذا نحن في الصحن المبارك، والهواء
فيه نقي كالنور، وكل ما فيه منعش كالهواء . مكان
رحب نظيف ظريف هو للفقير وللغني على السواء . هناك
وهناك ما هو فوق ذلك في المكرمات .
داخل الصحن، في الجامع، تحت القبة اللازوردية،
هناك البحر الالهي
عين السكينة وينبوع السلام،
الذي تغرق فيه، ولو الى حين، دنيا الهموم والاحزان
البشرية .

/ما

ما رأيت في جمال بغداد، وما أقله لفقد نهر دجلة وضفتيه،
مثل ذلك الجمال الفني في قباب جوامعها، ومثل هذا الجمال الروحي
تحت القباب، وليس الذهب في حاجة الى التذهيب.
سأمسك اليراع عن الافاضة اذ لأكشف لك ناحية مجهولة
من نواحي الفن في صناعة كادت تضمحل. انت تسمع، وقد تكون
عالماً، بما يسمونه خزف الرقة. وقد لا تحتاج الى من يزيدك
علماً بما كان للعرب في الاندلس من المهارة والذوق في صناعة
الآجر الملون المصقول، الذي كان يدعى الزلّيج (زلج = زلق)
انما المدهش هو انه لا يزال في بغداد لهذه الصناعة أثر يذكر، وذلك الجمال
تعال ندخل المعمل في جامع الحيدرخانه، وخصوصاً
في القباب والمآذن انما هو صنعه. هاهنا المدهشات ومن المدهشات النظافة
لمن كان منشأه من عندي في سوق النحاسين، والاصباغ. النظافة
التي لا نتوقعها في من يلعب بالتراب والاصباغ. هو رب هذه الفضائل
ثم الترتيب ثم الاتقان. ورب المكان هو رب هذه الفضائل
كلها التي ورثها، كما ورث الصناعة، من ابيه الذي ورثها
من جده. انما لا يذكر الحاكم جبل منه آله تعود. وما
يدريك، قد يكون الاستاذ من سلالة احد ارباب هذه الصناعة
في الرقة او في الاندلس، ووجه انه تعلم وساعده
هو شيخ في العقد السادس، وانه على سنه يعمل محتثاً
لبعض استخدام الارث النجيب. التي تبدأ بخلط
فيشرف على كل فرع من فروع هذه الصناعة، وهو نفسه يصنع
التراب والرمل، وتنتهي بالاستواء
الاصباغ وجميعها من الازرق اللازوردي والاخضر
الصفري، وليس فيها شيء مجلوب. ليس فيها اصباغ
كيماوية

كيماوية هي التي يأخذها من التنك والزجاج اذا صح ان
يدعى هذا المزيج مزيجا كيماويا.
أذن لنا بالدخول الى غرفة الاصباغ وفيها ركام
من صناديق التنك والقناني المكسرة، والرصاص. وفيها
آلة هي كالجاروش فيها حجر، واخرى من حديد،
فبعد ان تجرش المواد وتطحن، تذاب بالماء،
وتوضع في مواعين فوق النار لتغلي، ثم تنقل الى
الشمس لتجف، فتفتت بعد ذلك وتمزج
بالزيت فتغدو صباغا.
ومن مدهشات هذا المشغل ان رجلا واحدا يعمل فيه
الاعمال الاساسية كلها. فهو الطيان، وهو الصباغ وهو
الرسام الفنان. ولا بأس برسومه التي تشتمل على
اشكال هندسية وامثلة من الزهور والنبات
فبعد ان تصنع الآجر وتشوى
وهاك السلم في عمله.
صنعها ويرسم عليها الرسوم. ثم يعيدها الى النار،
فيعمل اللهب بالالوان عمل الشمس بالغيوم المذهبة
والمفضضة. فيذيب اللون الواحد فتبدو حي
حواشيه الوان منه فرعية ناعمة ناعسة. وبكلمة اخرى
تتشبح الالوان تحترق، فتطن، وانت تعجب منها
كأنها دهنت بريشة فنان ماهر.
اما اشكال الرسوم في بناء القباب والمآذن بهذه
الآجر فهو غالبا مركب من الاخضر او الازرق على
صفحة من الاصفر الذهبي، او ان الخطوط
والاهلة فيه هذا الاصفر تتخلل احد اللونين
الاوليين /

الاوليين :

بقي ان اقول ان هذه الاثار الفنية في قباب الجوامع

وما دتها هي على ما يظهر ثابتة طويلة الاجل . فلا الشمس

ولا العوامل الطبيعية الاخرى تضر بالوانها . ولا عجب

فقد دخلت النار مرتين . واذا ما حال الزمان على

تلك القباب في المستقبل فهدمها ، فان الاثريين

ليجدون الآجر في الردم وتحت التراب ، كما يجدونه اليوم

في حفائر سلوقية وآشور ، فيغسلونه ، فتبدو الالوان الزاهية

فيه وقد اكسبها الزمان مسحة عجيبة . كذلك فعل

في البلاط الذي كان يزين قصر الزهراء بقرطبة ، ذلك

البلاط الجميل الفريد يشبه الوانه المعروضة امثلة منه

في المتحف البريطاني بلندن وفي متحف اللوفر بباريس .

ومن الصناعات التي اشتهر بها العرب في الماضي ، ولا

يزال منها امثلة في بغداد ، صناعة الحفر في الخشب ،

وهي عربية بحتة ، وصناعة الزجاج المركب في إطارات ذهبية ،

وقد اخذوها عنه الغرب ، وان ببغداد اليوم بيتا قديما

يقال انه سلم من النكبة الاخيرة ، اي انه يتجاوز المائة سنة ،

فيه من الصناعتين أثر حسن سليم ، وفيه ايضا

من هذه الصنعة ~~الايها~~ ما تعيد الى الذهن ، في هندسته كما في

زينته ، صور وذكريات لتلك الدور التي خلدت

في كتاب الف ليلة وليلة .

على ان مدخل البيت او صحنه الصغير يزيل ما

في النفس من بهجة الشوق والخيال . فقد هدمنا

/ لما

لما دخلنا تجارة من التجارات الكبيرة، يشتغل دور
منها في حلقة من النساء جالسات على الارض
حول ركام من جوز العفص. وهذا الجوز يجبي
من الغابات في جبال الموصل، فتنقيه النسوة العاملات،
وتهيئنه للشحن الى لندن وبرلين، لتصنع منه
هناك الاصباغ. التجارة في الباب:
ولكننا صعدنا الى الطابق الثاني من عجب،
فاذا نحن في غير بغداد اليوم. اجل قد انتقلنا انتقالا
عجيبا الى دار من دور بغداد القديمة التي نحب
من يد الكلمات كلها.
وما هذه الردهة التي يعلو جدرانها الخشب
المحفور المدهون اشكالا نباتية وهندسية المنزوق،
سقفها بالاطارات الذهبية المرصعة بالمرايا،
القائم من نوافذها الزجاج الملون تنقيه الشعريات
الدقيقة الصنع — ما هذه بردهة تركية او
سلجوقية او نوبهية. وقد لكاتف فيه، وتداعت
وما هذا الايوان
لقدمها الصناعات الثلاث — صناعة الخشب، وصناعة
الزجاج، وصناعة النقش، المرسم والتلوين — ما هذا
بايوان احد الولاة العثمانيين: ولا هو بالبوان
كبير من آل بونه

عفوا

عفواً، ايها القارئ العزيز. ما نقلني الى زخرفة
العباسيين اثر قديم في بغداد مثل هذا الاثر الجميل
البهيج. وما هو كذلك بنقشه وزخرفه فقط
بل بشوارد هندسته التي بابهر اشبه بنبت الصدف
والحاجات. كأن الحجرات والايوانات قد نمت في هذه الدار،
كما تنمو غصون الاشجار، او تحجرات المرجان
في البحار.

هي حقاً دار الخبايا والخفايا، دار الاسرار والاحلام،
وعجائب الليالي والايام. كنت وانا انتقل من حجرة الى حجرة،
ومن رواق الى رواق، ومن ممر مظلم يطل على فراغ اظلم
احس اني في شبك من السحر والاستهواء، وشك
ها انذا في بغداد هارون الرشيد في بيت من البيوت
المسحورة، المقصية بمشيئة الغرام العليا، المخلد ذكرها
في ذلك الكتاب الاوحد، كتابنا العربي الخالد، الذي
قال فيه احد المستشرقين المتخذ لقب سندباد
الاقدمين انه كتاب قصص بلبيده، وهو
اليوم من آداب العالم الخالدة، يقرأه الانكليزي والالماني
والفرنسي والياباني كما يقرأه — او كما ينبغي ان
يقرأه — العربي، مكبراً فيه العبقرية المبدعة
الحرة.

انه الغريب ليضيع في تلك الدار، ولا
يستطيع وهو يتغلغل فيها ان ينبذ من ذهنه ذكر
الكتاب الشهير، وامكان القصص البغدادية فيه.

/ولا

ولا عجب. في مثل هذه الدار جنّ أخو الحلاق
وهو يطارد عاريًا تلك الولاّعة الحسناء التي
قادته من باب الى باب وهي تعدو أمامه حتى أمسى وهو في تلك
الحال في السوق. والى مثل هذه
الدار دخل الحمّال بحمله، فاذا هو بين
ثلاث حوريات مخدرات، يشتهين
من يداعبهن ويلاعبهن. ومن الباب
الخفي، في مثل هذه الدار، كان يجيء الجني
ليحمل المتيّم والمتيّمة الى الظلمات
الابدية، او الى احد فراديس الشوق والهيام...
ورجعنا بعد التطواف في الاكوان،
ونزلنا الدرج الى صحن الدار، فاذا
نحن في بغداد اليوم، حيث النسوة
العاملات ينقفن جوز العفص
لمعامل الاصباغ بلندن وبرلين.

—

قلب العراق

٥٠ - ١١٤

الفصل الثالث

الزيارة الثانية

السفرة الثانية –
الامر بالتوقيف –
فلسطين في وداعكم كردست – الدوائر الحكومية في
من بيروت الى ابو الشامات – ثلاث من دوائر الحكومة في حسنات الطريق
الشول – اكل النار اهون من الاسفار" – الإعصار
بعد عشر سنوات – كل الاخطار تزول الاخطرين – هول
وجمع التجار – الانصات – الرطبة السم وبارعه – السيد بسانتو السيارة –
الشول ومعالم المدنية – الأسراء – فلسطين يغضب –
ليلة من ليالي شباط وبسانتو لايشوف – ~~[illegible]~~ – نرعى
الليل والسيد ام وريح شباط – فلسطين السيد –
النجوم – الفجر – السيد والاعرابي – العمال يحملون
الرمادي – فلوجه – ونعيم الزفت – السهود على الجسر – الدوبات –
النعيم – السهود في الحمرات – السهود والسعدون – الاسعاف في القهوة –
شارع الملك فيصل – تمثال الملك – العلمان الادبان على
مستقبل التماثيل في دجلة –

جسر مود – النخلة والمدخنة – يوسف
نزل بغداد – قصر دجلة – الـ"بار" الامريكاني – مطبخ لا
وعوده التاكسيات – حان الشارع الجديد – مع
طبخ – الحكم في الثوب الرسمي – رأسه الدليل المدفوق –
جديد – صقل العربات – المرتفعات – الحديثة – كلمة الالبنت والبرلمان –
الاحياء الجديدة – الاسماء الاسواق – يشرطي بغداد المحتو. – جسد
الطرق الجديدة الجميلة – نسخة بغداد المدهشة –
الاداة النشيطة –
الصانع فيه والصناعات

الفصل الثالث

الزيارة الثانية

—

فلما رحب الكاتب بالنعمة التي تجيئه في ما تقطع
عليه عمله، وقلما يدرك قيمتها، وان ادركها، فهو لا
يتوقف عند التأليف، اذا كان شراع الفكر منصوبا
للريح، وكانت الريح مواليه. اما الان فالامر
بالتوقف هو شبه عسكري، فلا تحول دونه
ريح او شراع. يذكر ولاشك الشيخ
من طالع كتابي "ملوك العرب" رحلتي اليمانية. فقد
قسطنطين يني، رفيقي العزيز الكريم في رحلتي اليمانية، فقد
كان يومئذ الملازم يني، وكانت له في الحجاز جاه وآمال عربية
ما ادرك قدرها الملك حسين، رحمه الله، لينتفع وينفع
العرب بها. فأقام الرفيق ضد الحجاز محوقلاً، ولقي الاستفادة
في الهادئ والمطران البجار، رئيسي في بيروت، واعتنق
مذهبا من المذاهب الاجتماعية القديمة، التي لا تزال محترمة
فاضحى زوجاً، واضحى اباً لابنتين يحمل صورتهما وصورة امهما
في جيبه على الدوام. وهو ينظر الى حديقته في الجبل، الى احبه
الاوطان، نظرة الحزين، لانه لا يزال من المحرومات الزوج والنسب.
ولكنه يحب لابنائه الادبية، ويحبهم، وبنشاط في التوليد،
ويروح ناشراً، على عادته في النشر والتبشير، خبر المولود
الجديد قبل ان يتكون في باطن الاوراق.

وهاكم الان قصة الشراع المطوي. بينما كنت اكتب الفصل السابق،
اجتمع الملازم يني بالملازم راغب بك سركيس احد رفقائه في الحجاز، والملازم
سركيس

الملازم سردست بدأ حياته العسكرية في المدفعية التركية.
وكان من المستبسلين في الثورة العربية (١) ومن اخلص
المخلصين للسدة الهاشمية ~~...~~ دخل الشام مع العرب
الفاتحين، وهلل مع المهللين، وكان من المحزونين
وراح بعد ذلك يداوي جروحه في تجارة السيارات
ببغداد. وكان الملازم سردست قادماً من العراق يوم اجتمعوا
وكان الملازم ... يشغل قلم الرهائن، فرفع يديه
الملازم ... ، فأخبره بما ... يجب ان نزوره
الى السماء مستغيثاً بالله، وقال:
حالاً ونشد ازره. ... فرحبت
وفي اليوم التالي شرفوا الفرقة الملازم سردست، وقد
على المفاجأة بها. كنت لا ازال اذكر الملازم، واذكر ما هو اهم
جمعت به في جدة يوم كان ... للامير زيد، ... قائماً على ...
من ذلك. كان عرش الحسين في تلك الايام، وما كان بين الاصوات
علي، في بحرة من التزلف والمداجاة، منها صوت
التي كنت اسمعها هناك غير بالغة الصوت للصدق والحرية، وصوت
سردست عندما امكن استدراجه للحديث. وما تغير الاثنان:
في المسموع العالي على الدوام (٢). ولا الزواج عقل
التجارة اطلقت لسان الاول، ولكن الملازم سردست وهو
لسان الثاني. باشر الحديث فقال:
صاحب الرأي في المشروع الحاضر، يجب عليك يا استاذ، ان تزور بغداد مرة ثانية
قبل ان تكتب كتابك. فاذا غلبت على مذكراتك
ومعلوماتك منذ عشر سنين تخطئ والله، و... الكتاب

(١) احلب (٢)

(١) هو احد اربعة من ضباط العرب الذين
منحتهم ~~[illegible]~~ الحكومة البريطانية رتبة D.S.O.
لاشتراكهم في محاربة الاتراك في الحجاز
وشرق الاردن. اما الآخرون فهم نوري السعيد
وجعفر العسكري ومولود مخلص.

(٢) وصورة الامير زيد حياه الله وصورة الشيخ قاسم
زنيل تغمده الله برحمته.

الكتاب ناقصاً . فقد تجددت اشياء وتغيرت
وتطورت اشياء كثيرة ، لا يجوز ان اكون جاهلها .
يجب عليك ان تقف في عملك اذن ، وتسافر غداً معي
سنعود في الطائرة — خمس ساعات في الجو لا غير !!
فقال الملازم بشيء من الكمال : وسأسافر معك ! مستحيل .
ماذا ؟ أتسافر وحدك . ومن يعتني بشؤونك ،
وحياة سميرة . فمن يا ترى يساعدك في عملك ، ومن يوقظك في الصباح ؟ ومن ذا
ومن يسهر على راحتك ، ومن يحميك ؟ لا وحياة
الذي يحافظ على صحتك وسلامتك ، رحلتي ورحلتك سواء ، نعم
سميرة ، أتسافر وحدك
اي فاستعد للسفر غداً !!
اقتنعت وما تحمست . فلا اسفار في هذه الايام اذا كان
في البلاد العربية او الاوروبية ، فوائد واداب ودروس وعبرها والعمل
بها . فكيف اهبط على بغداد فجأة من الجو ؟ وكيف اسافر
الى العراق دون ان اكتب الى جلالة الملك حسناً ذنبا ؟
كنت الى الملك فيصل رحمه الله ، فجاءني منه ذلك الجواب
الذي هو ينذرني فيه انه سيأسرني في بلاده
الحميل (١)
دعاها تلطفاً بلادي ، احتفاءً بي للسفر ، وكان
وكنت بعد بضعة ايام اعد
الشيخ ... تسعى لاتمام الواجبات الرسمية التي تتعلق
بالجوازات وغيرها من وقد خطلت ان اظل مرتاحاً جداً
الارض هذه المرة ، خلا يقبوني شيء مما او نغير حتى
في طريق الصحراء .

—◇—

[illegible]

(١) احلب

(1) راجع كتابي "فيصل الاول" صحيفة ٨

رحلنا عن بيروت في الصباح يوم مشرق صحو من ايام
شباط سنة ١٩٣٣، ورحنا نطوي طريق الجبل طيًّا،
ثم مررنا بعد نصف ساعة بمدن الاصطياف التي كانت وقتئذ
مسكنة متقشفة، مثل الحلزون في صدفه، والتي
ستغدو بعد شهرين قطب اللذات والطرب، مستجنة
للناس، مستعينة عليهم بالوسواس الخناس.
هدرت السيارة بجوار تلك المدن الهادي، وفي
سكونها الساكنة المهجورة، فارتفعنا عند ظهر البيدر
خمسة آلاف قدم فوق البحر، حيث كانت الثلج والشمس
يتعاونان في تعديل طبيعة الهواء.
وكان ذلك اليوم من ايام شباط نابيًا في كرمه واشراقه،
فما انقلب حتى في تقلب المناظر ودرجات العلو بل ازداد
جمالًا عندما أطللنا على سهل البقاع ٢٥٠٠ قدم دوننا. وهناك
وقد فرش بالطنافس الخضراء والصفراء والبنية اللون.
بين صفوف معوجة من الصفصاف، تنقطع ثم تتصل
ظهر ويختفي الخط الفضي الرقيق، نهر الليطاني،
فيبدو وحينًا كالسهم، وحينًا كالأهلّة، في طريقه الى
البحر. وفي آخر السهل الجبل الشرقي وقد حل فيه
الثلج والاخضرار، فهو جاهم مانع، الا في منعطفات
اودية حيث طريق الاسفلت تنساب بين
البطاح سهل
وبعد ساعة من البقاع لقينا الجمال الحي الطروب
في المياه الجارية والبساتين. انما الاشجار كانت
لا

لا يزال في اغفاءة الشتاء، وكان نهر بردى لا يزال مكفهر

الجبين مما تثقله به السيول؛ ذلك مدخل دمشق الغربي. وفي صباح اليوم

التالي، بعد ان بتنا في المدينة، كنا نسير في ظل

الجمال الذي يزدان به مدخلها الشرقي. اما الجمال

نفسه انما هو الغوطة السندسية، وقد كان على

وجهها نقاب دقيق من اثقال الشتاء الجامدة. فحررنا

بين بساتين من المشمش والجوز دكناء، وحقول للكرمة

والقنب غبراء سمراء، ولما ان اجتزنا النيف

والعشرين ميلاً منها، دخلنا فجأة في الارجاء

اليباب. فانكشف لنا فراغ البادية، بل تشبح

هول الشمول.

اما هنا هول وذلك الفراغ خمسمائة ميل

وهناك من هذا الهول الا في وادي حوران الذي يشق

ويزيد لانبساط جبلها الغربي — من

بادية الشام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي — وفيه الحياة اي الماء والكلاء

الفرات الى الجوف

لمن ينشدونه من العرب. ونجتاز مسافة لا تتجاوز

بعد ان نخرج من الغوطة حدود الشام

العشرة الاميال نصل الى مخفر

حيث تستوقفك الحكومة

بين يدي ابواب الشامات او العشرات من

السورية الانتدابية لتتفقد فيك

دوائرها هي دوائر الجمرك والشرطة والاستخبارات

يحمل شيئاً في حقائبك فرض عليه رسم جمركي

/ ووصل

بعض

وهل يحمل جواز السفر مقبولاً لدى الحكومة التي يحمل اثقالها،

او لدى الفصيل الذي تنتمي اليه، ولا ينتمي هو اليك؟

وهل انت ممنوح باذن لهم دائرتا الشرطة والتحري

ودائرة الامن العام بالخروج من البلاد او بالدخول اليها؟

هذه المسائل تصدم بها عند بئر الماء، على حاشية

البادية، حيث ابتني مخفر ابو الشامات: اكل النار

تعبئا الحكومات هذا الزمان التي جعلت

اهون من الاستفادة: دخلنا دمشق ساعتين، بعد ان

منذ عشر سنوات على الباب شرطي

اجتزنا البادية آمنين، وما كان فالمخفر في ابو

او دركي او عسكري مستشار، شيء جديد غير سعيد،

الشامات اذن هو الا انه من حسنات الطريق:

وهناك جديد آخر لاحظناه، كانت السيارات تخرج من دمشق او من بغداد

منذ عشر سنوات في اي يوم كان من الاسبوع، على شرط ان

تجتاز البادية، وكان قد انشئ مخفر البادية، وكان

تكون مصحوبة بدليل. فما كان المسافرون عرضة او للثار من الناهبين من البدو، او للعصابات:

اما الان فلا تخرج السيارات الا في يومين معينين

كل اسبوع، فتسير كلها كقوافل، يامن في التعاون اذا

تعطلت احداها، وتضمن سلامة الركاب وحوائجهم

في الطريق في ذلك اليوم من شرطة البادية:

ما بقي اذن من الاخطار غير اثنين، الواحد من

الطبيعة، والثاني من الانسان. اما الاول فهو خشونة

البادية

البادية، ذلك الجنون الذي يخشاه حتى أبناؤها. هو
هول الشول بعينه. هو جنون الرياح التي تهب إعصاراً
فيه نار" وفيه ما هو أشد بلاءً، فيه رمل وتراب.
إعصار يحمل من الأتربة ركاما، فيضيق على المسافرين
الرحبات، ويبدد مواطن النظر كلها. إعصار يعمي
الابصار. وما هذا كل شره، فهو اذا لقي قافلة
في طريقه، وكان سائق احدى السيارات ضعيف
العصب او النظر او القلب، وغير ماهر في مهنته،
فتهتز بيده القضبان على الدولاب، فتدور السيارة
بجنبها للمهب، بدل ان تظل سائرة وراءه في
خط مستقيم، مدبرة او مقبلة - اذا كان الأمر
كذلك ينفخ الاعصار في جوف السيارة،
وتحت أنفها، فيرفعها عن الأرض، ويقذفها
قذفة فيها الدمار، وفيها الموت.
اخبرني من شاهد مرة احدى السيارات في
مثل هذه المحنة. فكان الاعصار يعصف فيها عندما
جنبت، فرفعها فوق الأرض، وقذف بها مسافة أمتار
من الطريق، فحطمها وقضى على كل من فيها.
اما الخطر الثاني فهو من طمع الانسان المتاجر
بالاسفار، ومن جهل المسافرين او اهمالهم، او من
رغبتهم في توفير دريهمات من المال. فانك لتعجب وتحزن
اذا رأيت سيارة من سيارات الشركات الوطنية،
الحاملة ستة من الركاب الراكبة حقائبهم وبضائعهم
و[illegible]

ورزمهم، ليس الى الوراء وحول الخزان فقط، بل الى
الجنبين، على طول الدرجتين حتى مستوى
سقفها، فتنسد كل الابواب، الا واحدًا لا غير؟
فكيف يخرج الركاب اذا ما فاجأهم الخطر؟ اذا انقلبت
السيارة، او اشتعلت فيها النار من عود ثقاب مشتعل يرمى
اهمالًا بين الحقائب، فكيف يخرج منها الركاب والسائق،
كيف يخرجون مسرعين لينجوا كلهم بانفسهم
كانت في موكب ذاك اليوم خمس سيارات مشحونة
مزدحمة، مسدودة الابواب، كما وصفت، وسيارتان
كبيرتان تحمل الواحدة عشرين راكبًا، كراسيها معدودة،
فلا سبيل للازدحام، وسطحها مقعد لاربعة الركاب.
ثم ثلاث سيارات شحنة، منها واحدة تحمل البريد.
والموكب يسير عادة كلها في وقت واحد.
هذا النظام في السير هو من حسنات السفر
بين سورية والعراق، فهو يذهب بهول البادية، الا في
عواصفها، ويزيل وحشة الطريق واخطارها، ولم
يبق من حاجة الى دليل. لقد امحت الطريق معروفة
من آثار الدواليب فيها، وكثيرًا ما تسير السيارتان
والثلاث سيارات في صف واحد، مقابلة بعضها
للبعض ويطلق للسبق العنان.
هناك غير هذا الجديد المفيد: هناك
الاسعافات [illegible] الطريق، في كل مئة او مئتين
/ منها

منها، تنبئ بالمسافات، كيلومتراً في الناحية السورية،
وميلاً في الناحية العراقية، وتزيد بالاطمئنان
انما هي الدليل الاكبر اليوم . او هي وآثار الدواليب
تهدي السوّاق فلا يتيهون، ولا يضلون
السبيل ◊

لقد مدنت البادية. واهم ما تغير وأنشئ
فيها انما هو في الرطبة. هناك، شرقي وادي حوران،
في تلك الشوك، في منتصف الطريق بين دمشق وبغداد،
منذ عشر سنوات غير
هناك آبار الماء التي لم يكن يعرفها
البدو. بل الادلاء من البدو.
تلك الآبار يكتنفها العراء، ويحيط بها الهول العادي،
فلا شجرة ولا صخرة ولا شعيب ينبئ بها او يدل
عليها. تلك الآبار هي ارث البدو، أي كانوا، ومن
اي قفر جاءوا، يسوقون اغنامهم وقوافلهم اليها. وكل
من وردها كان يحمل دلوه وحبله. والا فلا سبيل
الى الماء، ولا حبالة.
فلو جاءها عرب واردين، ولا حبل معهم ولا دلو، وكان
على الماء من معهم الاثنين، وكانوا معادين ما نعني،
فلا بد من قتالهم وغلبتهم ليصيروا من ابناء الرحمة
والمعروف. وكم من معركة نشبت بادها حول هذه
الآبار بين ابناء البادية المتغازين الذين هم "قوم
بعضهم لبعض"؟ كذلك كانت الرطبة رحمة من
الله مدفونة في الشوك، تكتنفها الاخطار، ويحميها
المـ

/اما

أما اليوم. اذا كان الثناء على الانكليز في هذا
الشرق يستوجب الشجاعة فاني مجمع الان ما عندي منها
ومبادئ باسم الله. لنقول صديقي الوطني العربي ان
الانكليز شيدوا هذا البناء - هو مخفر وحصن ونزل
ومركز لاسلكي - لحماية طيارات الانكليز، لراحة
الانكليز، لمصلحة الانكليز لاغير. فيا اخي العربي الوطني،
انك لتغيظ، وانك لتستنفد صبر الصابرين:
فان كانت العاطفة الوطنية شريفة، فذلك الشرف
يزول اذا كانت العاطفة عمياء. وان كان العداء
للمستعمرين حقا وعدلا، فانهما يفقدان اذا لم يكن
لذلك العداء فكر وحكمة ووجدان. واذا كانت
المعارضة للحكم الاجنبي واجبة - وهي كذلك - فانها
تفقد القوة والروعة والتأثير اذا ظهرت في مظهر
التحامل والسخف والحماقة:

ان الرطبة اليوم مرفق عراقي في ادارة وزارة
الاشغال والمواصلات العراقية، وهو كنزل يستوجب التحسين.
فالاثاث رث على جدته، والمرافق وسخة،
والطعام معظمه مما يجيئ بالعلب من وراء البحار،
والخدمة عراقية، والاسعار الكثيرة. ~~[illegible]~~
~~[illegible]~~. فقد يكون ~~النقص~~ ذلك كله
سوء الادارة - الحكومة تؤجر النزل - وقد يكون
من نقص في الميزانية. فالركاب الوطنيون قلما
يبيتون او يأكلون في النزل، والاوربيون قليلون.

ر.ع

ان النظافة مع ذلك ممكنة، وهي تستوجب غير
ارادة المدير وحزمه، فيقوم الخدم باعمالهم ويحسنونها.
اما من الوجهة الفنية فان المكان يشهد على علم
من تولوا البناء، وعلى عزمهم ونشاطهم. ان في الشرق الشمالي
من هذه البادية بناء من الحجر ضخماً منهدماً بني في
عهد الدولة البرثية، في الحروب بين البرثيين والرومان.
ذلك البناء الذي كان يوماً حصوناً وقصورا،
يدعى الحضر، وهو افخم واعظم مما في خزائنه من
الرطبة. ولكننا لا نحتاج اليوم الى اسباب الدفاع
القديمة — اسوار الحجر اسوار تحيط بها الخنادق،
دروج فوقها بروج تحميها الحصون — اي شيء من
هذا في الرطبة. فاذا جاء العدو
ولكن فيها كل اسباب الدفاع الحديثة.
من الجو، يصعب عليه هدم هذا الحصن المنخفض الوديع لان
سطحه المزدوج المصفح يرد القنابل خائبة خاسرة،
واذا جاء العدو من البادية فالجدران الخارجية الكثيفة
الخالية من النوافذ، لا يخرقها رصاص البنادق، وقل رصاص
المدافع. وهوذا عجلة. هوذا علم اليوم. وهل صغران باثرى
بالمقارنة بينها وبين الهيكل والعلم في الماضي؟ من
الجهة الفنية، نعم. اما من الجهة العملية فلا. فتلك هي
فتحناها حلب الرومان الى قلب البادية الحجارة الضخمة، والعمد
الكبيرة. كذلك الانكليز جلبوا قطع الفولاذ،
وجسور الحديد، وادوات العلم من الدفاع
والحفر.

فمن وراء السور على السطح تنطلق المدافع الرشاشة،
ومن غرفة اللاسلكي يشرق نداء
الاستغاثة الى بغداد أو الى لندن والقاهرة.
تلك هي الرطبة. فقد كانت امس بئراً محتجباً
في باطن الارض، يتقاتل ويتذابح حوله العرب، وهي
اليوم السقاية الكريمة — ولا دلو ولا حبل — والملجأ
الامين، للبدو وللطيارين، وللسواق والمسافرين،
من الانكليز كانوا، او من العرب، او من التوبيبيات.
تلك هي الرطبة. وقد كانت امس الهول المجسم، الهول
العاري الاعمى الاصم، فلا يرى غير الدلو، ولا يلبي لغير
الحبال، وهي اليوم ذات عين تبصر، وصوت ينطق،
وعقل يفكر، وقلب يعطف ويحن، فهي تسمع
صوت الاعصار يزمجر وراء الآفاق المشرقة،
وهي ترسل اصواتها المحذرة الى ما دون الآفاق.
هي تهدي الطيارين فلا يضلون، وتحذرهم من العواصف
فتقيهم اخطارها. وهي للمسافرين نعم ساع
في الوقت، وللواردين المستقين عون على الدوام.
وان في الرطبة ما يسلي ويطرب حتى احي
العربي الوطني. عندما دخلنا ردهة الاستراحة الساعة
العاشرة من الليل، كان الوقت بلندن وقت الثاني،
اي الساعة الخامسة بعد الظهر. وهي ساعة الاذاعة
اللاسلكية. وكانت في الردهة آلة الراديو مفتوحة
ترحب

ترحب بنا بقطعة من "عايدة" لفردي، كانت تعزف في
تلك الفينة بلندن، يعزفها جوق كبير على معازفه
الخمسين. ورأينا بعض المسافرين يطالعون (1)
الجرائد، وبعضهم يشربون الويسكي او الشاي، وهم
يستمعون لندن تغني! لندن في الرطبة،
وكانت الرطبة بالأمس نقبة في ظهر السول.
شئت ان نبيت في الرطبة، وشاء الرفيقان ان
نصل الى بغداد صباحاً، فقلت: ضعيفان يغلبان
قوياً، فكيف بقويين؟ في الساعة الحادية عشرة اذن
ههنا [illegible] بلا يسر؟ اين سائق السيارة وصاحبها
وابن السيد يحيى؟ نعم. ان
السيد من السادة، يسير كبير من بغداد عرضه المتكلبين عرشين
الصوت عالي الدعوى، يعنجر ويزمجر، ويلف حول البادة
رأسه عمامة اذرع من الكشمير الهندي، ما كان
في تلك الساعة على مرأى او مسمع منا. خرج الشيخ فسلطه
ولقطني صوت يعلو صوت السيد
ينشده ويناديه. وهو واقف
ويحمله بالمقارنة أنشودة. سمعته
في بوابة المحطة يرسله في الليل - ذلك الصوت - ينكر الليل -
ليحمله الى السائق السيد حيث كان، ويبرزه للوجود،
يا سيد يحيى! يا سيد يحيى!
وكان لا يزال نور السراج يبحث في الظلمة خارج
المحطة، وكان احد الحراس عند البوابة، فقال
لقسطنطين: "اخفض عنك، امش الى حيث النور"
فتسكع /

(1) (أقلب)

(١) واليوم يسمع السامعون الأغاني والخطب العربية
من مركز الإذاعة العربي بالقاهرة

فتسمع السيد لغط قبل ان نصل الى القهوة".

بعد بضع دقائق رأينا السيد يحزم نفسه وراء
على رأسه وحول اذنيه.
قفطان، وهو يلف اذرع الكشمير
~~[illegible]~~ ٣ولبس معطفه المبطن بصوف الغنم. ولا عجب
ان برد البادية في الليل لأشد من برد الجبال، والراطبة
لا تفرق كثيرا عنه دمشق في علوها — ٢١٠٠ قدم — فوق سطح
البحر. لذلك اقتدينا بالسيد فلبسنا لليلة بشاط وريح
ثقل ما عندنا، ونحن نردد قصور عجائب الكالحة التي كان يرددها
قبل ان يضع يديه على الدولاب. توكلنا على الله!
ولكننا بعد نصف ساعة من السير، احسسنا بان
يد السيد تهتز والسيارة تتذبذب في العراء المجهول.
فصاح الشيخ قسطنطين به ان قف
قف يا سيد، فشتت عنه الطريق". فعدنا نحو
يتحقق ظنه،
ثم نزل هو بنفسه
نشد اكثر الفواخل السيارة.
خمسمائة متر الى الوراء
خمسمائة متر الى الوراء. اطنب قسطنطين بمدح السيد
قبل ان خرجنا من دمشق في الشام وفي العراق، وهو رجل
السواق. هو حسن السواقة — هو سيد! وكأني بالرفيق
صادق شريف — من سلالة النبي — اولئك السادة في اليمن. وهم
ونسي ما كان من خطأ
على زعمهم خلاصة الخلاصة — زبدة السلالة النبوية. وقد كان
رفيقي في نجد سيداً كذلك، وما كنت في رفقته من السعد
الناس. فقد كان ~~[illegible]~~ خمراً في اول امره، وخلاً في آخره.

/ نجي

في تلك الساعة، في قلب البادية وبشدة الليل والبرد،
فقد عادت تهتز
ووددت لو ان سائق سيارتنا من عبيد السادة
اليد القابضة على الدولاب، وبتنا للمرة الثالثة خارج
الطريق. نبهنا الى ذلك فاضطرب على عادته،
~~[illegible]~~ في الاسفار، ساعة الخطر،
ولكنه - خذ الحقيقة
اكثر من عرفت تيقظا وحزما، وفي صوته رنة الامر
بكاملها - اكثرهم تشاؤما. صاح بالسيد
والتوبيخ، فتوقف فورا. ثم قال يخاطبه:
- "هل انت نائم؟"
- "لا والله!"
- "هل انت نعسان؟"
- "لا والله!" والله ستنام - كلنا ننام
- "والله انك كذاب. ليصل الى حتفه
اظن ان السيد سلك ذلك المسلك
نمنا كل في مكانه من السيارة، نحو بضع عشية، نوما
النتيجة: كلما صحا يلعن ريح شباط
منقطعا. وكان الواحد منا
وبرد ليلة، ذلك البرد الذي يخترق المعاطف كلها
يتغلغل في الاحشاء، فيقلصها ويزيدني ~~[illegible]~~
تعقدها، واحسست
بعد ان استأنفنا السير
لزمتني الرعدة ~~[illegible]~~ وعندما فاضطرب الشيخ رجال السائق
بوجع معوي شديد. ضحكت، على المي، لنفسي،
ان يقف، كما كنت قد فعلت،
بسمعته وهو عائد الى السيارة يقول: هذه مذلة،
واية مذلة، ان تكشف المؤخرة لهذا الريح القبيح...
ان

وبي لا صدع ايضا .. لودي لو بتنا في الرطبة".

كان الفجر ساعتئذ يتثاءب ويتمطى، ففاجأته الشمس
رفعت رأسها من بطن الارض — منه
وهي مثله كابية او عليلة. بدون مقدمات؛ وهي اشبه
حافة السهل المنبسط امامنا -
بالقمر المغيوم، فما شعرنا بحرارة وجودها الا بعد ساعة منه
نشر بهج. وكان السيد اول من استنشط فينا، فحاول ان يعوض
عما كان من ابطاء، فزاد بالسرعة حيثما استطاع، على ان
الجانب العراقي من هذه البادية صعب وعر، والطرق كثيرة
[illegible] على الثمانين كيلومترا في الساعة
وبينما كنا سائرين بسرعة تنيف على الثمانين كيلومترا في
امامنا اعرابيا يلوح من بعيد بردنه صارخا، ورآه السيد وما اكثرت
به، فتمثل فيه قطعا من قطعان الامر بالمعروف والناهي عن المنكر
على الدوام، وان كان مكروبا متألما، فتمثل الحاضر الفكر البعيد التصور
كل ذره فعند ذكرى تلك الفعلة التي قسام القاطع، لقد خطر لنا احدى
باذى، فامر السيد ان نقف، قد يكون هذا البدوي
السيارات اصيبت باذى، وقد يكون هو نفسه في حاجة
قادما منه قبل القوم مستنجدا،
الى اسعاف.

— وقف يا سيد. أما سمعت؟
اقول لك وقف!"

وكان الاعرابي لا يزال يعدو ويلوح بردنه، فلبثنا
ننتظر وصوله. ولبثنا ننتظر، وبعد ان وصل، رجوع
نفسه اليه. ثم قال انه — عطشان، يكاد يموت
من العطش.

فجبهه السيد بهذه الكلمات: "يا قواد يا ابن
القوادين!"

ر. فكتش

فكشف الاعرابي عن صف من الاسنان كاللؤلؤ المنظوم.

"و ماذا يفيد في الدنيا، يا نطفة السعادين، لو

فطست؟"

فابتسم الاعرابي ثانية دون ان يفوه كلمة.

"و سحقك يا قواد. سحقك يا ابله البله، يا نتانة

البدو. لعنة الله عليك، وعلى جدودك. خذ اشرب."

فابتسم الاعرابي ~~عن صف اسنانه المرصوص~~ ابتسامته الكبرى، ~~...~~ بكلتا يديه

~~...~~ ابتسامة العبيد، وضغط على القربة

فشرب و ~~انتفخ~~ وجعل

ثم مال بوجهه الينا وقال: "يا فان السيد

انا فطشا" فكان شرف بابتسامته فقال السيد

"بعد ان اسقانا الخبز: اذا كان احد ربك الانسبه والسفيه

اوسفيه والانسبه ~~كم~~ الخشى ان نعطش انت

ذات اليوم في البادية فلا تجد من يسقيك ولا منه

يسبك؟" وما انساك بكون

فاجاب السيد: "اما شاء الله كان. وانا سبحان ~~...~~

الله سبحانه وتعالى اعطى القواد الماء،

اعاملته ما يستحق". ان دسيد "الصاحب

فانحم فطى وغلب. انا نكره السادة.

وما نكره البدو. ~~...~~ دكاء ودعاء ~~...~~. هذا السيد. فقد

وما كرهم احد السادة كرهه هذا السيد.

/ / اكمل

استمر يقول: "شنانة البدو - شنانة البدو!" ثم
يباهي ويقول: "لعن الجبال خير من البدو. بعن الجبال يالح
للنار، والبدو لا يصلحون لشيء." فهم يسرفون
نعوذ بالله من تعسف هؤلاء السادة. انهم من
هذه الدنيا وفي رقابهم اسطورة من الاساطير: لا تشبع ولا
السلالة النبوية. ومحال ان الاساطير تعمل مثل الاوادم
تفيد الا نادرا، فيضطر السيد ان يلعن الناس اجمعين،
ليعيش، فيلعن لذلك الدنيا، ويلعن سيد السيارة،
كظم الشيخ قسطنطين ما اصابه من وقاحة
ثم اعاد الكرة عليه، وكان الحديث هذه المرة في السياسة
فسأله قائلا: "ومن هو في نظرك الوطني الاكبر في العراق؟"
فاجاب بصوته الجهوري الغلاب: "الوطني الاكبر؟ إذا انا
والبرهان الى الوطني الاكبر؟ - لست مثل احد من
(انا) الوطنيين. لا المال اتبع ولا الوظيفة اطلب - ولا اريد
شيئا من الحكومة. إذا احب وطني حبا لوجه الله."
سكتنا جميعا. وجاء نسيم الصباح مع نور
الشمس ينعش ما زعزع ريح السيد من يقيننا، ويداوي
ما اصابنا من رياح الليل. فعاد الينا شيء من حسن
الظن بالكون - وبالسادة.

من الرطبة نبدأ بالهبوط هبوطا محسوسا، وعندها
نصل الى الرمادي تنبئ ساعة العلو بأن هذه البلدة
العراقية، على حاشية البادية الشمالية، هي الف قدم فوق
سطح البحر. وفي الرمادي شيء مما نلقيه في البلد
الشامات، الا انه اخف، ولا يد اجنبية فيه. فالمأمورون
في دائرتي الجمرك وجوازات السفر كلهم عراقيون، وقد
الفيناهم

القيام على جانب من اللطف يندر في المأمور اللبناني:
استأنفنا السير ساعة الظهر، ونحن لا نزال آخذين
بالنزول. فعبرنا الجسر في الفلوجة، ودخلت السيارة
بعد ذلك نعيم الزفت، ذلك النعيم الذي لا يدوم طويلا
في طرق العراق. انما هو قطع، او حيتات بلغة اهل مصر،
من الزفت، تصلها بعضها ببعض الطريق القديمة
الحافلة بالغبار والاخاديد. ومتى يتم نعيم الزفت؟
سألت السعدي هذا السؤال، فكان جوابه ان "الوطنيين"
في الحكومة مثل المستشارين، وان المستشارين من سلالة البدو.
وقد شنف اذننا ببعض الفاظه المنتخبة التي رمى بها ذلك
الاعرابي.
على اننا شاهدنا في الطريق بعض العمال وادوات العمل،
تنقل لعنات الوصل، وتحاول نصب الزفت،
ثم اخذت [illegible] في دنونا من بغداد، عن مستوى البحر، فان المدينة لا
تعلو عن سطح البحر اكثر من ثلاثمائة قدم.
عبرنا جسر الحديد الصغير الذي بناه الترك في اواخر
القرن الماضي، وعيدت بغداد يوم افتتاحه وبعده عيدًا طويلًا
مهللا. وبعد ذلك وقفنا امام البناية التي كانت ولا
تزال الجمرك. ~~[illegible]~~ امر المدير، وهو شاب اسمر اعمش، بان تنقل حقائبنا
كلها الى غرفة التفتيش. ثم دخل الى حلقته يتبعه الشيخ قسطنطين
حامل الجوازات والسعدي. وبين كان يفحصها ويسائل
سؤالاته المعتادة، سمعت اولًا صوت قسطنطين ثم صوت
السيد يعلو ويخبو، وسمعته يصيح! اتق الله يا رجل.

بخته

الاحرام ." زجاجات ثلاث غير معنا وما شرعية بحجة

خمر جيدة. وما أيسر السيد
ولكن المدير أصر على ما يطلبه، وما أيسر السيد
الثلاثة لواحد من الثلاث ركاب - هذا
العنبري. الثلاثة لواحد من الثلاث ركاب - هذا
ما يفرضه خارج المدير، واخذ اخته هذا هو وفق القانون،
وللحكمة الجمارك العراقية. فعلينا اذن انا ندفع ~~الرسم~~ رسم
الجمرك على ~~الاجانب~~ زجاجة من العرق. مدير مدقق - مدير عبراني
اسرائيلي. وسمعت السيد يقول وهو خارج منه
مكتبه: "يهودي ابو شمعة! لولا كرامتكم والله
لمرغت انفه بالتراب.!"

وعلى جسر "جود" استوقفنا آخر من اولي الوجوه
البيض، والعيون العمشاء. وكنا قد شاهدنا بين
المارين والالاف ثلاثاً من الحالة يلبسن العباءة
دون الحجاب، فقال السيد: لقد انا دفع رسم المرور
ولعن الوكيل؛ وهذا يهودي ابو شمعة. سيأخذونها
لنا في كل مكان ليلتقطوا الفلوس. ولكن لهم
خفويات" والحمد لله. ارأيت الثلاث اللواتي مررن
سافرات؟ هذه اخوات ابي الشمعة هذا. ولولا
احداهن لما كان هو على الجسر في هذه الوظيفة يلتقط
الفلوس."
وكنا والحمد لله، قد ادركنا النهاية من رحلتنا،
ل وصلنا الى حيث تبدأ او يبدأ البحث عما جد
واستجد في بغداد خلال السنين العشر الاخيرة.

/ قد

قد اشرت الى ما كان من تجديد وتغيير في طريق
الصحراء. واول ما شاهدته في العراق هو جسر الفلوجة الذي
كان من خشب، فاصبح من حديد. ثم الطريق من الرمادي
الى بغداد، التي باشرت وزارة الاشغال تزفيتها،
وسيتم العمل، وهي الطويلة العمر، باذن الله، فيغدو
مدخل العاصمة من الغرب ناعماً للمسافرين،
ومستحقاً اعجابهم. الا ان القسم الاخير منه لهو الان كذلك. فمن الجمرك الى
جسر "جود"، جادة كانت ترابا في الصيف، ووحلاً في
الشتاء، وهي اليوم شارع واسع مزفت فمعسكر،
أُطلق عليه اسم الملك فيصل. الا ان في ساحته عند
الجسر جنينة مدورة تشكو العطش والاهمال
وتشتاق الزهور! تمثال الملك
وفي هذه الساحة، في وسط الجنينة، صنعه
فيصل في القيافة العربية، على جواد شبه عربي،
المثال الطلياني المشهور بيانزو كانونيكا. وقد صنع
ايضاً تمثال عبد المحسن السعدون القائم في باب شرقي.
اقف عند هذين التمثالين لاقول الكلمة الواجب قولها،
لا اشفاقاً على الخمسة الاف دينار ثمنهما، ولا تنقصاً
من شهرة صانعهما، بل تنبيهاً للحكومة العراقية
التي تحتاج حقاً الى مستشار في الفنون الجميلة، قبل ان تقدم
مرة اخرى على مثل هذه الفعلة في تكريم رجالها الخالدين:
ان في هذين التمثالين البرهان الساطع الموجع
على افتقارنا بما هو للغربيين من الآثار الفنية، وعلى

وعلى يقيننا او ظننا او وهمنا انها كلها كمشارة،
على جهلنا بما يكون من استخفاف الفنان العربي
انى على يقين
اذا انتُدب لعمل وطني فني في بلادنا.
ان حاضر هذين التمثالين لخير من مستقبلهما -
فانهما قائمان اليوم فوق مرمر سدتيهما بسلام وأمان
اما غداً، عندما تنشأ الفنون الجميلة في البلاد،
ويصبح الاديب
وينبغ في الامة الفنانون، كالصوفي تذوقه
في تذوقه جمال الفن
البغدادي
للشعر والادب، فلا امان على التمثالين من الاستعداد
غداً تحمل امانة بغداد عليهما لانهما من
سقط المتاع - ادخن خيرهما واحقيقة - لا الوجه وجه
فيصل ولا الجواد جواداً فيصلياً - ولا الوجه وجه
عند المحسن ولا الوقفة وقفته ووقفاته الوطنية
بحجم القدر، فيثور ثائر
الرائعة - غداً - اقول - ثم
الشعب البغدادي على هذين التمثالين، فينزعهما
من مكانيهما، ويرمي بهما في دجلة، غير آسف
على الخمسة الالف دينار التي قبضها الفنان الطلياني ذلك
ثم تنتدب الحكومة
العراقية التي تكون قد استنارت بنور الفنون، فناناً
عراقياً اصيلاً وحراً، ليضع للرجلين الجليلين
ما يليق بهما من التمثيل بالصفر او بالرخام.
عندئذ يتم التكريم لهما وللملك فيصل في ذكراه -
رشاد

شارع وتمثاله.

هيا بنا، قد انفتح الجسر. وهو لا يزال ذلك الجسر الخشبي الذي يُفتح مرتين في النهار لعبور المراكب والبواخر، ولا يزال القسم الذي يُفتح منه كما كان - اما القسم الاكبر فقد فرش [illegible] السيارات منه بالزفت، فخفت الاصوات تحت الدواليب. والعلمان، تبارك العلمان الابيض والاحمر، فهما مفخرتان على عهد مخترعها العبقري، فلا يزال الان قيد أيدٍ بشرية ترفعها وتخفضها لادارة السير وضبطه بين الكرخ والرصافة، وهما على ما اظن من الآثار الفنية الخالدة.

تبارك العلمان

اما ونحن الان في بغداد للمرة الثانية فانا نتوكل [illegible] على الملازم كريسك ليهدينا الى ما اُصلح واُنشئ وجُدد خلال السنين العشر الاخيرة. ان اولها النزل ذات الاسماء الانكليزية المضللة - نزل وندزور، نزل كارلتون، نزل كرزون، نزل مادجستك - واحسنها، واصدقها في شطر من اسمه، هو هذا النزل الذي نحن فيه، فقد كان اسمه نزل مود، فتغير بعد ذلك مرارا، وصار يدعى تيغريس بالاس اي قصر دجلة.

انه صادق في الشطر الاخير من اسمه، فهو على دجلة. اما الشطر الاول فهو مثل اسماء النزل الاخرى كذب وتضليل - ليس في بغداد اليوم قصور الا اذا قلنا قول القاموس ان القصر كل بيت من حجر، او انه سُمي كذلك لاقتصاره على بقعة من الارض بخلاف بيوت الشعر

اذاً كل بيوت بغداد قصور :
المحصر؟ فلا يستقل مثلها.
القصر
اما اذا كان قصراً لقصور الناس عن الارتقاء اليه — لا نزال
بهذا القاموس — فليس في بغداد قصر واحد لان اعلى
بيوتها لا تتجاوز الثلاث طبقات، ولا يقصر دون
وذوو الفتوق.
ارتقائها الا العُرج ونشرح في هذه البيوت
لنعرف النظرة الاسم اذن،
التي يشيد فيها المستأجرون،
القائمة حول صحن كبير ~~[illegible]~~ — والاوروبي منهم
وعلمهم من الاوروبيين الراحة وشهواتها
وانهم ليجدون كل ذلك، ويجدون
مأكول ومشروب
فوق ذلك ما هو حقاً جديد، اي الغرف المجهزة بالحمامات الخاصة
اول مرة نزلت في هذا "القصر" كان الصحن صحن
بستاناً فيه اشجار النخيل والرمان، وازاهر الفل والمرجان،
وظلال بينها بسادروان، ولما زرته ثانياً كان قد احتل
البستان ~~[illegible]~~ اختفى ترابه تحت فراش من البلاط الابيض،
وما بقي من اشجاره غير نخلة واحدة، اقامت في قلبه وحيدة،
وكان الى جنبها قطل من حديد يرفع رأسه الى ما فوق
صدرها، ويحمل اليها على ما اظن، روائح ما تحت ارضه
الصحن من مقاذر او مجارير. ولست حقاً لحال تلك
النخلة التي فُرض ذلك الرفيق عليها، فظللته كرهاً فافسد
لونها لونها. واظنني لفتّ نظر المدير يومئذ الى هذه
الفجيعة في الاقتران. فقلت: "اقطع النخلة او
اخرجها من هذا التقطيع قربيها".
وانه ليسرني ان اقول الان ان مدير التعريس
بالاس عمل برأيي، ولكنه تحرى فيه المساواة
رفقتي

فقضى على القسطل و النخلة معاً. وقد امسى الصحن
ساحة بيضاء، عارية، جامدة، عقيمة، يتسابق فيها
ابن المدير ورفقائه على الدراجات، وتدخلها فتحط
فيها السيارات. إنا لله -
على انه قبيح بنا ذم "قصر دجلة" ما زال
يوسف الكلداني التلكيفي مديره، وما زال معاونوه
وخدامه من اخوانه الكلدانيين التلكيفيين،
كان ابناء تلكيف مختلفون معروفون حيث كانوا
بالنشاط والاقدام، واللطف والتهذيب، والصدق والاستقامة
تلك هي الحقيقة. وليس في "قصر دجلة" ما قد يكون
ت بنا السمجة والفضائح غير ذلك ال"بار"
الامريكاني، الحافل بالكؤوس والقناني، الصاخب الموار
المغري بابنة الدالية، وابنة الشعير الغالية، ذلك ال"بار" الذي يديره
وبكراسيه العالية، ابن عم يوسف، الحذق اللبق البسام على الدوام، فيمزج
العقيق والذهب والمرجان - الوسكي والروم والجن
والجان - ولا يبالي بما يكون شأنها في رؤوس
الشبان، المسلمين والكلدان، الذين يتهافتون على
ونعيمه، تهافت الذباب على ادبسه. فيا يوسف، ويا
ابن عم يوسف، ارفقوا في الاقل بالشبان
العراقيين، وفرغوا زجاجاتكم في بطون الانكليز.

ولا تشتبهون في مطابخكم بهؤلاء الانكليز الذين يحسبون

كل شيء في الحياة، الا الاكل وفن الطبخ، فيسلقون الخضر

يحسبونها مطبوخة، ويشوون اللحوم، ويقدمون معها

الابازير والسوائل المقبلات ليكمل طبخها الضيوف كل على مائدته.

والعجل والثور والخنزير، يا يوسف، انك فيها عدو العرب،

تجيء بالثور في البنك، وتجلب الخنزير بالصناديق،

وتطبخ منها – وتقدمها باردة – لا لبنات لندن – ولا بأس –

وتفسدها – ولا رحمة في قلبك، ولا رحمة عليك – تفسد

بها معدة العرب وأذواقهم – ودينهم! وماذا يفعل

حسن بغداد بخنزير يوركشير؟ وما لذة الحبارى،

يا ابن تلكيف، وهي تستحيل في مطابخك قطعة من ال

روس بيف.؟"

اما الخدم فانهم جديرون بالثناء لما يحسنونه من

الخدمة، ولما فطروا عليه من اللطف والمعروف، ولكننا نتقزز

من الساكو البيضاء في النهار، ومن الثوب الاسود الرسمي

في الليل، ولكنه لبغداد، يا يوسف، لا للندن، والثوب الرسمي

للخدم ~~عربي~~ ان كان ينقصه الاجسام المعتادة له، اللائق بها، وان

كان ينقصه النظافة والكي بالمكواة الحامية كل يوم، فهو

شيء فظيع، ولا نظن ان الانكليز انفسهم يستأنسون له،

~~[illegible]~~ ويرضون عنه لو رأوه. فلو استغني عنه في

نزل بغداد، والبس الخادم ثوبا وطنيا، او ثوبا بربريا، اي

هنديا – قفطانا ابيض وزنارا احمر – لكان ذلك الاكمل الاجمل

/ جلابية ومنطقة حمراء.

ماسوى
ملائماً للمكان، واللطف في نظر الضيف والجمال،
[illegible] نزل يوسف لخير النزل ببغداد.
اما الشارع الجديد، شارع الرشيد، فقد زال منه
وهذا من
العباد، دفن تحت ~~ال~~صفحة من الزفت،
"حسناته"
حسناته الحديثة. لقد شطح القلم في
وليس هناك ما يجابه الجمع. ذلك ان البنايات الجديدة،
أكثرها في جهة باب شرقي، بُنيت على الطريقة القديمة،
التي لا تعرف النظم المدنية، فهي تحتفظ بالصيف حرة،
وتتلم عرضه (بسلم العلي وتكسيرها) احيانا. ان هذا
الشارع لا يزال كالمنشار في نتوءه وفتوقه، وفي عمارة
وحروفه. اما المقاهي فيه فقد ازداد عدد تلك التي
لا يتفرد المرء منها، في شارع الرشيد. فقد
ازداد كذلك الضوضاء، وشرعت الفونوغرافات
وقد وصلت السينما الناطقة الى بغداد، من مكبرات
والمكبرات، ترسل في الشارع الفونوغرافات يا اهل بغداد، صاح
الالحان والصيحات. تعالوا اسمعوا يا اهل بغداد. تعالوا
الامريكان في ساحات كرة القدم واللكام. تعالوا
اسمعوا المدنية الغربية تعج وتضج. ليت شعري
باصوات البغداديين ما يكون عندما تغزو بغداد
كرة القدم والملاكمة، ونحن اهل بغداد نحب
اولئك البرابرة، عبد النجار، باللكام ولعب الاقدام!
هي المدنية الغربية، ولا مهرب منها
وهذه البضاعة[1] منها، وهي زبد بارد حام
شارع

---

(١) [illegible]

الاولييين

يعني انا اقول ان هذه الآثار الفنية في ابنية

الجوامع ومآذنها تختلف عن كل حال

(١) بُصّ autobus جمع أبصاص — لغة

إماتة العاطفة

شارع الرشيد وسوق حمادة ورأس الجسر. اما السيارات
الخصوصية، وهي في
ذات العداد فقلما تجدها.
بغداد، في كل العراق، لا تتجاوز الالف سيارة،
واكثرها قديمة او انها لا تلبث ان تصير كذلك،
لقلة الاعتناء بها. وقلما يفطن السائق او صاحب
السيارة الى ان غسلها مرة كل يوم هو الزم ما
يلزمها في بلاد مثل العراق غبارها ابدي.
قد تقول
ان العربات من هذا القبيل خير منها. ولكنك بعد ان تركب
اذ تراها انها من عهد عاد وثمود. وان عاث
فيها البلى، اذا كنت ممن لا يعدون الدقائق
ترضى عنها وتقول: أخشب يا سيارة! لأن شاطيف
فالمحلة فيها احسن مما يبدو لناظريك،
والخيل ~~[illegible]~~ تجري جري الاصايل
وتثير،
وان لم تكن منها، الخيل ~~[illegible]~~ عندما يرش
الان خال
الشارع بالماء، فيجر الجري البلاء عليها، او بالحري يجرها
اليه. ذلك ان هواء بغداد يحمل دائماً في دقيق
الغبار ما ينفر شيئه في الشارع. فيستحيل اذ يمسه
الماء وحلاً زلقاً ~~[illegible]~~ زلجاً. وعندما تكون الخيل
جاريه جريها المعتاد، رتيبة — وقلما تراها ماشية —
فجأة امامها يد الشرطي لتوقفها، فيقصر السائق
العنان في الحال وبقدر ما تلبيه قواه، فيزلق
الخيل

في
الخيل زلقة هي القروضة بعينها، فتكاد تدخل في
العربة، والولا العربجي تجيد تحت دواليبها. وحدث
ذلك غير مرة، ولفت نظر رفيقي اليه، فابتسم وما
شاطرني في تلك الحال شعور الرفق بالحيوان.
قلت ان الملازم سرديت قليل الكلام، وهو لا يؤخذ
بالاوهام، ولا يروقه حتى الشعري من الخيال، دقيق
النظر، على قدر ما يمد نظره، صريح القول في ما يعلم
ويرى. وقد قال يصلح ما كان من خطائي في
فالقدم، وما كان من رثائي لحالة الخيل: "الليس
الحق على الاسفلت، ولا على الغبار والماء، ولا على
الشرطي او على السائق. هذه العربات من ايام
الترك، وليس لواحدة منها وازع" (اداة للتوقيف في العربات)
وبينما كنا نطوف ببعض الاسواق الجديدة في
السنك قال: "ترى الرصيف في هذه الاسواق ابدًا
غير متسق. ضيق هنا – واسع هناك – وفي بعض
الاماكن يضيع ويختفي. وما ذلك الا من اطماع
الناس، واهمال المجلس البلدي – فالمجلس
رغبة بالتجديد – بالعمران – أعطى اجازاته
لكل طالب، بدون حساب ولا تقييد. وكل
من احتاج الى بضعة اقدام او اشبار من الشارع
اخذها ولا حرج عليه.!!
/ ولكن

على ان في بغداد الجديدة ناحيتين تبشران بالخير:
الاولى في باب شرقي على طريق الكرادة ، تشقها جادة
عريضة ذات طريقين للذاهبة من السيارات والعربات
والآيبة ، وبين الطريقين جنينة مستطيلة ستنمو فيها الاشجار.
ومتى كملت هذه الجادة ، ببيوتها الحديثة الهندسية
وبساتينها المقطع المستطيل ، وكمل بناء الشوارع
الى جانبيها ، تأتي الناحية مما يحق لبغداد
ان تفاخر به مدنا اوروبية . وفي شمال الرصافة ، الى جانب النهر ، ناحية
اخرى جديدة ، هي الفيصلية ، توشيها روضة عمارها
عمومية . وهنالك كذلك العلواظية التي ظهر فيها ما ينبئ بما سيكون من
تخطيطها حتى اليوم . والآن في هذه النواحي الثلاث
جمال المدني على تنفيذ
الدليل على ان امانة العاصمة عازمة على تنفيذ
اوامرها ، وتعزيز اسباب الصحة والراحة
والجمال المدني في الاحياء الجديدة .

بقي ان اشير الى مظهر آخر من مظاهر التجديد في الاسواق
احسنت به الوطنية العراقية العربية . فقد بدأت امانة
العاصمة تطلق اسماء عربية على الاسواق والجادات .
وان وطنيتها في هذا الامر لتستوحي رنة الشهرة
في جميع منازلها : العباسية والاموية ، ال...
والس...

٨

اجل،

والشعبية، الشعرية والدينية وكتابية. كان اختيار إمامة
العاصمة ليكشف عن ذوق شامل دقيق وحكمة بليغة. مثل وذلك
الجادة التي نشأت الى جانب النهر، من باب شرقي الى الكرادة،
والتي ستصبح المتنزه الاول لبغداد، فقد أُطلق عليها
اسم ابي النواس. واحسن من هذا في حسن الاختيار الاسم
الذي أُطلق على شوق العراقيين، وهو اسم الشاعر العربي
الاسرائيلي السموأل، فحبذا الشعر والشعور في حياة
هذا الشارع، وحبذا الوفاء، وحبذا المعروف. على ان
إمامة العاصمة ارادت من الاسم على ما اظنه
ما ترمز اليه جنسية صاحبه. ل وهي في
هي دعاية فسيحة، وان كانت من الحكومة.
الحكومات شيء جديد. وانك لتحب خارج السور فثالة آخر
هناك شمالي البلاط الملكي، الى جانب طريق الاعظمية
منها: بستان كبير من النخيل، شيدت كلية آل البيت، منذ
عشر سنوات، لتدريس العلوم الاسلامية، ففتحت ابوابها للطلاب
نحو سنتين ... ثم اقفلت، وهي اليوم دار
للبرلمان العراقي. من العلوم الاسلامية علم الكلام
الذي يدعى عند المسيحيين اللاهوت. فمن علم الكلام الديني
الى علم الكلام المدني — لابأس وعلينا الكلام، الآن
الانتقال من كلية آل البيت الى البرلمان يُعد جديداً، وقد
يكون — وقد يكون — مفيداً!

— ◊ —

تعال أُريك من الجديد ما لا ريب في خيره. تعال
معي من بغداد الى مركز الطيران
أُريك آية الجمال في الجادات. مسافة تنيف على
... الانكليزي السابق، العراقي الآن،
الخمسة الاميال، طريقها مفروشة بالاسفلت
و مزدا

41

وزوارنة الى الجانبين سقف متواصل من شجر الدفلى. ان
هذه الطريق في الربيع، يوم يكون الدفلى الزاهر في مجده،
لاجمل ما يبتغيه المرء من نزهة في ضواحي بغداد
وان شئت اطالة السرور فالعربة خير من السيارة.

وقبل ان اختم هذا الفصل ينبغي ان اقول كلمة في
الشرطي. اني محب للشرطي
المثال الحي الناطق المنظم للتحديد المفيد. للشرطي البغدادي،
بغداد، معجب به، لا لانه صورة مصغرة للشرطي اللندني،
بل لانه، وان كان دون الانكليزي في قامته، فهو صنوه
في التيقظ والنشاط، ومطابقة الحق، وفي اللطف
والمعروف، كما هو في ملابسه الانيقة وفي حركاته
ووقفاته. العرف العجيب الى ما سمعته مرة يرفع صوته فيها
كان من [illegible] المخالفة او الاقتتال. ما به الصوت البغدادي
الجمهوري، بل الصوت العربي المرتفع، وان في الشرطة كثيرين من الذين هم اليوم من ارباب النظام
الانشراح الطيبة ومن القشاعرة، لله ما تفعله الشعائر
التدريب [illegible]. ما رأيت شرطيا في ثوب يفتقر
الى التنظيف، او في لحية تحتاج الى الموسى. وما سمعت
شرطيا يشتم المخالف او يسبه ويتحكم. وقد [illegible]
قال لي العارفون ان شرطي بغداد نزيه عفيف، لا
تمسه الرشوة، ولا تثنيه عن واجبه المغريات
والتوسطات. اهنئ اولئك
الى اهنئ بغداد بشرطتها،
الذين جاءوا من وراء البحار معلمين، فاشاروا
الى

لم يألفوا النظام، اي من الانسجام

في بغداد مشاهد — الزحام والسحق.

الى مهنتهم الشريفة، دون ان يتدخلوا في السياسة،
فعلموا، ودرسوا، ونظموا، فحببوا مهنة الشرطي
حتى الى ابناء العشائر. قد زرت
اما المثال الآخر فهاكم في سجن بغداد
السجن مرددًا، وخرجت منه حائرًا في ما عراني من
دهشة يتخللها التأمل، واعجاب يبطنه الريب. فهل
من الحكمة ان تحسن السجون فتغدو كالفنادق،
بل احسن منها في النظافة، وفي قسمتها من النور والهواء؟
وبكلمة اخرى
هل تقل في مثل هذا التحسين الجرائم، ام تزيد؟
هل يصلح المجرم حاله اذا أُحسن اليه في سجنه، فيخرج
منه نادمًا على ما كان من ذنبه، عازمًا ان يلزم بقية حياته
الصراط المستقيم؟
سألت هذا السؤال احد مديري السجون فقال ان
التحسين واجب، لان القصاص المقرون بالمعروف يصلح ثلث
عدد المسجونين او نصفهم. اما الباقي منهم، وهم
المدمنون الاجرام او المطبوعون عليه — يخرجون من السجن اليوم
ويعودون غدًا — فهؤلاء لا يصلحهم قصاص مهما كان من
المعروف او من القسوة في تنفيذه. فالاعدام خير
لهم — خير لهم وللامة.
سألت مدير سجون بغداد رأيه في المسألة
فقال ان المطبوعين على الاجرام قليلون، وان العدد
الاكبر من المجرمين يصلحهم القصاص المقرون بالحسنى.
اذن يجب ان تحسن بيئة السجين — يجب ان نجعلها
حقيقة ومعنى فيخرج منها السجين سليمًا
في

في محبته وفي اخلاقه . وحسام الدين بك وحبيب المدير الحازم
يحسن وضع الشيء في موضعه ، وقلما يُفرط في القسوة
او في اللين .
قال احد الحضور معقباً على كلام المدير ان للدين
اثراً يذكر في التوبة ، وان المجرمين من سواد الناس
الشديدي التدين . لا ريب في الشطر الاول من هذه
الكلمة ، وقد يصح الشطر الثاني . اما هناك ما هو جدير كذلك
بالاعتبار وهو ان عقيدة من العقائد الدينية تحفز الى
الاجرام او تشجع عليه ، كما سنرى ان في ما بعد .

استقبلنا المدير في مكتبه الى جانب السجن الذي
قد ينقل في المستقبل الى خارج المدينة . فهو اليوم قبالة دار
الكتب العامة ، في ما كان احسنه قريباً من بوابة المعظم الى
السور ، وسيصبح غداً في قلب المدينة المسرعة في
نموها شمالاً وجنوباً . — ولا عجب اذا ما انتحر —
وكان اول ما قاله المدير بعد السلام ، هو صنع
السجادة الى المساعدة ،
ان كل اثاث المكتب من صنع السجناء في السجن . فسار ركبنا في الافتتاح وانا والرفيقان
الكريمان ، الاثنان المحترمان فخر الدين آل جميل وعلي الامام لنوصل الى
ومشينا بعد ذلك جميعاً ، يتقدمنا المدير الذي
فكان الدليل .
في ظلال النخيل دائرة التأديب ، وفيها من الاولاد الذين
تتراوح سنهم بين الاحدى عشرة والثامن عشرة سنة ، نحو
خمسين ، منهم عشرة جرمهم القتل :

مسلسل

سُئل احدهم عن ذنبه فاجاب فوراً: قتلت ابنه
جارنا في عركة. وآخر قتل دفاعاً عن عرضه اخته.
والثالث قتل بدون تعمد – بقضاءٍ وقدر. اما
اكثر الذنوب فهي التي تتعلق بالسرقات، وبعدها تنحصر في
العركات" من الخلل في الامن العام. وهؤلاء الاولاد
معلم يعلمهم العلوم الاولية، والرياضة البدنية، فيضحي
اشدهم بعد القصاص احسن صحةً واكثر خلقاً، وانبه
عقلاً مما كانوا قبله.
ثم زرنا المستشفى، قسم الرجال منه، وهو قسم النساء
بادارة الدكتور شريف عسيران، ذلك الرائد للصحة والعافية في
الكاظمين، ودنيك العامل في سبيل الصحة العامة والنظافة
عشر سنوات عملاً متواصلاً يمتاز بالجد والكفاءة
والنزاهة والاخلاص ولكن مستشفى السجن ان يكون
مديره الدكتور شريف ليكون في الاول مثال النظافة ومثل
قيد النظام القائم، وخير المعالجة للحكمة على
ولكني استنكرت في بشرة المرضى الكُلف ... ظلمات
الماكرين الاشقياء
القاتمة اللون. كفى هؤلاء وخليق بمديرية السجون ان تعمل
والمرض والشقاوة. فترتاح الينا عيون المرضى
السجنة اوزاهية الالوان، شيء من الانتعاش. ونصل
الكُلف بيضاء الارتياح الى نفوسهم. والشقي المطبوع على الشقاء
ويبرى من الاجرام او المدمن الاجرام
ان فيهم المجرم القصاص بعد عودته الى الصحة والعافية.
فالقسوة في القصاص تعود
واما

أما السجناء في دور الصنائع فليس في حالهم ما يبعث
على الشكوى، الا اذا كان الحديد - سلاسل معدة لتقييد - في
ارجلهم. وها هنا مجال للحسنى. فان السجناء
في المصانع اكثرهم من اصحاب الذنوب الصغيرة، وهم منتهون في
زورة السجن الاولى. فهم اذن يستحقون الرحمة.
ولا اظن ان القيد الخفيف او عدم القيد يغريهم بالفرار،
او يحرم مخزن السجن شيئاً من الانتاج او من جودة
العمل. وفي وجوه اكثرهم
رأينا هؤلاء السجناء في مصنع السجاد، ينسجون
ملامح القناعة والوداعة، وفي ارجلهم اثقال الحديد
الواناً من السجاد الايراني ك التبريزي والشيرازي والكاشاني،
بمهارة معلم عراقي تعلم صناعة النسج في ايران،
ويجيدون عملهم اجادة تدعو للاعجاب. ورأيناهم في دار الانوال التي تدار بالكهرباء ينسجون
اقمشة القطنية والحريرية، فيأتون باشكال منها للرجال
وللنساء حسنة الديباجة كثيرة الانواع يبيعها
مخزن السجن للناس باسعار بخسة. وهي تصنع في السنة ما
والاحذية والاجربة.
اما صنائع الاحذية والجبس والبسط والحدادة والحصر وغيرها
يكفي حاجة للنجارة والحدادة الاستكشاف، فاتركه.
وهناك صنائع في جولة الاستكشاف السجن
اذا كانت نسخة اخفه
شبك الكبير الحافل بانواع كل
في المخزن

كل هذا احسن محمود. سيدانه عادي مألوف اذا
قيس بمثله في سجون امريكا الحديثة. سألت في سجن بغداد
ما يميزه عن سجون العالم المتمدن بشيء؟ اجيب: نعم
فقد لا تجد في غيره من الشرق وفي الغرب، ما نجده فيه من
النور، والرحبات، والهواء الطلق. اجل ان منه هذه البركات
في سجن بغداد ما يكفي للتوزيع على عشرة سجون في غير مكان
وانك لتجد الرحبات للنور والهواء النقي حتى في السجن
الداخلي المعد للمجرمين المحكوم عليهم بالسجن طول الحياة
ليس من العجب اذن ان يكون للمجرمين ها هنا غير الوجوه
التي تسمها الجرائم بميسم التنكد والتأبد. ليس من
العجب ان يكون اكثرهم على جانب يذكر من البشر
والوداعة. لتحصرن الدفاع عن العرض، والثأر، نزاع
ان ذنوبهم التي نجم عنه[illegible] سيل عنه
والسرقات، والعركات. وما احد منهم اذا
في ارض، او ماء، او [illegible] بجميع الكلام، فكان الجواب: كل
ذنبه كذا. سألنا عددا من القتلة فكان الجواب: مقدر -
وزاد ثلاثة بقولهم: نعم قتلت
منهم: هو ما قدره الله، وهو ان لفاظ العقائد
هذا ما لمحت اليه في ما تقدم او هي على الامل شريرة
الدنيئة تدفع الى القتل، او تشجع عليه
في عين القاتل وهناك غير المقيد بالقضاء
والقدر

والقدر، فقد جاء في القرآن: «فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.»
هي السنة الموسوية التي جاء ينقضها المسيح:
السن بالسن والعين بالعين؛
فقد قال موسى وقال محمد:
فقال الناصري: «من ضربك على خدك الايمن فحوّل
له الآخر ايضاً.» وما زال صاحب المثل الأعلى
غريباً في قومه: فقلما تجد بين النصارى من يعمل
بسنة الناصري، وقلَّ بين المسلمين من لا
يعمل بآية الكتاب وسنة النبي.

وقفنا عند زمرة من السجناء جالسين في الشمس
امام حجراتهم، وفيهم شاب مسيحي أسلم وأجرم،
او اجرم ثم أسلم. فسألته: هل ارتكبت الجريمة
قبل ان اسلمت او بعد؟ فعلمنا انه أجرم بعد
ان اسلم. ولكنه انكر انه قاتل، فجمجم الكلام،
وانتحل الأعذار. لا اقول ان هذا الرجل هو مثال
~~[illegible]~~ صادق لكل من اذنب من المسجونين؛ انما
حزنت لانه مجرم وفوق ذلك جبان. حزنت
لانه، على اسلامه، لم يكن كالمسلم شجاعاً صريحاً
صادقاً. فخري آل جميل يا طيب خاطري: «ما خسرتموه،
يا امي وما كسبناه، هو من مال ابليس.»
ام اخبرني

وأخبرني زميله المحترم علي الإمام أنه عرف بنفسه، قبل
الاحتلال، حجرة من هذه الحجرات، وما ألفها. فإن المجرم السوم
يلقى من الحسنى والمعروف في السجن ما لم يلقه
في عهد الترك المذنب السياسي.

المجرمات يعاملن بمثل ما يعامل المجرمون. ما زرنا
القسم الذي يختص بالنساء. ولكننا علمنا أن فيه أربعين
سجينة، منهن القاتلة والسارقة والزانية.
والزانية! — ها هنا وقفت. وما كان الناصري
ليجلي مرآة التأمل . . . "من كان منكم بلا خطيئة
فليرمها أولاً بحجر" . . . وها هنا أيضاً بينهم
المثل الأعلى. قال المعري:

"الشر والخير ممتزجان ما افترقا
وكل شهد عليه الصاب مذرور."

ومع ذلك أقول أن أحسن جديد في بغداد انما هو
السجن. وقد قلت لرفيقي النائبين المحترمين:
سجنكم يستبشر به أكثر من برلمانكم.
فضحك المدير، وعبس فخري، وقال علي الإمام: صحيح!
إني في كل حال أهنئ بغداد بسجنها، وأهنئ حسام
الدين جميل بادارته وبسجنائه.

— — —

الفصل الرابع

شارع المستنصر

ارواح المدن - نيويورك ولندن وباريس - روح القاهرة - روح
القدس - روح بيروت - روح دمشق - روح بغداد - السيادات
الثلاث المادية - مركز اعصاب المدينة - المغنية ونجوم الليل -
نور القمر يرخصه مندوبو حاملي الدم - بنات الليل الاوروبيات - الغجري
والفن - دور كانت عامرة بالفضل - دور التجارة - دور الدعارة -
دكاكين الصابئة - الودعة والقناعة والصناعة - الشركات
الاوروبية - المطاعم المشتغلة لضعف العباد - الحمامات -
اطباق الاساطير والتاريخ - الدربونات - مستودعات الخشب -
دار فخمة على عدوة دجلة - الاسد والسلام والسجنه - جامع المحلمة -
المودون وقضاة الشرع - القديم الذي يطل جديدا - القبانات
واشكالها - الحمامات وصفاتها - العمارات ومعناها - العبي وما
وحفراتها - الحراوية والبشت والاكشدة
تحتها - الموكب في شارع الكرى - ~~المطالب~~ الفقيه والساقي
والحمار - الحمالون والحمالات - السافرات والمحجبات
الحاجيات والعاليات الكعب - خلاخل وجربة الحرير -
الجديد في الاعلان - عجائب المخلوقات - بياع البزور الشاعر -
دبة دب اسمي بانوراما - الشرق الوادع القنوع - الشباب
الفرنجية - "اللباس رسمي كامل" - صبيتي في اللباس
الرسمي - احاجي الوصال مثل شهرزاد - سكرة الرمان وكرم
كمنجات وافنان - دعوة للعشاء في المقهى -
الرحلة - قطاع الطريق - السيارة والاراكيل -

الخيبة

الفصل الرابع

الشارع المستشهر

ان للمدينة كما للانسان روحاً حية ناطقة ثابتة،
وبكلمة اخرى ان روح المدينة هي الصفة البارزة الممتازة منه
صفاتها، تلك التي تبدو في اكثر مظاهر الحياة والعمل،
فتسمها بوسمها الخاص. وزيادة في الايضاح أعطيك
الامثلة من بعض ما عرفت من المدن الكبرى: ان
روح نيويورك التبجح، فما أعتقد هو انك تقول: مثل هذه الناطحات
السحاب، كل شيء ضخم على عظم! وروح لندن
الاناقة — كل ما عندي خاص لشخصية اولية، مثلثة موحدة
هي التدبير والترتيب والتنظيم. وروح باريس
الزهو والجذل — ومن مثلي حسناً وبشراً وازدهاراً؟
وروح برلين المهارة وجودة الفولاذ — الالمانية فوق
الجميع! الآن في المانيا مدنية واذعة جميلة هي
نتيجة، وان لها من الفنون ذوقاً وحالات سامية. وليس
بين المدن الاسبانية مثل اشبيلية المركبة روحها
من نقيضين: القداسة والقمار.
اما في هذا الشرق العربي فكل مدينة من المدن الكبيرة
ذات روح تعرف، الا مدينتين، الاولى، وهي القديمة، لا روح لها ترى او تعرف.
[illegible]ري، والثانية، وهي الجديدة، انها مزيج خاثر من الشرق والغرب. فللقاهرة
مثلاً روح تتجلى في الصحافة [illegible]
وفي

وفي ما حول الازهر من احياء، هي روح زغلول والوفد
والحوقلة — البلاد وفدية، والحكومة انكليزية! لاحول ولا قوة
الا بالله، وروح القدس داخل السور، هي الاخاصي
والمبكى والطور — اما اسرائيل وبلي من العرب — تحته
العرب وبنيامين اسرائيل — اما بريطانية الفاطمي،
خيري في الوليين! اما دمشق فروحها روح
المرجة والثلاثة — حركة دائمة، ووطنية هائمة
وتمرد لا يزول ما زالت الجنود السود ترى في المرجة،
وترعى في روح الوطن. واما بيروت فلا روح لها
(على ما فيها من معاهد العلم،) بارزة على الفسق والخنوع وحب المال —
هات الفلوس، وخذ العروس، وعفر وجهك امام
صاحب الكابوس
وما هي روح بغداد؟ تنقسم بغداد اليوم الى قسمين
ظاهرين بالمعنى الذي ذكرت. وهي لا تزال مدينة شرقية
واحدة، يتخلل بعض احيائها، كما بينت في الفصول السالفة،
شيء من اختلاط الشرق والغرب. انما قديمها كثير
الاشكال والالوان، فيصح ان نرمز عليه بآية من آلهة
الهندوس، رجل تبدو وتتوحد في رؤوسه
وايديه المتعددة. فهي الحوقلة
اذن روح بغداد الجوبة من الاعاجيب،
وهي الشغب والتمرد، وهي الورع
والاستسلام والتقوى

والتقوى، وهي التخنث و "التشلبي"(١) وهي في هذا
الزمان النفط! وقد يصير النفط في المستقبل روحها الكيماوية
العظمى، بعضها المركبة في بوتقة هذا الزمان
البراق الخناق. فنتحقق
هات شتات هذه الروح نعرضها للبحث
طبيعتها ومنهجها. الا اننا لا نجزم في ما نؤمل من
ادراك واكتناه، بل نوفق لغير العرض،
فنترك للقارئ التحقيق. انما في كل حال لا
نطمح الى التلكؤ، انما نسوق المحنا الى بعض صفات
المدينة احيانا وصفا من احيائها، وحركات عن الاكبر
الجديد شارع الرشيد، وسيزداد القارئ علما بما
هو عريق في القدم عميق في الجدة.
الى جانب شارع الرشيد، بينه وبين دجلة
شارع هادئ وادع، حديث بالطواف والاستكشاف،
هو شارع المستنصر الذي نشأ عند رأس الجسر
شمالاً في خط مستقيم قويم نحو ميل واحد، وينتهي
فيمتد ذلك الشارع القصير العريض
عند شارع المأمون، فيصل شارع الرشيد
الذي يحيط بقسمته من المدينة
الثاني قلبه للسوق المسقوف شمالاً
لجسر الذي يدعى سوق السراي.
اذا ما وقفت في هذا الشارع القصير العريض ترى
لقنات في ظل البنايات الثلاث ابنية اي
الحكومة

ووراء السراي، امامك السراي، ودوائر الحكومة والتجارة والمال.

الحمرات وبيوت التجارة والشركات والبنوك.

وهناك الى يمينك معهد للفن صغير هو المتحف

العراقي، وفي السوق المسقوف سوق السراي

مرحبة للادب حفراء حفراء هي الدكاكين التي تباع

فيها الكتب والمجلات.

هو دائرة اعصاب المدينة. وابدع لتجد في

جوره فوق ما ذكرت بين الجسرين - رشتاتا من

روح بغداد الدينية والاجتماعية، فان شارع

المستنصر يبدأ بالهادي، وينتهي بالمساجد. وبين

هذه وتلك وحولها طوائف التجارة والدعارة.

اجل ان بين الجسرين محط رحال قافلة الروح

البغدادية - ان بين الجسرين يبيت قلب المدينة...

يجول ليل بسماي

اظل ارعه

وكي ناظره يهل دمع ببسماي

الح بسمه وعينيه يلج ببسماي

اون عليه لبه مي ون عليه (١)

---

(١) ومعنى ذلك: اظل ارعى نجوم الليل في السماء، ولكن ناظري يفطر

دمعًا. الح الهج بذكره (باسمه) وعيب عليه ان يلج باسمي:

فلماذا لا يئن علي؟

وهذه التي ترعى نجوم الليل، تلوح باسم الكئيب،
وتئن بملية، هي احدى مغنيات بغداد الشهيرات
وشهيرة من بنات اسرائيل، تجلس كل ليلة على
عرشها في القهوة التي في الطابق الاعلى، على
زاوية شارع المستنصر بين الرصافة والجسر
وتصيح باعلى صوتها صيحات فطرت وقطعات
اظل ارعى نجوم الليل بسماي!
فتسمعها نجوم الليل في السماء، فتئن منها، وتسمعها
اهل بغداد، فيشتمون صوتها وينادون. فمسكينات
تلك النجوم! الم تنقلها من العلم لتحس بقدر هذا
الغناء المتعب في القديم، بينما كانت
تلك ذلك مرة، وانا واقف على الجسر فسمعت صوتا
اشعة القمر ترقص على الامواج، رقصة طربا؟ اخلا
يتخفى حائرا: وهل ظننا رقصة التهكم منك؟
بوقع الطرب بوحا من الالم؟ وفحتى م
يرقصه الطرب او الكسبه هذا الغناء صياح
انت ماض فيه؟ تعال ارقصه معنا
الى م، ولوح فصاح!
باصاح: اصاح جلاح
على هذه الامواج.
على هذا ان اقول ان ما سمعته من المغنية
هو من القديم ~~الغناء~~ القبيح من الغناء ولا جديد
المشهورة في الفونوغراف من
اليوم في بغداد غيرنا بجي

٩

سورية محرومة مصر، أذناب الجالسة على عرشها؟

بين الحضارة والبربرية

ترى نجوم ليل وتلون شتّان

وتعال ندخل هذا النزل الانكليزي الآن، ونجلس في السناية

المشرف على دجلة، تحت شجرة النبك الكبيرة

هذه المائدة قريبة من أنوار الكهرباء

المعلقة فيها وهذه من جوقة الطبالين والزمارين.

الساحة المسحورة، كثيراً

فلنجلس ها هنا نستمع قليلاً ... المعجبين بهذه

ونتسل عن أبناء الليل هؤلاء، أو بالقيقيين

الشعراء الفرنسية أولئك الشعراء الفرنسية، طيات عجيبات.

الصفيرتين اللتين طول البطن والساق

تحملق لها العيون، وتتضاعف الشحول

القبعات عن بال ... ان هؤلاء ... أنا المعجون من كان

ويل الفتة بيد ... دون الهيد ... وذا القصة، وذا القفال،

البغدادي ذا الصدارة، والعابقناب بالقلف.

فيهم الانكليزي ... أحببات والهما ثمانية الانكليزي

وصحبهم الزنبقات وبينها شمس ... في النهار ...

والجيوب ... والطليانى، وهم الوسكى والصودا

والفرنسي والالماني ... وفي الليل من أبناء ... سروراً بعيد

وأصحاب الاشغال ... الناشدين

روستبت والفرموث

ليهم في بلاد الهجرة ذكرى بلادهم هذا ... هنا

وما هو الشيء الذي يرجون به

الذي

الذي تعرضه لنا الراقصات العاريات، في طيات واهتزازات
تحت الشبكات. واهالهن، فقد كانت الليلة من ليالي كانون،
وكان الريح ينفخ في نوافذ ذلك العري، فتزيد
المستكنة في التهزيز لتبعث الحرارة في جسمها،
ولما ترى البرد، على تلك الرجرجات واللزلزات،
تقرص ذلك الناعم منهن، فيفاح نور الكهرباء
القشعريرة فيه الضد الذي
قلت وما هذا الرواية بشيء ضد
استحسانا هناك. ولكن الاوروبي الهاجر
يصفقون له بنظرة صيح احياء الذكرى، وهو لا يستوقع
المحروم يتعزى ان تكون من ربات الفن والشهرة
محروقة حنقه نعيمها لنعم عبقريتها ولا
هنا هي هاجرة فتجيء لبغداد من ابناء البلاد
في بلادها، من موطنها. اما هي
هي تنتظر الاعجاب العبادة. كيف لا و
هو لها فلا ترضى بغير القائم بالرجرجة
ربة الفن القديم - الفريد -
والتجريد تلك الحمامات اللواتي شهرزن
مسكينات تلك الوالهات
مسكينات والنازلات
ويترجرجن تحت الشبكات
ان الفن كل الفن في هذه الرجرجات
هذا لعمري ما احسبه النقد ادون فنا حديثا،
وما هو غير الفن الرجرج بل هو مثل ذلك
القبيح

القبيح من الغناء القديم – واقبح منه
على الاذن في شارع المستنصر بالقرب من الجسر
غير هذا العربي الفصاح" وذلك الصوت الصيّاح. ان
هناك بقعة نزل الكلبزة الايسم، او الكلبزة النزعة الى
السكينة والخفاء، تنعم في الليل لاصحاب الذوق
الرفيع والستر المنيع، فتتجرد فيها الصيّاحة من صياحها
والرجاجة من رجرجها فتجري الامور على هذا
تطمئن له القيادة العامة والخاصة في عالم اللذات.
سقيا لزمن كانت الدور في هذا الشارع
من اجمل ما ببغداد واشرفها حسبا ونسبا. اما بعد
الحرب العظمى فتحول بعضها الى نزل، وبعضها الى مخازن
ومكاتب للتجارة والعمال. بيد انه لا يزال من هنا وهناك
الاسس يتمثل في اثر ذلك الماضي الشريف. تنبئك
حوش "ذبيب" عامر بالفضل والكرم. تشرف على
البوابة المفتوحة، اذا ما وقفت فيها، القيشاني
الصحن اللألاء بالآجر الابيض والاحمر، تنبئك بما كان
الساكن الحواشي الصافي الجو،
من لطيف العيش الهادئ الرخي على ضفة
دجلة في الزمن الغابر. يسمي الانكليز هذا الشارع شارع
اما بعد الحرب فقد ... ثم غيرت
النهر. وفرشته امانة العاصمة بالاسفلت، وما غيرت كثيرا
... فصار شارع المستنصر،
/ محا

٤٠٧

مما آلت اليه الحال في ظلال هذه المدنية الغربية
الشرقية التي تتقوم فيها؟ لكننا قضينا حينًا الى
جنب
وهناك قرب النزل الكبير ذي الاسم الشهير دكاكين
صغيرة حقيرة لقوم وصفوا بالوداعة، وعرفوا بحب
الصناعة، وامتازوا بالمحافظة على ماضيهم القديم
وصلاحهم الكريم. فهم في دكاكينهم الزرية، وفي كل منها
النار والمنفخ والسندان، مثال القناعة والنزاهة
والنشاط، تراهم ~~على الدوام~~ على الدوام يدأبون، ومن ~~[illegible]~~
الصناعة الواحدة لا يخرجون: ان هؤلاء
الصبة - الصابئة - وصناعتهم الواحدة الفضية،
وبراعتهم فيها، والوداعة في سلوكهم والسذاجة
في تجارتهم - انهم مع ذلك لا يسرف فيهم مظاهر الحياة
في شارع المستنصر، وانهم لمن اجمل ما رأيت من
اعلام بغداد.

وبين دكاكين الصبة لبيوت التجارة والشركات
الانكليزية والاوروبية، وفيها النظام والاجتهاد،
ان فيها المطامع المستغلة لضعف العباد،
المال والسيادة والقوة، وليس فيها شيء من الوداعة
والقناعة. وليس فيها منه اللطف غير المكتسب
من التعهد والاجتهاد، وهو من لوازم النجاح في المعاملات
التجارية. ان المشاريع المالية والاقتصادية

[illegible] /

هي ذي نقيضة المناقضات. ومنها كذلك المخازن

والمستودعات التي كانت "احواشا" (ميوتا) في

الماضي. فانك لترى جميع البغداديين، على

اختلاف ادیانهم واجناسهم، وكلهم واحد في

القناعة والاحتراس، وقل في التقاعد والنعاس.

لا يبالون، جاء ام لم يجيء الزبون! الشارع الجديد، [illegible]

ان شارع المستنصر خلاف فيه وصف احدى نواحيه

الطرف، بالرغم مما اسلفت، العربة يجرها

الخيل، والسيارات، فعلا تجد فيه غير، بما انه على

النهر، ومقاعد السيارات، وان فيه

الحمامات للرجال والنساء.

وقفت امام باب مفتوح مهجور، فغرني حب

الاستكشاف، فنزلت الدرج فسمعت قهقهة

انثوية، تحت ادراجي، فاذا بولد يعدو

اليّ ويقول: ممنوع، ممنوع! فقلت! ومن

انت. فقال: انا الحارس - والحرم تحت في الحمام.

اما حمامات الرجال فهي كذلك تحت مستوى

الشارع - وقد تكون سراديبها تحت مستوى قعر

دجلة. بيد ان القسم الاعلى منها باد للعيان:

فالباب مفتوح، والستر مكشوف، والقيّم والكداحون

في هذا جيئة وروحة حاملين المناشف والقباقيب.
اطللت على واحد من هذه الحمامات فاذا الغرفة
الاستقبال تحت قبة، مستوى سطحها يعدل مستوى
الشارع - قبة تحت الارض! - وكل ما تحتها
زاهي الالوان، منعش للارواح والابدان...
طابت حمامك يا سوق الزيات. طابت
حمامك يا فتيش القالك.
انه ليصعب على المرء المشغوف بباهر ذلك
الزمان الغابر ان يجول في هذه المدينة دون ان
يستسلم الى طيف اطياف الاساطير او التاريخ
ويستشف شيئاً من الخيال الذي تجلى في
عرائس الانس واطفال الجن. فان في هذا
الشارع الكثير المباغتات ازقة قصيرة هي
"الدربونات" التي تفضي بك الى النهر. وقد استهوتني
احداها: فرش بين "جوانبها" ابوابها عريضة
ضخمة دكناء، لبعضها خوخات، وللجميع
مطارق من حديد تنوعت اشكالها، وحوّرت
صنعتها. ومع ان اكثر هذه الدور اضحت مستودعات
للخشب الذي تجلبه لبغداد من الموصل "دجلة" الهندية
رخاً

فما زال الانس فيها يأنسون، والجن يرقصون. خصوصاً عند
الشاطئ بين الدارتين المشرفتين على النهر، وقفت
هناك اتأمل تلك الرواشن القائمة بعضها فوق بعض
وما كان وما يكون من باطن امرها. هي الحياة في حقائقها
الرائعة - المروعة - وفي احلامها الباهرة - المبهجة. هي
الحياة في الامس، وهي الحياة اليوم وغداً. احوال تحول،
وآمال لا تزول. قلوب تذوب، واشواق تذهب وتأوب.

الاسلامية البناء او بالحرى عربية
ان هذه الاحواش ... الرواشن، ومثل هذا
فقد رأيت في جدة وفي الحديدة مثل هذه الرواشن
تمتاز
الاطراد في هندستها. انما هي في بغداد بما يجاورها حبًا
شغفتني
ويهيم بحبها
لقد شغفتني الدار القائمة على عدوة دجلة
[illegible]
فلا تتقيد بل ... فيستطيع
لونها في آخر الزقاق على النهر
من مضائق وظلمات، وانها على النهر ... او في نور الشمس، دون
من غير الفرار في ضوء القمر او احد من الجيران ان
ان يراهم المارين او الشرطي او احد ... بالهواء وبالنور،
ولانها كثيرة الرواشن فترحب في الاقل ... ساكنة مستترة
ولانها مقفلة الابواب والنوافذ
كانها قصر لبنات الخان، او مركز لارباب الحجبة.
ذات ثلاث طبقات، الثانية منها تبرز
وهي جميلة على طول البناء. وللثالثة
فوق الاولى برواشنها الممتدة
رواشن فوق الرواشن الثاني، كلها من الخشب الهندي
الناس ... جودة ووضعاً. وهناك من الحواجز
النادر ... على الظن ان اهل الدار
الشابيك ما يبعث على الظن ان اهل الدار الاولين

الاولين كانوا جد متشائمين بالحياة، متحذرين منذ
بوادرها، من إغارات بدوها، فهذا الزجاج، وهذه
شعريات الخشب، وهذه قضبان الحديد — حواجز
ثلاثة لا يخترقها غير الجنة.
فليطمئن بال الخاتون، ولتطمئن الحوريات المكنونات
ان هاهنا الأمنة والسلام — والسجنة! وان شئت النزهة
ياسيدتي، كان لك ذلك في الروشن ~~الناظر~~ المعلق فوق
دجلة، تجلسين هناك، وتسرحين النظر في ما تحتك
فترين الاسماك ترقص في المياه الجارية. وان اخذتك تلك
نزعة الجرأة [illegible] الحمام، وتشتهين الفرار من سكنك
في الليلة المقمرة [illegible] يجري الزورق، فان الزورق عند الدرج والنوتي حاضر
~~المكان~~ هذا في الرصافة
مطيع، وان ~~[illegible]~~ [illegible] في الكرخ عند درج آخر اسفل
جريا قويا كان مرساه في الكرخ ... السفارة البريطانية ...
~~[illegible]~~
في الماء، واعلاه امام بوابة السفارة [illegible] تملأ [illegible]
وهذه سيارة [illegible] خضراء [illegible] في وسط الجادة
فتقف امام البوابة [illegible] وتختفي
الى [illegible] بوجهها ذات العباءة السوداء والقناع
فتنزل الخاتون [illegible] تعود الى مسجرها
قبل ان يقفل السائق الباب،
ويعود السائق الى مكانه وراء الدولاب،
المحبوب. ويعود [illegible] الى شارع المستنصر
فينطلق فتقهقر [illegible]
هو الجادة الواحدة،
هذا الجديد القديم في الجادة وقد تتداعى
هذا الجديد قديما، وسيزول ذلك القديم
/ الدرج

الدرج فتذهب مجاريه في النهر، وتسقط الروائح فتحملها
الأمواج، ويظل النهر يجري جريه الأبدي الى البحر. صورة
من الجديد وأخرى من القديم، تتعانقان ثم تفنيان أمام
دجلة الخالدة.
وإن في شارع المستنصر الى جانب القديم جديدًا حسن غير
ان فيه تجدد صرحًا للشرع الشريف: محاكم وجامع
الغرب. ليس فيه ما يستوقف الناظر غير المأذنة الخضراء
المكحلة، وليس فيه ما يستغرب جمال الأشياء
الصفراء البيضاء، بل فيه ما يستنكر في حكاياته. فيه صحنه
وجمال المأذنة، وما يستنكر في حكاياته. ومرحاض
حال الخارج، ومطهرة للصلاة، صور شتى لجديد!
أ ٥ وقف واقف في الباب، أعجب بجديد قديم
ينبئ بالخبر الحديث
ميدان الأرض قبالة الجامع يسجون نورًا وحبورًا.
أحد الكونين إذا الله
في وقف أحدى الكونين. فقد كانت المكحلة
على ما فيه إقامة الحق وإزهاق الباطل.
القديمة في هذا المكان، فهدمت لتقام، بين ما تبقى
شرعية في هذا المكان، المكحلة الجديدة.
من بواسق النخيل ووارفات الشبابيك، تحمل التراب منه
الأرض البيضاء، عشرات منها الأحمر. والشبابيك
وهذه الأرض البيضاء بالحجارة من الأحمر.
الكلية الكبرى، وتعود البيع بالحجارة منه الأحمر.
آيات الكبر، وتعود البيع صرح منيف للشرع الحنيف
شارعون بالبناء في دارهم الجديدة
وغدًا المجلس قضاة الشرع خلال
صوت المؤذن ينحو مُجيبًا للإقامة
فيسمعون وهم يتعاونون
النبك والنخيل، فيذكرهم كل يوم بوجوب
الحق

ان ذلك
~~وجد~~ في الاحكام لهذا القدم الذي
الحق وازهاق الباطل .
بل هو مثل نور الشمس جديد كل يوم ، ولا
يبقى جديدا .
خوف عليه من عدو الزمان .
ندنو من اجزائه الع
هالخه في التطواف شمالا
الذي عرضت لك بعض ما فيه ، صورا متحركة ، فلا تستبلدها
وقد فاتني ان اعلمك ان الامانة العامة اطلقت اسم المستنصر عليه ~~مك~~ مكان ،
تذكارا للمدرسة المستنصرية التي كانت في جواره ، ما تبقى
الحجر اليوم . وسنجيء على ذكرها في استعراضنا
من آثار بغداد القديمة في الفصل التالي
يبدو ان جزءا من الماضي هو امامنا في قباقابات الناس
واشكالها والوانها ، فضلا عما يبدو منه في الوجوه وتخفق
في الصدور وفي العقول . ان هذا الماضي مقصر في
يوحنا كما في ... هو على ما نلاحظه صنو الزمان ، بل هو
الاثر الحي القديم الجديد لبغداد ، تشوقه اليك
واللبالي في اشكاله المتموجة تموج دجلة ، تموجا
بطيئا هادئا ، وفي الوانه التي تذكر في مجموعها
بذنب الطاووس .
وللحمامات في بغداد صفة تختلف في اختلاف
المكان . فهي ساكنة في الكرخ ، مسرعة على الجسر
متطلخة في شارع الرشيد ، فلا تستطيع ان تتبعها
وتمييز صفاتها الظاهرة والباطنة ، الا اذا كانت في
غير هذه الحالات الثلاث ، الا اذا كانت متمهلة في
سيرها

سيرها، جامعة في قيافاتها في مكان واحد هو
وانك لتشاهدها في هذه الحال
شارع السراي، قف هناك
شارع الجسر الشمالي عند مدخل شارع السراي، او اجلس في دكان احد
هنيهة، ترى معرضاً من الناس عجيباً، وراقب الموكب المستمر
التجار، بشارع السراي بالطول، وتدرك
في سيره، فتنطبع في ذهنك شتى الصور، وتدرك
اذا استعنت بالتأمل، معناها ومغزاها:
تعال نستعرض قيافات البغداديين، وهي اليوم
في جملتها كما كانت على ما اظن في زمن الرشيد والمأمون
شبيه بالرأس، او عمامة تتألف من عمارة، في شكل عمة، والعقال
او عقال او صدارة. قد نظنه ان العمة عمة، والعقال
عقال في كل حال. وهذا خطأ، فان اشكالها
والوانها لتشبه صفان، وصفان تخفى على
السائح الغربي، فضلاً عن الاوربي. فالعقال الصوف
لتشوق البار من العقل
واول ما هو عقال اهل البصرة والزبير
اوالاسود اللون،
الطية البني
الناعم يلبسه في بغداد غير الشيوخ المشايخ بلبسه
ونندر ان يلبسه في بغداد زرقاء او حمراء، ولا فارق
فوق غطرة (كوفية) حسب التحري
بين اللونين كما في البصرة والزبير،
او الزبيري يمتاز بغطرة الحمراء عن البصراوي
ذي الغطرة الزرقاء. ولهذا العقال في بغداد صفات
اخرى

جزي. فإن كان ذا لفتين سُمّي "بطيتين"
وذا ثلاث او اربع طيات عُرف باللّف. اما
العقال الاسود البسيط فيدعى "مخطالي" نسبة
الى "قحطان". وللعطرة ما للعقال
والعقال بلا عطرة او كوفية: "يشماق"
من المعاني والاشكال. فالعرقاء التي تدعى
لفتين او ثلاث لفات
تلبس في شكل عمة ملفوفة على الرأس في انحراف الى الامام
لطافة ومشدودة
او الى الوراء، وفقاً لمزاج صاحبها. فالذين
يرفعونها فوق الجبين هم "القبضايات" او
الفتيان ~~الذي~~ المشهورون في الفرق بالشقاوة،
القائلون
فهم المشترون "للعركات"، الضاربون من شاء ضحية له
في سبيل "الشرف" لهم ومن اجل
بدل الشجاعة المال،
ثأر، وعنده
وكان لهؤلاء "الفتيان" شهرة محلية تذكر
والمتطفلون على المهنة كثيرون
بشيء من الاعجاب فالمتطفلون ان يلفوا "العطرة" لفتين
وليس في القانون ما يمنعهم عالية.
او ثلاث لفات، ويرفعوها فوق الجبين، ولا تخشى جانب
خلا "الغرندايزك" كل من لف ثلاث لفات
كل من رفعها ~~عالياً~~ فوق الجبين!
وان شئت الزيادة من هذا العلم ردناك
فاعلم ان العطرة كيفما وضعت على الرأس بدل
العقال

العقال تسمى جراوية. اما اذا لفها صاحبها
على الرأس وحول الوجه، اي تلثم بها، فتدعى
اذ ذاك يتشمغ. واكثر منه يلبسونها
ملفوفة لفة واحدة تأدب واتباع هم من
الحجاب الصناعات، مثل العطارات والعقل،
اما العجم فلاشكالها قد تخفى على غير العراقيين،
وانت رأيت اذا كان طالب علم، يلفها رقيقة فوق
معان ... يجعلها
فالمتاب المتدين ... الجبه الشيحي
الطربوش والتاجر او الوجيه اما ... من الحرير المقصب
الطربوش، كذلك فوق الطربوش وهناك الخضراء
~~الحرير المقصب~~ كشيدة، والسوداء
فتسمى اذ ذاك ... وبها
للشريف كما في سورية ومصر
للسيد، والبيضاء للعلماء. واظهر العباءة
تشغل من الرأس الى ما دونه، وبالذهب، وهي بيضاء
او بالفضة او بالذهب، فالعبي السوداء
سوداء مطرزة بالاسود او اللون البني انواع
~~فالوبر مجلوب~~
صيفية وهي من اللون ... ومنها ما يصنع في بغداد والباقي
~~والمذهبة منها ما يصنع في كربلاء والنجف خصوصا~~
~~المقصصة ... مشايخ العشائر، فيلبسها التجار~~
~~من ايرانيات لها ضفة جامعة ...~~
~~والصوف البنية ... على نوعين كوباني والنيني~~
~~والقام والصانع~~
~~اخضها الثاني~~
اما ما تحت العباءة فهو كذلك من الملابس العربية
الشائعة

من خام أو ورق، والباقي تصنع في بلاد ايران
أيضا. فالعباءة الكسوة التي هي من الوبر
يلبسها مشائخ العشائر خصوصا في كربلاء
والنجف. والعباءة الايرانية التي هي من
الصوف النقي اللون، على نوعين الكوبائي والنائيني،
يلبسها التاجر والعالم وغيرهما،

اقا باتخت

(أقلب)

الشائعة، فلا يميز البغدادي عن السوري الذي لا يزال يلبسه

الاصباز من قطنة او حرير ويتمنطق بمنطقة من نوعه

او انه يلبس الدشداشة (جلباب) ويشدها

بحزام من جلد او قماش. اضف الى ما تقدم ذكره

القيافة الفرنجية بالصدارة الفيصلية، وهي قلما

ترى في غير المدن. تلك هي الاوليات في علم القيافة

العراقي، اختطها اذا شئت ان تحسن التمييز

بين ~~[illegible]~~ ابناء التقوى وابناء الشقاوة في

بغداد. واذا ما وقفت في شارع الرشيد شاهد الموكب باجمعه وفيه

من كل طبقات الناس. فالشاب في الاصباز والعباءة

السوداء، والمنقطة، والعقال الاسود، والغطرة الزرقاء،

الحامل في رجله حذاء اسود او اصفر هو من الشبان

الذين لم يحنوا بعد في الحرفة، فما اشتهروا واخبرهم الى

واسترهم. ان قيافتهم ترمز على انحراف فيهم الى

الشقاوة، وقد تحول الايام دون تخفيف رغباتهم الفتوة

فيبقى ذكرهم ماضحاً وضعماً بالخمول. مثل هذا

الرجل في الغطرة الزرقاء والعقال البني والعباءة

والاصباز فهو من الطبقة الوسطى التي لا تنحرف

فحول الذكر غير القطن والصوف. واذا لبس احد رجالها

السرعاية فهو من كعب الطبقة. اما اذا لبسه

الساكو الفرنجية بين الاصباز والعباءة والحذاء

الفرنجي

او حامل الجوخة
اليمني

الفرنجي فهو منه رأى تلك الطبقة منه وجهائها...

اتق الله يا حمار، يا ابا الچراوية. فانك تحشر حمارك

بين عالم معمم وسياسي "چاچدار".

وهذا وراء الثلاثة بغدادي في دشداشة

وساكو عسكرية، وهي من لون القاصر "كاكية"، وهو

من الركبة الى الاخمصين كما جاء الدنيا الدنية:

وهذا المتمنطق بالمنطقة الحمراء، فوق الاعيان الاسبان،

الحامل كرشا تحتها عامرا، الملفوفة عطرته فوق كوفية

صفراء، المزدانة رجلاه ~~شبرواية~~ سيمانية حمراء، هو منه اولئك

البغداديين الهاشميين الذين يلحون بوجه المعتدي،

عليهم: انا بغدادي موخجي - مثل عنبك زين!

وفي الموكب ترى الحمالين في دشداشة وچراوية،

يحملون الاكياس والفناديق والاشجار للفرش، والخشب

والحديد. وهم يزاحمون الافندي اللابس الصدارة، نحن بالقرب

العالم ذا العمة البيضاء، والقصبة والسباكي — من الناس:

من السراي والمحاكم العدلية - ومن في الموكب من النساء.

النساء، ليس فيهن شجرة الدر، او فتنة القلوب.

المسيحية تلبس العباءة كالمسلمة، ولا تلبس

هذه اليهودية او احق بالتقاليد مما حجبت وجهها

حجاب؛ مع ان الوجه منها وجود ابنه من حرير

مسلمة في ثوب افرنجي قصير

وهذه فوق الارض التي تنشرها

وحذاء يرفعها قبقابا، وهذه منهن اقرب شيء

الى مشيتها المتكسرة.

— من عشيرة البو محمد (الفيضاوي) —

ومن تحتها
الى الفتنة. لبنت سمرة في عباءة سوداء تبدو
فوق الجبين غرة من شعرها الذهبي، ووجهها بين
طرفي العباءة كالبدر بين غيمتين سوداوين،
فتقع الباصر فيه، واشتد توّرد الخدين.
ومن النساء من تخرج الى السوق بالمشاية، ومنها
المشايات ما ترفع صاحبتها بمقدار اصابع عن الارض، ومنها
تلك التي لا تظهر منها في الرجل غير رأسها. ومن النساء من يلبسن
المشاء ... ولسيدة ما رأس العباءة
الحذاء الفرنجي، وجوارب الحرير، اهل الملح
الحجاب، ولا ارى من محاسنهن غير الارتباع انيقة
الاستفادة ولا تذل؟) اللهم اذا كانت دقيقة قفاطين
فوق الخلاخل الضخمة
ومنهن من يلبس جوارب الحرير تحت العباءة السوداء
ويخفين ... الاطراف عن الوانها
ان في الساق دوماً ... من الحرير ... قد يكون في
دراعات ذهبية ... البواطن؟
الزاهية. وهل تخدع الظواهر ومنهن ام ... وقد يكون فيها القيود
القلوب شيء من فضة الخلخال الخفي
الفضية! في هذا الموكب المتحرك على الدوام الحمالات
ومن النساء ... وحمالات الحطب واللاتي
والمحمولات - حمالات اللبن. وجوه صفراء فوق
يحملن اطفالهن على اكتافهن. وجوه سيدات الحضر
على صدور عليلة! تلك
سمراء. ارجل نحيلة على رأس امها ما
وجوه الوردية الوجه الناعمة بيدها على رأس ... ما
الصفرة ~~...~~ الرديني تعيد ان الباك
الخافية ذات القد ~~...~~
ذهب من اجل ~~...~~ تشعل ان ما انطفأ في موقد الحياة.
~~...~~ هاهنا

[illegible]

انها هنا ايضاً ما يباغتك في املاك، وينفخ في رماد
موقدك. هناك زمرة من الصبيان في اطمار مرقعة،
وأسمال بغدادية، يحمل احدهم طبلاً، وآخر لوحة،
ويتقدمهم ابو اللقشين، رافع اليد، جاحظ العين،
فيدق حامل الطبل طبله، ويرفع حامل اللوحة لوحته،
ثم يرفع الخطيب ابو اللقشين عقيرته: هبوا
على السينما الملكي، وشاهدوا اعجب الصور واغرب
المخلوقات. ثعلب يقتل اسداً! خروف يأكل ذئباً. عجائب
طفل ذو قرنين، وآخر ذو رأسين.. عجائب
المخلوقات. هذا المساء في السينما الملكي. هبوا
على السينما الملكي! دبه دب دب. دبه
دب دب!
فمن الناس من وقفوا ليسمعوا ويتعجبوا
ومنهم من قالوا: عجيب! وهم ماشون. ومنهم
كان واقفاً عند مدخل
السوق، رجل يبيع شرز طبيخ محلي، وهو يسمع ويهز رأسه.
وراء قريشه، وإذ رأى
هذا الرجل لا يأمن بما قاله الخطيب،
انظر اليه قال:
"كل شيء في الحياة يطلب صيداً
غير ان الاشراك مختلفات."
هل عندك ابن يسمى بابوبوري؟
دبه دب دب! من ينطق بالشعر؟ دبه
من باعة فستق العبيد
دب دب!

دُبْ دُبْ ! اسمعي يا لذني اسمعي يا باربيه . هل عندكما
من باعة السمك او الضفادع من يحسن النطق
بالحكمة شعراً ؟
هو ذا الشرق المهذب الوادع القنوع . ان هذا
البغدادي لاكبر واشرف منه لمن يتطلبون الاشراك للناس،
انه لمن الماضي القديم الجميل، وانه من هذا الجيل،
وهو مع ذلك يرضى بالقليل، ويرى بعينه الثاقبة
المظاهر ويخفي منه الاحاسيس.

—◇—

ليس في القيافات البغدادية التي عرضها لك قيافة
واحدة جامعة تميز البغدادي عمن سواه من اهل العراق، او
العراقي عن سواه من العرب، الا اذا استثنينا الصدارة
والجراوية، ملبوس افاضل من الاهالي الافندية والفتيان.
اما الاكثرية فانهم الاشتات من الناس تعلن صفاتها
وجنسياتها ومذاهبها المختلفة في اشتات من القيافات،
على ان الاوربية العصرية في الملابس الفرنجية تزداد يوماً
فيوماً، وكما انك شاهدت السيارة البراقة في الدربونة
المعتمة، فانك تشاهد في المآدب وفي الحفلات الرسمية
ما يدهشك اول وهلة. واذا كنت من السياح المعروفين في
دوائر العاصمة العالية، الاجتماعية والسياسية، وكنت تظن
ان بغداد مدينة عربية او صحراوية، لباس اهلها قمصان
وعباءة

وعباءة، فلا تعجب ولا تجزع عندما تجيئك رقعة مكتوبة
على الآلة الكاتبة، او مطبوعة بماء الذهب، تتضمن دعوة لمأدبة
او لحفلة، وفيها في الزاوية اليسرى السفلى: اللباس رسمي:
او اذا كانت من البلاط: اللباس رسمي كامل!
اني لا ازال اذكر يوم تشرفت للمرة الاولى بمثل هذه
الدعوة. ولا بأس، ما دمنا في موضوع الثياب، ان اقص قصتي
واشرح محنتي. يوم كنت مقيماً في بيت واحد وصديقي
[illegible] الملك فيصل من بلاد الامام
العزيزين، امين بك كيساني سكرتير مجلس النظار، جاءتني دعوة من البلاط الملكي
حسين بك افنان [illegible] رسمي كامل ان يلبسوا البستهم الرسمية
وفيها: اللباس رسمي كامل. ومعنى ذلك للضباط والموظفين ~~[illegible]~~
ان يزينوا صدورهم بما يحملون من الاوسمة، كذنب الحسون.
العسكرية او المدنية، ثوب افرنجي اسود ذو ذنب، فضلاً عن الكامل ذي الذنب الطويل
ومعناه لمثلي ثوب نصف رسمي
واخر تقاليدي: اين لي من رحلة طويلة في البلاد العربية
وانا قادم من ابهار الشيب، جهاز العرس
ولم اتعود ان احمل، مثل الاكليل، حتى في البادية، الثوب الرسمي ثلاثة -
العيد - فقد كان بيني وبين الجبال، هنالك في
اربعة - خمسة بحور عدا البوادي، ورحلة غربية، وما
نيويورك. تركت كل ما لا يسعد المرء في رحلة غربية
ادركت خطأي الاخير ببغداد، عندما وصلتني رقعة
الدعوة لمأدبة الملك. الثوب الرسمي احرزه بيوم واحد
واين في بغداد الثوب، ان عاصمة العراق لا تزال في التمدن
بساعة واحدة؟ الحديث

الحديث، دون تلك المنزلة التي ينعم باسبابها اولئك
الذين يستأجرون اثوابهم الرسمية لليلة من ليالي الدهر، او
انهم يرهنون ساعاتهم عند صاحب الدكان السعيد، ابي
الثلاث طابات المذهبة(1) ليبتاعوا ثوبا مخيطا
جاهزا من صاحب المخزن الآخر ابن عم ابي الطابات
المذكورة(1):
لم اسكن في بغداد الرشيد، بغداد السحر والجنة، حاضرة
ذلك بين يديك، وتجيئني في
خاتم اللبيك، فيقول عبده: بين يديك
الحال بثوب يسعى كامل، بيده هيئته بقماشه وخياطته
حتى خياط الملك يلبسني، ومولاي كنت اسكن في محلة
الشيخ، بجوار مولانا عبد القادر الجيلاني، قدس الله سره،
وانا من الطامعين باليسير من تربته المأثورة في روضتي الحب
بعد ذلك من زهرات النفوس، فما حقق رجائي بزيارة
تستكشف حاجتي، فيقضيها بما كان يقضي حاجات القربين
منه في قديم الزمان. ما جاءني ليقول: ما همك يا حاج؟
فاجيب: ثوب ارتجي ركبي يا مولانا، فيهديني اليه، او يقول!
هاكه، فاراه بين يدي اذ ينطق بالكلمة المسعدة.
لا وربي، ما كان شيء من هذا. فبقي بمحبة بالنسب
بيد ان املي ما خاب: فان احد من سلالة الحسين
الى جوار عبد القادر لانه مثله سيد ابن سيد من ذلك
ابن بنت الرسول عليه السلام، والآخر هو من لبنان، وغيرهم منه
البلد الذي انجبت حروف الشميل واليازجي لم ينفعني في
العلماء، ولكن علم الكسائي اماني
تلك المحنة، ولا نفعتني ظاهرا سلالة السيد
حسين
٢١ رجب

(١) الثلاث طابات المذهبة، فوق باب الدكان
بلندن او نيويورك، هي شعار من يتعاطون الرهن
والدلل هناك، واكثرهم من اليهود، لما ان منهم
اكثر من يتاجرون بالثياب الجاهزة البخسة
~~[illegible] من اليهود~~
الاثمان. [illegible]

حسين افتان.
انما الامل، كما قلت، ما خاب. واليك البيان. فقد
كنا نحن الثلاثة الغريبان، على ما كان من اضطراب الاحوال،
ساطع بسويعة واحدة في النهار، بل في الليل، نجتمع
هراء النعيم. وفي تلك الساعة كان ينقسم الكون الى
قسمين – العالم، وانا وخليلي. فيظل العالم خارجاً
بعيداً، ونمسي نحن الثلاثة في حضرة حلين، بل في واحة
السحر الحلال. ولم يكن لمولانا عبد القادر يد في هذا
السحر او كلمة لا، وذلك. انما كان كله من بعقوبة،
منه فضل رواتها. ولا انالي بما ينقطع او يوصل منها،
الى ان انتقل من قصة الى قصة، فطرنا في بعقوبة،
مثل شهرزاد. كنا في الشبوب الرسمي، ان فيك ترجع على الدوام صدى
ايه بعقوبة، جنة العراق، وهم يتغنون بجمال ب انبيك،
الشعراء والاطيار، وهو كالبلور والياقوت، بجرك،
رعاريد – يعشك الشمس، ببرتقالك الذهبي،
وطيب ثمارك – من قبلات الماس الاصفر والارجوان،
وهو كالعسل الوان الزمرد، هي التي استعارها الشعراء
بخوخك الذي يحمل بساتينك هي ذات الفم المدور المهيأ
ولكن اجدرة الحسان. هي التي تخبئ في صدرها كنوزاً من
ليزيدوا جمال ما في صدور الحسان. وخالة ورد الخدود. هي
دائماً للقبلات. هي ام النهود، الرمان، حتى
دلوله الحب ويا قوتة. حول طبق من
الثلاثة وقد كنا نجلس نحن الثلاثة الليل تغبطنا عليها
الى العشرين، في ساعة من
الملائكة

قلب العراق

١١٥ - ١٦١

الملائكة والجن، ولا نفهاهه للنوم حتى نكون قد جردنا الاخيرة
من ثوبها المصبوغ بذوب الياقوت الاحمر، وظفرنا بكنوزها
كلها. وكذلك كل ليلة، قبل ان نصعد الى الاسرّة
على السطح تحت ستر النجوم، كنا نجلس الى حلقية
قلبنا، ونتبارى بحبة الثلاثة في حبها. وكان الكسباني
السابق في اكثر الاحيان، يقضم الخمسة ويتلوها، الواحدة
تلو الاخرى، قبل ان يكون قد فرغ افنان من الرابعة.
وكنت انا الاخير دائماً، الاخير باللذة الهادئة المتأملة.
فاذا كنت ايها القارئ الفهيم محباً للرمانة مثلنا، فاني
انصح لك ان تجلس اليها في ساعة المساء الاخيرة، قبل
ان تولي وجهك شطر السرير، فتحلم بعد ذلك لو كنت
وتتوق احلامك المحببة التي كنت فيها الا
عفواً يا قارئي. فالقصد في حلمي احلام الرمان.
لاخبرك كيف قدر الله ان يكشفها ~~بها~~ في صباح اليوم المعد للعادية.
فقد جاءني الكسباني اخي ويقول: أُمرت بان اقدمه لك.
وهو يحمل ثوبه الرسمي
وجاءني السيد افنان بثوبه، وهو طالبه ان ضمه زاره
ثم جاءني يكشف محنتي، هو نسيبه الجليل
ليلاً، وامره بالله الذكر مولانا عبد القادر.
الذكر مولانا عبد القادر فقد كان الحسم فيه قرباً كاد اكثرهما
اما ثوب افنان فقد كان ... واما ثوب الكسباني
فقد كان واسعاً علي، فضفاضاً لاجري.
بلزم

١١٦

فقد احسست اني فيه مرزوم رزما محكما، فيخيل للناظرين
انه صنع لي في عهد الشباب. فاخترت من الفضفاضتين
اصغرهما، واحبهما ذكرا الي. وبما ان خليلي
كان من المدعوين مثلي فقد لقيناه هذا صباح ذاك
اليوم على ان صاحب الثوب الذي اختاره يحرم نفسه
اطايب المأدبة وحضورها. فطأطأ الكسباني
رأسه للقدر، وأُصيب، وفقا للعهد،
بصداع شديد يحرمه شرف الحضور، فأبلغ خبره
بالهاتف، فقبل رئيس التشريفات العذر،
وغفر الذنبان، ذنبه وذنبي انا — بعد ان
~~[illegible]~~ رآني في ثوبي!؟ وانني اذا فارقت بغداد
لن احلها اذن، ولا اتشوق الى استقبال حفل
تتويجي الرسمي الكامل. فقد لا يكونان، اذا وقفت
الكسباني واخفاني، ويحلمون بعد ذلك الاحلام
ممن يسكرون بالرمان، [illegible] من الاولياء
التي يتجلى فيها ادلوا الكرامات والحديث ذو شجون

اما وقد ذكرت الآن بعقوبة — والحديث ذو شجون
فاني خاتم هذا الفصل بما لا يخرج عن موضوع
الجبال — فاني خاتم هذا الفصل بما لا يخرج عن الاستطراد
المستشار ربيع فبحثت المدينة، وان كان خارج المدينة
التحوال، وستسمعك هناك،
نذهب الآن الى بعقوبة.

رحي

فخر الدين بن آل الجميل ما نسيك
في دار صديقنا الأكبر
تلك التي ترعى على
ما استمعناه من صباح
الدوام نجوم الليل" و"تونس" فقد دعانا
هو الجميل المحب للجمال، مبشّي
للعشاء، وعندنا "وأبشروا بالجنة
من محاسن الغند صوتاً ومشكلاً.
التي كنتم توعدون ..."

خرجنا من بغداد، والشمس وراءنا تذوب عند الغروب،
والأفق أمامنا خط من ذوب قلبها أصفر رقيق، يفصل بين
سماء جامدة في زرقتها، وأرض هامدة غبراء. وهذا
السهل السوي الفسيح الفارغ هو درب في كل مكان، وهو
للسيارة ميدان. لا زرع فيه ولا كلاء، غير بقاع هنا
وهناك أخضرها مائل الى الاصفرار، وأصفرها كالغبار.
وهذا قطيع من الغنم يعلل النفس بها، وهناك آخر يجتز
ما التصق منها بين الحصى والتراب.
لا شيء جميل حتى في القوافل التي مررنا بها، وهي سائرة
الى بلاد فارس أو قادمة منها. ولا رفيق لنا في الطريق غير
الغبار والشمس. أرض بلقع يملها الحادي، ويقنط منها
حتى القطا، ولا يتحمل مشقتها شيئاً غير الحاج العجمي
الذي يجيء زائراً النجف، بل هو يجتازها فرحاً، لأنها
مدنية لبغداد، ولأن بغداد تدني اليه مشهدي
علي والحسين
وها قد هجرتنا الشمس، ولا رفيق لنا غير الغبار. ولكننا
بعد قليل وصلنا الى خان بني سعد، في منتصف الطريق بين
بغداد وجسر ديالى، فأوقفنا شرطي المخفر هناك، ورحب بنا قائلاً:

/لا

لا سفر بعد الغروب. قانون جديد. فاما ان تباتوا هنا
واما ان ترجعوا." وقد اكد لنا ان الطريق غير آمنة، وان
اللصوص لا يخشون مخفراً فيه شرطيان لا غير. فافهمناه اننا
مجازفون، وان الاخطار لذة الاسفار. ثم اعطيناه اسماءنا —
العفو — نحن السيد حسين بك افنان سكرتير مجلس النظار.
فسلّم ثانياً وقال: "يا جان الله." وقد كان افنان يحمل بندقية
للصيد، والسائق سكيناً ابرزها ليزيد في اطمئناننا.
غادرنا يقفونا اثنان — الغبار والقمر. وكنا نرتاح الى
ثالث هو صوت السيارة. ثم مررنا بجماعة من الناس،
هم مثلنا متخوفون، يتوقعون الغدر واللصوص.
فبادرونا بالسلام بصوت عالٍ، كأنهم يستنجدون بنا، ولوحوا
بالايادي. فرددنا السلام بصوت أعلى، وطمأنهم السائق
قائلاً: "اللصوص قدامكم."
وها قد دنونا من المخفر. هوذا جسر ديالى ومخفره،
وهوذا عدو اللصوص يسلم علينا. ثم جابي رسم المرور يلوّح لنا
بقنديل اخضر. دفعنا الرسم وسمعناه يشكر عطاءنا
ويدعو لنا بالسلامة،
بعد ان ~~[illegible]~~ عبرنا الجسر سرنا في جادة ضيقة، مضيئة
بانوار ضئيلة من الخان، أدت بنا الى السوق، سوق بعقوبة،
المسقوف، الحافل بالقهاوي، وقد اكتظت بالناس. وكان
السائق فرحاً فخوراً ببراعته، وسرعة سيره، كأنه لا يزال
في الفلاة، وكنا نحن بشجاعته معجبين، وبجنونه راضين.
وليس في السوق شرطي يعيده الى رشده، ويذكرنا باننا
في قلب بعقوبة، لا في البادية.

~~[illegible]~~

وما بعقوبة، وما قلب بعقوبة بلا رمانها؟ / [illegible]

بدل كرسي وخوان،
كنت اتوقع ان نصطدم بطبق من الرمان، ولا تخذ منه
عازبين، جاجئنا بعقوبة
زمر يارجل، زمر. ولهذه الاراكيل
المحتلين: هؤلاء التجار اخواننا، اذا زمرنا
حق في السوق مثلنا. فقال السائق:
بابك يجي البوليس."
وما كاد يفصح عن خوفه حتى بدا امامنا الشرطي،
العبور منذ جاءت [illegible] السيد مرفوعة آمره: — ممنوع
السير، ممنوعة السيارات. — وكيف يمكننا ان نزور
لنرجع ادراجنا، الا اذا دخلت السيارة احدى الفنادق؟
كلم السائق الشرطي ملاطفاً مجاملاً، وصلى على النبي،
وصلى الشرطي كذلك على النبي، وما لان. فهمس
السائق اذ ذاك قائلاً: السيد حسين بك افندي ان
شكر [illegible] فحول الشرطي، واشار بيده أن
سيروا بامان الله.
وكان السوق يزيد ضيقاً ويقل نوراً. وكنا
نسمع الناس يستعيذون بالله، ويصلون على رسوله، ويحوقلون.
وكنا نراهم يتقفون واثنين، والاراكيل او الكراسي
بايديهم فيلتصقون بالجدران، او يدخلون الخان او
الدكان، ليسير نحنه بامان. باللطافة وباللعار!
ان جملاً هائجاً في قهوة او ثوراً ثائراً في مطعم لاقل
قطاعة منا في سوق بعقوبة. ولكننا نحن والسوق
من فيه خرجنا من الغمرة سالمين كلنا والحمد لله
وما كان من ذنبنا الا اننا ودعنا العاقبة،
وكدرنا جو سوقهم ساعة السمر. / وكدرنا

وكدنا، ونحن متأخرون في الموعد، نكدر عيش
ضيفنا، الذي كان في انتظار ضاقت دونه فسحة
الصبر والأمل. فبادرنا، بعد السلام، الى المائدة، وهو
يقول: «حقاً عليكم والله، من قطاع الطريق».
وما كانت المائدة، بزينتها والوانها وخمرها، لعقوبية
او بغدادية. مائدة لا شرقية ولا غربية، بل جامعة بين
محاسن القارتين. وكنت انا، في سروري الوارف، اتشوف
الى السرور الاوفر في ظلاله ونضارته، كنت اتخيل
ما سيتبع الوليمة، وانا احسب نفسي، بعد ما ذقت
من نعم المائدة الرسمية، مستكفياً كل ما تجيء به اريحية الصديق
ولكني ما رأيت في الايوان، واني من
الجميل، ما يثير الخيال
بدوا وتواروا هنا وهناك في الدار، والاطيف لقيان
والامل. لا وجه من وجوه الحسان، ولا رقصة وراء
ولا سمعت همسة
من القيان. لا، ولا خشخشة فستان او ازار،
الستار، ولا
انتهى العشاء، وشربنا القهوة، ثم جاءت
الاركيلة، ثم شيء من الشراب. وما لبث ان تثاءب السيد
حسن بك افنان، قدس الله سر اجداده، فقال الاخ فخري،
دمت نجابته: «انكم ولا شك تعبون من السفر».
ثم نهض يتقدمنا الى — «هذه هي غرفتك، يا حسين
وهذه هي غرفتك، يا امين». وكان الله محب

المحتسب

١١

القسم الثاني

القديم من الآثار والاخبار

—

الفصل الاول

فحوى اللبنة

الأجر والحجارة في البناء - لبنة بابل -

تطور الأجر - ملح الارض يُفسد - اتون المؤمن

بالكاظمية - "وهذا التراب منه نرمم [illegible]" - أتون الكافر

ببغداد - "العلم لا يزيد بالارباح" - الزراعة

واللبنة والمجد

~~الفصل الاول~~

~~معرض اللبنات~~

لا يزال ببغداد من الآثار القديمة ما يعود بعضها الى القرن الرابع للهجرة. ستعود بك الف سنة اذن، لتريك ما نجا من صول العناصر، وغوائل الزمان. وانك لتعجب للرسم الطامس، والطلل الدارس، فضلا عن الصرح الذي لا يزال قائما سليما نافعا، اذا ما علمت ان مواد البناء في اواسط العراق سريعة التفكك والدثور. فالباني بالطين والآجر مهما كانت مهارته، ومهما كان فنه طموحه واجادته في الهندسة والزخرف، لا يتمكن من تشييد الصروح التي تضمن لها طول البقاء، كالصلد الضخم من الحجارة. اما اللبن — وهو كجسم العامل باللبن — هو من التراب ولا يلبث أن يعود كجسم الانسان الى التراب. لا خلود في غير الجلمود،

واذكر كذلك ان لبنة بابل التي لا تزال تشهد على مهارة صانعيها وبانيها في عهد نبوخذنصر، والتي لا تزال في حائط المعبد وبشارع النصر في ما اكتشف من ~~[illegible]~~ المدينة الكلدانية القديمة، كما كانت يوم أخرجت من النار منذ الفي سنة ونيف، ان تلك اللبنة أُنسيت من التقاليد الماضوية، والذكريات المنسية في مصانع الآجر بالكاظمية ~~[illegible]~~ وببغداد. فقد تطورت صناعة الآجر في العراق تطورا سلبيا - لا اعني بهذا انها رجعت القهقرى، بل اعني انها سقطت سقوطا

سقوطاً مفجعاً. والبرهان على ذلك فيما نشاهده من انواع الآجر
القديم والحديث، او بالحري في المقارنة بين لبنة بابل ولبنة
ولبنة بغداد اليوم
طاق كسرى، ولبنة بغداد اليوم. ومما يدعو للتفكير والاعتبار ان هذا التطور المعكوس دخل
على شعب البلاد في بعض نواحي الحياة، كما دخل على آجره. فلا
عجب اذا قال العالم الاثري: هبطت اللبنة العراقية وحد
صنعت فيه
الحديث عند اهل الزمان الذي صنعت فيه. كان البابليون قبلاً يهتمون اهتماماً
وهاك بعض الحديث: كانت اللبنة البابلية في منتهى
عظيماً بالزراعة والري، وكانت اللبنة البابلية في منتهى
الجودة والمتانة. ثم عرا الزراعة شيء من الاهمال في
عهد الساسانيين وغدت اللبنة الفارسية دون البابلية
صنعاً واتقاناً. ثم جاء العرب فدخلت الزراعة -
وصناعة الآجر - في دور الانحطاط.
ولا ننكر ان بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعتنون
بالزراعة عناية تذكر ويستحبون من البناء ما كان
فخماً، وما يشعر في طول بقائه فسيح الاصل
ولكن اللبنة التي كانت تصنع في زمانهم هي دون اللبنة
الكسروية فضلاً عن البابلية. هذه اللبنة العراقية العاثرة - هذه اللبنة
مسكينة هذه اللبنة حتى الخلفاء العباسيين
فما كان بامكان
النضاحة المتملكة. فما كان بامكان في بناء الجوامع
اولئك الخلفاء الذين بددوا اموال الدولة في بناء الجوامع، ما كان بامكانهم ان يجبروا
القصور، ولا بعشرها في الحروب، ما كان بامكانهم ان يجبروا
صانع الآجر على ان يستخرج من اللبنة كل ما فيها من

الملح

الملح: اذ انهم جهلوا هذا الامر، وما علموا ان ملح الارض، في صناعة
الآجر على الاقل، هو غير ما تصفه به الامثال. هو يفسد ولا
يصلح. وهذا هو السبب الاول في درس آثار بغداد المشهورة
واضمحلالها، الا القليل منها:
كان البابليون يحسنون، ولا شك، استخراج الملح كله من الاتربة
التي يستعملونها لصنع الآجر. وهذا هو السر في دوامها
سليمة اكثر من الفي سنة. فالملح في اللبنة يجعلها
عرضة لفعل الفاصر، اي نضاحة. وانك لتراها في
ابنية بغداد اليوم تنش بالماء، فتذوب تدريجا ما فيها
من الملح، فتبدو بجانبيها كقطعة من الاسفنج المتحجر. وتستمر هذه الحال حتى تتفتت اللبنة، فتتداعى
الجدار، ويسقط البناء.
ولماذا لا تصنع اليوم اللبنة الشبيهة بلبنة
بابل القديمة؟ سألت هذا السؤال احد اصحاب المصانع
خارج الكاظمية، فقال: "هذا التراب من كرم الله، واللبنة
منه، وهي خير ما يصنع والحمد لله." قلت: "وكم هي
مدة الاستواء؟" فقال: "قدر ما يشاء الله. حينا سبعة
ايام، وحينا عشرة، وخمسة عشر، وفي فصل الامطار
لا تستوي قطعا. سبحان الله!" ثم
كانت النساء العاملات في محفر كبير في جوار
الاتون يمزجن ركام التراب بالماء. فقال لي لما انظر
اليهن وارقب عملهن: "التراب والماء لا غير." ثم
التفت فادار بوجهه الى الاتون وكمل كلامه قائلا:
"والنار!"

" والنار — التراب والماء والنار. وكلها من كرم الله سبحانه وتعالى ."

"فلما اجتمعت، في رحلاتي كلها، بمن هو اكثر لطفاً، وادمث خلقاً، واجمل تقوى وورعاً من هذا الرجل. وهو رجل شيعي من الكاظمية، فلما تجد مثله في الشرق.

هو رجل قديم الايام، قديم اللسان، قديم العقيدة والايمان، هو رجل من القرن العاشر، احد صنّاع الآجر في زمن العباسيين، عاش الف سنة فلطفته الايام، وورعته الليالي. ثم استأنف صناعته في ظل المآذن والقباب الذهبية، في جوار الكاظمين رضي الله عنهما وعنه.

وقد زرت خارج بغداد معملاً للآجر حديث البناء والادوات، صاحبه اسرائيلي من هذا الزمان — عصري عمراني! فهو يشتغل في اتونه زيت النفط، بالضغط البخاري، ويصنع الآجر بالمكنات، ويرسل نموذجات من التراب — فكلمته هذه بما جاء فيها الرضى عن نفسه والفخر بها — الى اوروبة ليفحص فحصاً كيماوياً. ثم قال: "نعم اننا نلجأ الى العلم لننتفع به. ولكن العلم لا يزيد بالارباح في العراق." ثم سألته سؤالي بخصوص اللبنة البابلية، لبنة نبوخذنصر، وكله هي المثل الاعلى في هذه الصناعة، فقال: "يتوقف على التراب والملح. في بعض الاماكن يكثر الملح في التراب، ويقل في غيرها. لذلك نرسل النموذجات منه الى

اظنه ان الملح ينقل في
الى الاختصاصيين باوروبه ....
التراب في جوار بابل والحلة ... لا يا سيدي لا نستطيع ان
نستخرج كل ما في التراب من الملح، لان ذلك يقتضي
نفقات كبيرة. والناس لا يرضون بفقد الآجر الرخيص السعر"
ان المسألة اقتصادية زراعية. فاللبنة لا تتحسن
الا اذا زيد بثمنها، والزيادة بالثمن غير ممكنة الا اذا ازدادت
الثروة في البلاد. لذلك ترى الحكومة العراقية صارفة
همها الى تحسين الزراعة بتحسين عوامل الري. اذ ذاك
نعود الى الزمن البابلي - الى عهد نبوخذنصر الزراعي -
فتشتغل الارض كل ما بالدنيا وكل ما فيها، ونثرى
ونبني البيوت التي لا تحتاج لبنائها ولا تذوب البيوت
التي تدوم اكثر مما دامت قصور الخلفاء العباسيين.
لله اولئك العباسيون! فقد ابتغوا المجد في الدنيا
وفي الآخرة، وخصوصا في الدنيا، وما ادركوا ان [illegible] ما ابتغوه
موكول باللبنة لا بالدينار، وبتقنية الري لا بتقنية الحياة
الحربية، وبالمحراث لا بالسيف. بل هو موكول ببناء
العقول اكثر منه ببناء الدور لاسترقاق العقول
وتسخيرها، او لاستخدامها في سبيل الخليفة ولذاذاته.
لا اقصد في هذه الكلمات القاسية ان اتحامل كالناقمين
على بني العباس، (اصدقائي الشيعيين) فان عندهم ايضا
الكثير من هذا الشيء الذي تستنكره ربة التاريخ.

الفصل الثاني

آثار العباسيين

جولة اثرية — الاطلال خارج سواد الناس — الاسطوانة العجيبة — منارة مسجد المنطقة — الانحناء في المآذن ومعناه — سوق الغزل — المدرسة المستنصرية — الطلل الدارس — خاتمة العهد العباسي، الائمة الخمسة

الفصل الثاني

~~العباسيات~~

ان الانسانية لتنور النور الاجمل في ادوارها الساكنة الهادئة، وانها لتستطيب الثمار في المروج والحقول. اجل، ان اكثر النوابغ واكبر الابطال لمن سواد الناس. مما يحقق الامال بالانسانية، ويبرر الانانية في النهضات القومية، فتتميز بفضل ارباب النبوغ والبطولة عهود التاريخ لفظها عن نفسه، فتظهر الفوارق حتى بين المثرمين والمقيم، فتعرف اذ ذاك باسماء الجاه لا بالنعوت الذهبية والخشبية.

وان في تاريخ العراق العباسي عهدا، وان قصر، يستحق ان يدعى باسم من برز فيه جميع معاصريه. وما هو بالعباسي، من اوطأ لهذه النهضة، ولا بالبرمكي ولا بالبويهي. ما كان من الامراء، ولا من الفقهاء، ولا من العلماء. بل كان عبدا رقا، ذا مطامع صغر عندها مطامع اكبر الناس همة، واشرفهم حسبا ونسبا. هو العبد مرجان، وسأزيدك علما باسمه وسيرته عندما نصل في جولتنا الاثرية الى اثاره.

اول الاثار هو ما بقي من مدينة ابي جعفر المنصور. هناك حجرة في مقبرة بالجانب الغربي هي اليوم للشيعة، او انها الاثر الباقي مما كانت مسجدا في المدينة المدورة، وهي لا تزال تدعى باسمه: اي مسجد المنطقة. ذلك المسجد وفي هذه الحجرة اسطوانة من الرخام الساقي يتبرك

ويتوسل بها العوام من الشيعة المعجزة، إنتها في قديم الزمان وهي ان
علي بن ابي طالب وقف ذات يوم هاهنا يا علي وكان
عطشانا، فتنبع الماء من الاسطوانة، فشرب وحمد الله.
هي اسطورة لا تحفل بالتاريخ، فقد توفي الامام علي بالكوفة قبل
ان تبنى المدينة المدورة بمائة سنة.

اما المأذنة القديمة القائمة اليوم في قلب الجانب
الشرقي من المدينة، فلا اسطورة تشرحها، ولا هي تفصل العجائب.
كانت هذه المأذنة في زمن العباسيين في وسط جامع
كبير، قيل انه بني في عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ = ٧٨٦-٨٠٩م) ولو كانت
وقيل في عهد المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥ = ٩٠٢-٩٠٨م) لتحقق على ما
نقرأ الكتابة المحفورة في اعلاها بالخط الكوفي [illegible] بجامع الخلفاء،
ظن تاريخ هذا الجامع الذي كان يدعى [illegible] وسط البيوت،
والذي لم يبق منه غير هذه المأذنة، القائمة في [illegible] منارة سوق
واسواق يباع فيها الغزل، فسميت لذلك
الغزل.

هي فريدة وحيدة في مكانها، وهي تختلف عن غيرها من المآذن باشكالها
القديمة والحديثة بامرين، الاول هو الكتابة الكوفية التي [illegible] والثاني صوانها
يقرأها احد لعلوها ولغرابة نقشها، تميل قليلا عن الخط العمودي.
غير مستقيمة [illegible] ببرج بيزة المدينة
فهي من هذا القبيل تذكر السائح الاوروبي

الايطالية. ولكن في العراق عندها من المآذن المنحنية اهمها في الموصل
مأذنة الجامع الكبير. كان زاوية انحنائها تزيد عن زاوية
الحدباء

وتدنو على ما ظهر من تلك التي لم يبرح
الانحناء منارة سوق الغزل،
يميزه المشهور. ليست صفتها المختارة في الانحناء نفسه
اذن، بل في الامر الذي من اجله انحنت. قلت انها لا
تفعل العجائب، والقول يحتاج الى تصحيح. فانها تختار عن
سواها من المآذن والابراج في الشرق وفي الغرب، بما هي عليه من
الورع والتقوى. فقد جاء في الآثار ان النبي مشى في
طرقها، فانحنت له اكراما واجلالا، وهي لا تزال منحنية،
وستظل كذلك الى يوم القيامة!

اما الاثر العباسي الثالث فهو ما الفته الطلول الدوارس من منارة سوق
الغزل، الا انه اقدم على ما يقال،
المنبر بالآجر. اذا كانت شيدت في عهد المكتفي. وهو قائم
في القلعة الى جانب وزارة الدفاع. فالظاهر من خرائط
بغداد القديمة ان ظهور الآجر كانت في هذا المكان
الفسيح وان هذا الطلل الذي يدعى دار الضيافة هو من
بقايا تلك القصور. الا انك لا تجد في جدرانه المتهدمة
وسقوفه المعقودة ما ينبئ شيئا من الزينة التامة غير الآجر،
وفيه الدليل على ان هذه الصناعة كانت في العهد العباسي الاول
ارقى منها في ما بعد. ومما يؤيد ما اسلفناه ان الخطاط
صناعة الآجر مقرونة بالخطاط لشعوب البلاد،
قد اشرنا في الفصل السابق الى المدرسة المستنصرية
ومن آثارها في الكتابة التي هي اليوم الجمرك،
وما لا يزال البعد ... سطح هذا
البناء، كتابة على نقبة جدار بارز فوق
تنبئ بان المدرسة شيدت بامر
الخليفة

الخليفة المستنصر في سنة ٦٢٠ للهجرة (١٢٢٣م) للتعليم
المذاهب الاسلامية الاربعة، اي الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي
وما كان يشاهد المستنصر شعوراً، فقد وقف واجماً
مانعاً على ما يظهر عند المذهب الخامس اي الجعفري (١)، على
انه جدير بحسن الذكر والثناء لانه جاء في آخر زمان العباسيين —
هو السادس والثلاثون من الخلفاء، وابنه المستعصم هو الاخير — واعاد
مع ذلك الى الملك شيئاً من مجده الغابر، وبعث في البلاد
روح العلم والادب

/ ١

---

(١) هي ذي اسماء ائمة المذاهب الخمسة: الملقب بابي حنيفة (٨٠-١٥٠
نعمان بن ثابت الامام الاعظم من السلوك ان ذا الشريف.
= ٧٠٠-٧٦٨م) وما خلت حنافته
فقد رفض منصب قاضي القضاة الذي عرضه عليه الخليفة المنصور
لانه كما قال غير اهل للقضاء — لتبغض قضاة هذا الزمان —
وفضل عليه الاستمرار في التعليم الخالد والمشاركة خلال التأليف
على تخطيط وبناء المدينة المدورة.
احمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ه = ٧٨١-٨٥٦م) هو في المنزلة الاولى
امام الوهابيين الموحدين. وقد قضى في عهد المأمون يوم
كانت مذاهب المعتزلة شائعة، ان ينشر عقيدته الاولى في
خلق القرآن، فجلد وسجن. وقد كان مع ذلك، او بالحرى لذلك،
محبوباً ما كثيراً من انصاره والاتباع. فمشى في جنازته (٢) على
قول الناس — والمؤرخين — ثمانون الف من الرجال والعشرون
الف من النساء.

محمد

الخليفة المستنصر في سنة ٦٣٠ للهجرة (١٢٣٢م) للتعليم
المذاهب الإسلامية الأربعة (٢) أي الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي (١)
وما كان شأن المستنصرية هذا، فقد وقف واجماً
مانعاً على ما نظن عند المذهب الخامس أي الجعفري (١) على
انه جدير بحسن الذكر والثناء لانه جاء في آخر زمان العباسيين —
هو السادس والثلاثون من الخلفاء، وابنه المستعصم هو الأخير — وأعاد
مع ذلك الى الملك شيئاً من مجده الغابر، وبعث في البلاد
روح العلم والأدب

/١١

~~الحاشية~~

---

(٢) هي ذي أسماء أئمة المذاهب ~~الأربعة~~ المحققة: الإمام الأعظم المكنى بأبي حنيفة (٨٠-١٥٠هـ
نعمان بن ثابت = ٧٠٠-٧٦٨م) وما خلفت خنافته من السلوك الشاذ الشريف.
فقد صار صاحب قاضي القضاة الذي عرضه عليه الخليفة المنصور
لانه لما قال غير أهل للقضاء — ليتسلط قضاة هذا الزمان —
وفضل عليه الاستمرار في النشر الخالد والمشاركة خلال التأليف
على تخطيط وبناء المدينة المدورة.

هو في المنزلة الأولى
أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ = ٧٨١-٨٥٦م)
امام الوهابيين الموحدين. وقد قضى في عهد المأمون يوم
كانت مذاهب المعتزلة شائعة، أن ينشر عقيدته الأولى في
خلق القرآن، فجلد وسجن، وقد كان مع ذلك أو بالحرى لذلك،
محبوباً مكرماً أشد الاحترام والاتباع، فمشى في جنازته على
حول الناس — والمؤرخين — يقولون ألف من الرجال والعيون
الف من النساء.

محمد

حاشية للصفحة ١٢٩.

(١) أئمة المذاهب الخمسة -

ابو حنيفة - نعمان بن ثابت (٨٠- ١٥٠هـ = ٧٠٠-٧٦٨م)
وما خلت حياته من السلوك الشاذ الشريف. فقد استدعاه
الخليفة المنصور من الكوفة وطلب اليه ان يتولى القضاء، فأبى
فحلف عليه ليفعلن فحلف ابو حنيفة انه لا يفعل
وانه غير اهل للقضاء - ليتعظ قضاة هذا
الزمان - وفضل الاستمرار في تأليفه الخالد
والمشاركة خلال التأليف على تخطيط وبناء
المدينة المدورة.

ابن حنبل - ابو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل (١٦٤-
٢٤٠هـ = ٧٨١-٨٥٦م) هو في المنزلة الاولى امام
الوهابيين الموحدين. وهو في النزاهة وجرأة
الفكر والوجدان صنو ابي حنيفة. فقد رفض
في عهد المأمون ان يتابع الرأي الرسمي في
المعتزلة وان يقول ان القرآن مخلوق، فجلد
وسجن. وقد كان مع ذلك، او بالحرى لذلك،
محبوباً محترماً، كثير الانصار والاتباع. فمشى
في جنازته، على قول الناس - والمؤرخين -
ثمانون الفاً من الرجال واربعون الفاً من النساء.

تابع حاشية الأئمة

الشافعي – ابو عبدالله محمد بن ادريس (١٤٩ – ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ – ٨٢٠ م) الشارقة شمسه اليوم في المغرب. فان اكثر التابعين لمذهبه هم في تونس والجزائر ومراكش ولكنه ولد بغزة وقيل بعسقلان، ونشأ بمكة، وزار بغداد، وتوفي بالقاهرة.

مالك بن أنس (٩٥ – ١٧٩ هـ = ٧١٤ – ٧٩٦ م) هو امام دار الهجرة وقل من فاز فوزه في حياته في الشرق او في الغرب. فقد تبعه واخذ عنه بعض العلماء الذين درس عليهم. ولكنه تبجح فقال: كل رجل كتبت العلم عنه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني. ومن غريب ما يروى عنه انه حمل به ثلاث سنين.

جعفر الصادق – ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب. كان معاصراً لابي حنيفة (٨٠ – ١٤٩ هـ) ونقيضه في المذهب. بل هو عند الشيعة اعلى واعز من ابي حنيفة عند السنة. اما انه لقب بالصادق لصدقه في كلامه فذلك جميل. ولكنه لا ينعكس انعكاساً جميلاً على معاصره الاعظم.

وصل في
افاد ذلك الصرح ليحزن في ما صار اليه .
~~الهاما او ما كرى في~~ دور الحكومة ما هو اقتم وجها، واكثر شكلاً
واهو لاداخلا من دار الجمرك؟ هيا بنا، ولكننا
ونحن نتاع منها الى السوق، نمر بنفق قديم تحت مستوى
الشارع، معقود عقدا محكما بشيء من الزخرف البديع -
الذي كان بديعا - والذي لا يزال ينفلح من تحت الغمام
الكثيف

تابع الى شنبه
محمد بن ادريس (١٤٩-٢٠٤ هـ = ٧٦٧-٨٢٠ م) المعروف
فان اكثر التابعين
بان فقهي الطائفة ... في الغرب
لمذهبه هو في تونس والجزائر ومراكش . وقل منه
مالك بن انس (٩٥-١٧٩ هـ = ٧١٤-٧٩٦ م) درس
فاز فوزه فقد تبعه واخذ عنه بعض العلماء الذين اخذ عنهم العلم
عليهم . والنبي تجح فقال ان اكثر من
قضايا ليحلها ويحلم
جاء وه قبل موته ... ابي حنيفة (٧٠٠-٧٦٦ م) وتقيضه
جعفر الصادق معاصر ابي ... على واخر
[illegible] بل هو عند السنة
ولم يكن دونه شرقا ومنطقيا . [illegible] عقل الصادق
من ابي حنيفة عند السنة [illegible]
[illegible]

الفصل الثالث

الآثار التترية

قصة عجيبة – السلطان أويس – المملوك
مرجان – الغزوة – الاحتلال –
طغيان دجلة – السلطان المرحوم –
المملوك التائب – ميراث مرجان –
الجامع والمدرسة والخان – لبث الآلوسي +

الكشف عن مجده غابره. هذا المكان ارشد سواداً منه
الحمرات هو اليوم فرن للخبز، ومع هذه المخربات في
الاثر الطامس للمدرسة المستنصرية، فانه [illegible] خير
خاتمة للعهد العباسي.
بيد ان من خلفهم من التتر لم يكونوا كلهم اعداء العلم
والادب. فقد تداعى من هذه المدرسة، بعد خمسين سنة
من بنائها، جدار الى جانب دجلة، فامر الملك ابو سعيد
اخر ملوك الدولة الايلخانية ببنائه، كما هو مذكور في الكتابة
التي تقدم ذكرها.

الفصل الثالث
الآثار التترية

ب —

اما وقد وصلنا الى العهد التتري فيجب علينا ان نقف
عند اسمين من كبار الدولة التترية الثانية —
اكراماً واجلالاً — وهما السلطان أويس ومملوكه النابه
الجلائرية — وهما السلطان أويس الصالح المحسن، مرجان بن
الطامح، المخلص النائب، واليك قصته العجيبة:
عبدالله بن عبد الرحمن. أويس بن حسن الجلائري، مؤسس
كان السلطان أويس طامحاً بتوسيع ملكه
الدولة الجلائرية (٧٤٠ هـ = ١٢٤٤ م) وعين
فجرد حملة على خيجوق ملك اذربيجان، وكان مرجان
مملوكه مرجان حاكماً لبغداد في غيبته، [illegible]
قد تخرج في سياسة الدولة، وتدرج في مناصب
البلاط السلطاني، فغدا اسيراً لرغبة جامحة،
بل أمنية

بل الأُفنية مهلكة ، مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمه الأولجايتي ، الرومي الأصل ، طمح الى الملك ، وكان دجلة آخذاً بالطغيان ، فطغى الاثنان معاً . يومئذ وعندما شاهد مرجان المياه تغمر الجانب الشرقي من المدينة ظن نفسه في حرز حريز ، فتوكل على الله ، وتبوّأ عرش أُويس .

وما كان السلطان أُويس موفقاً في حملته على أخيجوق صاحب ازربيجان ، فعاد الى عاصمته التي أصبحت في حوزة مملوكه .

وكان جانب المدينة الشرقي لا يزال تحت مياه النهر ، فبنى اسطولاً من الزوارق وخاض به عباب دجلة الطاغي ليحمل على ذلك الطاغي الآخر مملوكه مرجان . فوصل الى القصر وادركه هناك .

. . وماذا دهاك يا مرجان ؟ . . العفو يا مولاي ، العفو ! . . وكان الاثنان من الصالحين . اعترف المملوك بذنبه وتاب ، وتوسط من اجله بعض كبار الدولة فعفى السلطان عنه .

ومنذ ذاك الحين تاب مرجان الى الله — لست ادري أشتري بأموال الله قبل ملكه القصير ام بعده — وبذل كل ما كان يملك في سبيل البر والاحسان . بل خلّد ذكره في ما بناه لخير الناس في هذه الدنيا وفي الآخرة . من ذلك المدرسة المرجانية التي شُيّدت في سنة ٧٥٨ هـ (١٢٥٧م) وأوقف عليها مائة دكان ، وثلاث عشرة معصرة للزبيب ، ~~[illegible]~~ خانات ، (دكان بجزء الاملاك على ما يظهر بالسهولة التي احرز بها الملك وينفض منها يده كما نفضها من العرش) وثلاث عشرة قطعة من الارض ، وسبع خانات وسبعة بساتين ، اوقفها كلها وقفاً

وقفاً صحيحاً شرعياً، كما جاء في الكتابة المنقوشة بالآجر
قرب البئر في الجهة الجنوبية. وقد ختمت بهذه
الكلمات: من غير شروط او حافي او شارف فيه
خلاف ما شرطت لعن في الدنيا والآخرة.(١) ومع
ذلك اما اكثر تلك العقارات التي لا تزال قائمة، هي
اليوم في ايدي اليهود!

ومن آثار مرجان الجامع الذي بناه للمدرسة، والخان المقابل
للجامع، والاثنان يدعيان باسمه. اما اورونمه فهو الاسم
الذي اطلقه الترك على الخان لظلمته، وقد امسى تحت الدرجة.
ولا يزال عليه مسحة من الفخامة. اما الجامع فان بابه
على الاقل جميل بل هو في هندسته ونقشه منقطع النظير
ببغداد. وقد امسى مثل باب الخان ساعة اذرع
تحت مستوى الشارع.

(١) "وتمت هذه المدرسة في دولة لنور حدقته، ولنور حدقته
المخدوم الاعظم الاعدل، رافع رايات السلطنة على الافلاك،
ساحب ذيل الرحمة على الاعراب والاتراك، محيي مراسم الملة
المصطفوية، مزين شعار الدولة الجنكيزية حاجي شاه اويس
خلد الله ملكه." حتى ذكره. اما مرجان فلا حاجة الى الكتابة
وما خلد لولا هذا
لتخليده، فهو مدفون تحت قبة المسجد، ولا يزال الناس يزورون
قبره ويتبركون به. وان سألت البغدادي اليوم عن الحاجي
اويس، اجابك بسؤال آخر قائلاً: اويس، اويس، اويس؟
من هو اويس، كما يثبت ما بدأنا به قصة مرجان، وهو
ان عظام التاريخ قلما يكونون من الاحراء، او من ذوي المال والجاه في
الناس. ولا يندر النبوغ حتى في المماليك.

الجامع والخان اليوم مفتوحان، الوحيد للصلاة والآخر
للتجارة. اما المدرسة والمكتبة التابعة لها، الحافلة
بالمخطوطات، فقد تولى ادارتها زمنا طويلا بيت الالوسي
الموصوف بالفضل والعلم والتقوى. ثم أُقفلت المدرسة
ونُقلت المكتبة الى دار الكتب العمومية.

لا اظن ان في بيت الآلوسي اليوم من يهمه امر مرجان
ومدرسته القديمة. كان كبير هذا البيت حقوقيا بدعا من
غير اولئك الاجداد الاتقياء في علمهم العلماء في تقواهم
الرافعين ايدي الدعوة والاستجداء للسلف الصالح، الشاربين
من مياه التقاليد الحلو والمالح. لا. ما هو منهم، لا في
كتابه ولا في شرابه. فقد تلقى علومه بباريس، واُفعم
روحه بالثقافة الاوروبية اللاتينية، ثم اضاف الى ذلك من
الانكلوسكسونية اشياء تفضل السابقة حبا بالعلم، وحبا
بغير الماء. كيف لا وهو الى الـ"بار" اللامع ادنى منه
"البار" الى الجامع.

وحمام مرجان، وجامع مرجان، ومدرسة مرجان! ان للدولة
العراقية الحديثة حقا بثمار علمه الفطري، وبخير ادبه ووطنيته
بيد انه لا تتوفق دائما بما يريده لها من الخدمة. فبعد ان
درس القانون الدولي في كلية الحقوق، دخل في السلك السياسي
من باب الوزارة الخارجية، ثم خرج منه غاضبا مغضبا، وهو اليوم
لست ادري اين يكون عندما يقرأ هذا الكتاب. وحمام مرجان،
ومدرسة مرجان، وخان مرجان! هات يا ولد الويسكي والصودا.
لقد جرنا مرجان ووقفياته الى من تولى ادارتها اي آل الالوسي
فخجلنا

الفصل الرابع

المقامات الأعظم والأشرف

—

مقام المعظم – جمال جواره – إباحة

الأعظمي – "لا حد لعلمه ولا نهاية لظلمه" –

محاولة الشيخ – الحضرة القادرية – "الباز

الأشهب" – شطحات وسكرات – القديس

اغناطيوس لويولا القديس فرنسيس الأسيزي –

يسوع ش لون

٦

فحملنا ذلك على ذكر كبير الالوسيين
اليوم، وهو ينبو عن كل قافية شمعة وظهور، فنسأله
العذر، ونعود بالتوفيق حيث كان، ببغداد
او بطهران، معلما للانس او للجان، في دار
الحقوق، او في بار "الاحمر" كان!

الفصل الرابع
المقامان الاعظم والاشرف

قدم، والموضوع القديم لنعود اليه. قد ذكرت ابا حنيفة
والاعتذرت، فلابد منه التكفير
في حاشية ماشية، وما نورعت
في زيارة للمقام الفقير المسمى بالاعظمية، وما المقام على شيء كبير
من جلال القدم. فقد شيده الترك، واحاطوا الحجرة بشبك من
الفضة. انه في ما سوى ذلك جامع كبير كغيره من الجوامع الكبيرة.
فلا يجوز ولا يليق المقارنة بينه وبين ذلك القائم قباله على
الضفة الغربية بالكاظمية. وحسبك ان تذكر المأذنتين
الكبيرتين والصفحة الملحقة كلها بالذهب، فستواري
والقباب.
المقام الحنفي الاعظم، يستغفر لنا فيه الله.
ولكنه يمتاز بما لا تجد له اثرا في الكاظمين ولا
بالكاظمية. ويحق له ان يفاخر جوامع بغداد كلها بما الى
جانبه، ضمن السور، من جمال الطبيعة الهادئ الوادع،
المرحب بالنفوس الوادعة الهادئة، المنشئ فيها انوار الفكر
والتأمل. فسلام على بستان المعظم وازهاره، وعلى ظلال
اشجاره، وعلى سكينة جواره.
ويحق للمعظم أن يفاخر لذلك بامامه الاعظمي، الجامع
سميه نعمان، الحامل للبيان العلم والصولجان، الحامي
حي

في مواعظه الحديث والقديم، والسليم والسقيم، والمتحجر
والعقيم، الضارب في كل واد، وفي كل منبت آس وقتاد،
المزين الترهات بالآيات، الخالط السمن باللبن، واللبن
بالخل، والخل بالنفط، والنفط بالخمر، والخمر بزيت
الخروع! ارب المنابر الشيخ نعمان، صاحب القلم والصولجان،
وانه في حديثه مثله في وعظه، لا حد لعلمه، ولا نهاية
لظلمه، يدقق ولا يشفق، ولا يبالي في ما يلفق ويزوق،
يفيض ولا يغيض، ويداوي المرضى بالقراءة وبالقرابة،
لله در الاعظمي نعمان، إمام المعظم نعمان بن ثابت،
اما وقد زرنا مقام المعظم محمد، فربنا ان نزور
مقاما آخر جديدا، هو في قلب بغداد، بمحلة الشيخ، المعروفة
باسمه. هو مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٩٠-
٥٦١ هـ = ١٠٩٨-١١٦٦م) الذي جاء من جيلان ليشرف بغداد،
ويشعل انواره في البلاد
كان الشيخ ذا فلتات في التصوف غريبة، وشطحات
عجيبة، وتأويلات واجتهادات في تفسير الآيات، وكشف
الغوامض المبهمات. وكان في طلعته مثله في نزعته،
عيناه هما اتونان مشتعلان، وحاجباه هما دغلان
مدلهمان، في رأس كبير مستدير، فوق انف ضخم، فوق
لحية مرسلة طويلة. أضف الى ذلك اللسان الفصيح،
والذهن النقاد الكشاف، والصوت المزمزم كالرعد
تشبه باجمعه وكامل مجده
قيل انه نقل الى خارج المدينة لما ضاق بالسامعين المكان الذي كان
يعظ

ليغط فيه، وهناك في العراء كان يجتمع من الوف المؤمنين
ستين وسبعين، ليسمعوا كلماته الذهبية
وآياته السماوية.
أسمي الشيخ بالباز الاشهب (١)، وهو على ما يظهر لي،
رمز "السوبرمان" في الشرق، وقد كان في بيئته فقد
في بيئته، كثير ارتياح، موفقاً ظافراً على الدوام،
فنعمت الدنيا بتسعة واربعين ولداً من صلبه،
والفخر، بتسعة واربعين من السالكين لطريقته
زبير

(١) قال الشنطي في كتابه "جامع الانوار في مناقب الاخيار" في
ترجمة الشيخ عبد القادر ما نصه: "وقيل له الباز الاشهب لما كان
يمشي ويطير على رؤوس الاشهاد، كما رواه الشيخ ابو القاسم عمر بن
مسعود البزاز، والشيخ ابو حفص بن يحيى الهشاني." هما
الشاهدان. وهناك شاهد آخر وشاهد من اهل الجنة، على ما يظهر،
اسمه الشيخ عقيل المنبجي. فلما قيل له: "قد اشتهر ببغداد
امر شاب اعجمي شريف اسمه عبد القادر"، قال: "امره في
السماء اشهر منه في الارض. ذلك الفتى العلي المدعو في
الملكوت الباز الاشهب."
وقد اضاف الى هذه الحاشية صديقي الاديب الشيخ كاظم الدجيلي
ما يلي: "والباز الاشهب، كما جاء في التاج، لقب ابي
العباس بن سريج والسيد منصور الغراقي خال سيدي
احمد الرفاعي، ولم يذكر الشيخ عبد القادر بينهما.
فتنبه."

بيد انه كان في سلوكه مثل جميع المتصوفين، جواب آفاق
له حالات، وجذبات
وضيئة، حيناً متألقة، وحيناً مظلمة.
وابتهاجات، وله في يقينه الآيات: ارفع نفسك
الى ما فوق الشقاق في نفسك يحبك الاسد
طائعاً، ويأكل الذئب من يدك. اقتل نفسك امام
نفسك، من الوعي الى الحال، [illegible] تقع النجوم كالدرر
عند قدميك. لتتضع نفسك امام العرش في نفسك،
تشاهد في لباب العزة الالهية. سلوكه القادري
وفقاً لهذه الشطحات يسلك الشيخ
وكان حملاً للوديعين، واسداً للطالبين، وكوكباً للسكارى
في حالة الشوق والحنان، وذاتاً مقدسة لبقية المؤمنين.
وما كان حتى الخليفة ليأمره بالمثول بين يديه، بل كان اذا شاء
الاجتماع به يجيء بنفسه اليه، بعد ان يستأذن بذلك
ولكنه كان محباً للفقراء، متواضعاً لهم، فيأكلهم ويقيم
بينهم. انه في هذا لمثل القديس فرنسيس الأسيزي
وانه في ما سوى ذلك لمثل ولي الجزويت القديس اغناطيوس
لويولا. كلاهما مصدر وحي، ومصدر قوة. فقد ابتدأ
عبد القادر بالحب وانتهى بالنظام: أدى صاحب السلوك الرسالة في
حياته الدنيا، وصار بعد ذلك صاحب طريقة. كان عطاؤه محفوظة
وكانت قوته الاكبر في حياته. بجملة الشيخ، وما زالت
تلك القبة في الجامع الحامل اسمه، منارة علم وهدى للالوف من
روحه، بعد ثمانمائة سنة

الفصل الخامس

كنج عثمان والباز الأشهب

تاريخ واساطير - الشاه عباس يفتح بغداد - السلطان مراد يكسر الشاه - الراوي يكمل التاريخ - الدرويش السويدي بالاستانة - الزحف على بغداد - كيف فتحت بغداد - كنج عثمان - الحصار - الوباء - كيف صنع المدفع - الباز الأشهب - الملحمة الفاطمي وعجائبه - الطوب ابو خزامه ومعجزاته - تمرده على السلطان - النور ورموز - العاقر والحامل والعشاء

من اشياع الطريقة القادرية في الشرق.

وان للشيخ عبد القادر، فوق ما ذكرت، صفة حربية
تذكّر بيشوع بن نون. فهو مثل يشوع هدّام اسوار، وهو قارئ التوراة
مثله فاتح مظفر. اجل، هو بطل القصة التي تتعلق
بأثر من الآثار ~~...~~ القديمة العجيبة، اي المدفع
الذي يدعى "طوب ابو خزامه" وقد فتح بامر علي،
وكان ليث سلطان مراد، مفتاح بغداد.

الفصل الخامس

كنج عثمان والباز الاشهب التي اشرت اليها في الفصل الاول ثم
القصة التي ينبغي ان اقدم لها مقدمة
قبل ان اقص ~~...~~
اخرى، مقدمة صغيرة تاريخية.
في السنة الثلاثين والالف للهجرة (١٦٢١م) فتح بغداد الشاه
عباس الصفوي، ملك اربع سنوات، فخلفه الشاه صفي خان، ثم
صفي الدين، وما تجاوز حكمهما الاحدى عشرة سنة. ذلك ان سلطان
العثمانيين مراد الرابع زحف بجيشه على بغداد ليطردهم الفرس
فحاصرها في ٨ رجب سنة ١٠٤٨ (١٥ تشرين الثاني ١٦٢٨م) ودخلها ظافراً
في الشهر التالي. ثم ولى عليها والياً من قبله، وعاد الى الاستانة
تاركاً ببغداد للدفاع عنها المدافع التي غنمها من الشاه الصفوي،
وتلك التي كانت معه، ومنها طوب ابو خزامه.
هذه هي رواية التاريخ، وليس فيها شيء من سيرة المدفع
العجيب، وعلاقته بالشيخ عبد القادر، والاقتحام للانسان فما
الفضل في فتح بغداد. انها لقصة عجيبة قد نجدها في
مخطوطة من مخطوطات المدرسة المرجانية، وقد ظفرت
~~...~~ باحدى

احدى النوادر ممن يستطيع من القصاصين ان يكمل التاريخ
حين كنت اسعى لهذا الغرض لقيت صديقي الدجيلي الشيخ
كاظم الناشر الناظم فقصّ علي الطريقة بأن اجابني في
اليوم التالي بمجلة "لغة العرب" وفيها ما التعقيبة
ماشوب بقلمه، ومؤيدًا بوافر علمه،
قال الراوي: لما اخذ الشاه عباس بغداد
أذل اهلها، وجعل جوامعها الكبيرة مرابط لخيله وبغاله:
فثار ثائر الناس وقالوا: ما لنا غير السلطان نستغيثه
ولكن السلطان في الاستانة، والشاه عباس منع السفر من بغداد،
فكيف الوصول الى السلطان؟ اجاب على هذا السؤال
رجل من بيت السويدي، وكان خير الكلام. فقد تزيا
بزي درويش، وسافر الى الاستانة ليحمل الى السلطان
خبر سقوط بغداد. وبعد وصوله ظل متخفيا لا يبدي لاحد غرضه.
ووفقه الله الى خطيب جامع السلطان، فقال له انه طالب علم
وعارض خدمته. فاستخدمه الخطيب، لما بدا من نجابته.
وفي ذات يوم من ايام الجمع كان الخطيب مريضا، فما استطاع
ان يذهب الى الجامع ليلقي الخطبة، فقال له السويدي
انه ينوب عنه، فرضي بذلك. ولما رقي السويدي المنبر
نادى باعلى صوته: ايها المؤمنون المسلمون، ان الدين
ذهب، وان بغداد قد ضبطها الشاه عباس ورابط
خيله وبغاله في حضرات ائمتها، وفعل من
المنكرات ما لا يوصف ولم يخطر في بال انسان.
فلما

فلما سمع الحاضرون كلامه ضجوا بالتكبير، واخذوا

بالبكاء والعويل،

وكان السلطان مراد حاضراً، فامر بأن يجيء السودي

الى القصر، فاستقصر القصر خالوها الى آخرها، ثم أعلن

الجهاد، ونادى المنادي في الاستانة ان لا يتخلف السلطان

من عسكره او الكهول، والذين يغزو المسلط في كاهم

محمد الحبشي ~~وفيه~~ وفيه الشبان والكهول لاغيرهم فسيّر السلطان

قاصداً بغداد.

ولما صار قرب سامراء خطر له خاطر في اختبار رجاله،

قال الراوي: اراد ان يعمل على الجيش قائداً محنكاً، وان يذهب

هو بنفسه الى بغداد متجسساً. فاخذ يسأل كل جندي

ظن فيه الكفاءة للقيادة: اين بغداد؟ فاجاب

الاول: على بعد ثلاثة ايام منا، فامر بقطع رأسه.

واجاب الثاني: على بعد يومين، فصاح السلطان: اقطعوا رأسه حالاً

رأسه. واجاب آخر: على بعد يوم، فطاح رأسه

هذا في يوم واحد. وعندما أمر القواد في اليوم التالي

بالمثول بين يدي السلطان سأل احدهم: اين بغداد؟

فوثب الى صهوة جواده، وراح عاثراً يهز اللواء ويقول:

بغداد تحت حافر هذا الجواد، فهتف السلطان قائلاً:

الآن وجدت ضالتي!

ثم دعا القائد اليه وقال له: أخبرني الخبر: من علمك

هذا؟ فاجاب القائد: لي ابن احبه حباً شديداً

رغم

فلم اطق فراقه، فحملته معي مخفيًا في صندوق، فاخرجه منه
في الليل واسامره. وفي الليلة البارحة رآني في ضيق
وكنت اقول في نفسي: هي الليلة الاخيرة من دنياي،
فسألني عن حالي، فقصصت عليه القصة، فدبر لي هذا
الامر:

قال السلطان: ايه ابنك هذا؟ فاجاب القائد:
في الصندوق. فامره ان يأتيه به، ففعل. فلما رأى السلطان
الولد استسماه فاجاب: اسمي كنج عثمان (عثمان الصغير)
السلطان: الم تسمع اني امرت بقتل كل من لا يغرز
المشط في لحيته؟
كنج عثمان: انا لست كما ترى بل انا شيخ من الشيوخ:
السلطان: ان كنت صادقًا فخذ هذا المشط واغرزه
في لحيتك:
فتناول المشط ولشدة خوفه من السلطان غرزه في لحم خده:
السلطان: اين لحيتك؟ فانا لا اراها في وجهك،
كنج عثمان: لحيتي يا جلالة السلطان، في داخل صدري:
فأعجب السلطان بجوابه، ونجابته وشجاعته، ووزره
القيادة العامة:
ثم زحفت الجنود بقيادة كنج عثمان على بغداد، فحاصروها
فاستمر الحصار مدة مديدة:
فتعسر فتحها
اما السلطان مراد فقد جاء لبغداد في زي
درويش

درويش، ودخلها وهو ينشد الاشعار الفارسية باطرب
الالحان، فسمعه الشاه، فدعاه اليه، وقربه منه،
ثم لعب واياه في الشطرنج، فتقدم السلطان مراد
بفرزانه منتصراً، ثم حصر دشاه؟ الشاه وقال:
الشاه مات. قال ذلك وقام يخرج من القصر مسرعاً،
وراح الى المعسكر خارج السور.

وفي تلك الليلة كان القائد العام كنج عثمان ~~[illegible]~~
~~[illegible]~~ ارقاً مغتماً، فزاره ~~[illegible] هذه الحالة اذ [illegible]~~
شيخ معتم بعمامة خضراء كبيرة وخاطبه قائلاً: مالي
اراك في ضيق واضطراب؟ فقال كنج عثمان: قد اعيانا
فتح بغداد، فقد نفدت قوانا وذخيرتنا. فقال الشيخ: اذا
كان الغد اذهب الى السلطان مراد وقل له ان اعمل مدفعاً كبيراً.
فلما بزغت الشمس ذهب القائد العام الى
السلطان واخبره بما كان. فقال السلطان: من اين لنا ذلك
ولا حديد عندنا؟ ~~[illegible]~~
وفي الليلة الثانية ايضاً طاف الشيخ بالعسكر وخاطب
القائد العام عثمان الصغير قائلاً: الم اقل لك اعملوا مدفعاً من
حديد؟ لم لم تعملوا ذلك؟ فقال عثمان: ليس عندنا شيء
من الحديد. فقال الشيخ: خذوا نعل خيولكم ومرابطها
الحديدية وصبوها. وعند الصباح اخبر كنج عثمان السلطان مراد بذلك، فامر السلطان
بجمع النعال والمرابط كلها، فلما جمعت واذيبت تحولت الى
كيفية

كيفية صبّها:

وجاء الشيخ في الليلة الثالثة الى خيمة كنج عثمان
وراح يشرح له كيف [illegible]
يقول: انا اعلمك.
يعمل القالب ويصب المدفع:
[illegible] لاهما نقله الدجيلي ، ولاهما
ما فهمت القاعدة ... ولكن القائد العام
روى الراوي: كلام الشيخ مبهم ؛
كنج عثمان فهمه على ما يظهر ، لان المدفع صُنع في اليوم
التالي:

قال الراوي: صُنع المدفع ، ولكن يا جماعة الخير ما
عندنا بارود.
وللمرة الرابعة تجلى للقائد السعيد الشيخ الجليل الذي
عرفه الآن - او قبل الآن - القارئ النجيب ، وخاطبه
قائلاً: لا يهمنكم البارود والرصاص. فاجعلوا
بدل البارود التراب ، وبدل القنابل قطع الصخور ، وارموا
بها الاعداء. فانها ستقع عليهم اشد وقعاً من [illegible]
الرصاص والبارود. وسأقف لكم غداً على قمة قبتي
بصورة باز اشهب (نعم هو الشيخ عبد القادر قدس الله سره) فاذا
رأيتموني صوبوا المدفع الي ، واقذفوني بما فيه (ما فهمت
السر هذا ، ولا فهمه الدجيلي ، ولم نوفق الى احد ببغداد
يفهمنا اياه) ثم ارموا رمية اخرى على السور تثلم
منه ثلمة واسعة ، وادخلوا المدينة عنوة . وانكم
ان شاء الله لظافرون .

وفي صباح اليوم التالي انتصب الباز الأشهب فوق
قبة جامعه، وكان ما أوصى به. فأُطلق المدفع عليه
فأخفاه التراب عن النظر. ثم أُطلقت الطلقة الثانية
على السور، فانهدم جانب منه عظيم فتدفقت جنود السلطان
مراد في المدينة كأمواج البحر الزاخر، والتحمت وجنود
الشاه في القتال.

وكانت ملحمة لا كالملاحم، حدّث عن عجائبها ولا
حرج. فقد شاهدت امرأة من على طوار دارها جنديا
مقطوع الرأس يحمل سيفا ملطخا بالدماء، ويستمر في
الذبح. فصاحت قائلة: سبحان الله. هذا رجل بلا
رأس، ولا يزال بسيفه يقطع الرؤوس. عندئذ سقط
من على ظهر جواده، وخرّ صريعا، فدفن في موضع مصرعه
في المحلة المعروفة اليوم بمحلة "ابو سيفين" واكثر سكانها من اليهود. فقد أُصيب
فلله من هول تلك الملحمة ومن عجائبها. قُطعت يداه وما
منها حتى القائد العام عثمان الصغير: بل ظل يمشي امامه -
سقط اللواء الذي كان حامله. فصاح مدهوشا:
يمشي اللواء وحده - حتى رآه احد الناس
الله اكبر! فهوى اذ ذاك الى الارض، وقتل كيخ
عثمان. ولكنه بعون الله وعبد القادر كان منتصرا.

عبد القادر الجيلاني
من احسانك لا تنساني -
من حسادك لا تنساني!

/ دوقس

دُفن عثمان الصفير - القائد العام الكبير - حيث سقط هو واللواء. ولا يزال ضريحه بحجرته وقبته قائمًا اليوم بقرب باب السراي، وقد كتب على احد جدرانه بالقاشاني الابيض يتخلله الازرق ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. رئيس الشهداء شيخ عثمان.» وقد اصبح هذا الضريح مقامًا تُشعل الشموع عليه ليلة كل جمعة، ويزوره الناس وينذرون له النذور.

اما اكليل المعجزات في تلك الملحمة الفطمي فقد حازه الطوب الوخزاوه،(1) الذي اضحى بعد ذلك، في نظر العامة، وليًا من الاولياء. فهم يزورونه، ويتبركون به، ويعقدون الخرق بسلسلة الحديد التي تطوق قاعدته، وينذرون له النذور، ويسرجون الشموع حوله كل ليلة جمعة. واكثرهم من النساء. اكرم به من ولي قلما يخيب طلب زواره، فالامرأة العاقر، والفتاة العاشقة، والعمشاء والعرجاء، أم البنات المعلولات - كلهن يجئنه طالبات داعيات. الأم التي لا يعيش لها ولد تأتي اليه بالمولود في يوم السابع، وتدخله في فوهته وتخرجه ثلاثًا لصحة المولود وعلى حاله، وشجاعته وطول عمره. والامرأة التي بعينها رمد تدخل رأسها في فوهته وتخرجه ثلاثًا، وتغسل شيئًا [illegible] منه او من السلاسل حوله بالماء.

(1) اقلب

(١) هو مدفع كبير طوله اربعة امتار ونصف متر، وقطر فوهته نحو نصف متر، ~~[illegible]~~ وهو [illegible] مطروح على مرقد "من جذوع النخل" في محلة الميدان، في الجانب الشرقي من بغداد، امام باب القلعة التي فيها اليوم وزارة الدفاع.

وتنذر النذور:
بالماء، ثم تغسل بذلك الماء عينيها.
ومما هو جدير بالذكر ان الناذرات لا يفين بنذورهن
الا اذا استجيبت طلباتهن:
وعلى الطوب ابو خزامة زنبور ورموز لا يحسن
تفسيرها غير المتضلعين بالعلم من الرواة:
قال الراوي الذي نلتطف وكان دليلنا:
ترى هذه البعجة في ظهره؟ قد توقف عن السير في
يوم الحرب، فغضب عليه السلطان، فضربه ضربة بكفه
بعجت ظهره. لماذا يسمى ابو خزامة؟ الجواب
عندي: انظر الى الفوهة التي في داخلها صدعاً،
هو مكان انفه الذي كانت فيه الخزامة - ابو
خزامة! ولما استعصى على السير ثناه السلطان
من خزامته فخرم انفه. وهذا أثر الخرم باقٍ
الى اليوم. اما السمكات الاربع المنقوشة على
ظهره فما قصتها عجيبة: هي ترفرف على ما كان من
غضبه - غضب ابو خزامة - وسمو قصده. فعندما
خرم السلطان انفه، توقف عن الحرب - الى القتال -
صار من زمرة اهل السلام. ولشدة غضبه وتحقق
قصده في رفض الحرب وشجبها، ألقى بنفسه في دجلة:
فخاض السلطان النهر لينقذه، فجره الى البر
فرأى

فرأى صورة السمكات منقوشة على ظهره لتشهد انه رمى
بنفسه في النهر فراراً من السلطان ومن الحرب.
كل هذا من فضل الدليل وعلمه. الا انه نسي ان
يشير الى الكتابة المزبورة على المدفع وهي انه
"صنع برسم السلطان مراد خان". وكأني به
اي الدليل
يقول: ففهمت ما تلمح اليه. واني ارد كيد المشككين
فهل ترى في الكتابة المزبورة، كما تقول،
محرم
عبد حاقد أنت، اي صنع برسم السلطان مراد خان"؟
كلا ... ما صنع بالاستانة، بل صنعها ههنا ببغداد
بأمر مولانا عبد القادر قدس الله سره، وبعونه تعالى.

الفصل السادس ~~الفصل السابع الاخير~~
في الفصل ... يحق للولي ان يتوسل
في مقبرة الكرخ
يستدل مما تقدم الى الله المتوكل وان كان من الجهاد، كالمدفع،
المعجزات،
من يقوم مقامه في ... او السيف لسبب
او الراية التي مشت وحدها، ويا عبد القادر الولي الوحيد
الجندي المقطوع الرأس. فهناك غيره كثيرون، وان صغرت
في هذا من الاولياء. ليثيبون عنهم الجهاد لخير
القباب المضطجعون تحتها، في حياتهم الدنيا، ان
العباد. ولكنهم ما حاولوا
يلبسوا اتباعهم الصوفي ثوب السياسة، او يقلدوه
سيف الملك. فظلوا بعيدين عن الملك
وعن الحروب، الا القليل منهم من عرتهم المناصب
فقاسوا

فقالوا في سبيلها البلاء كثيرة او قليلة.

في مقبرة الكرخ القديمة لبعض المفاجآت الجديرة
بالذكر والزيارة. وهي لا تخرج من موضوع بحثنا الشامل ما تبقى
من آثار مدينة الخلفاء. تعال اذن نزور مقبرة الكرخ. وجدير
بنا ونحن في الطريق ان نتمثل بقول ابي زيد البسطامي
الشهرستاني: "اترك نفسك وتعال". كنت لي
مرآة، فصرت انا المرآة".

اننا في مقام جُنيد (الصوفي) ال[مشهور] مشهوراً بما يأتيه من
المعجزات. فينافس فيها البارز الاشهب وغيره من الاولياء
~~توفي سنة ٢٩٨ه – ٩١١م~~ – توفي في العقد الثاني من القرن الرابع [و]كان من اكبر المتصوفين

كان جُنيد في زمانه، وفي اواخر الدنيا وما عادها. قبل نعمة الحياة
المتجانس، فشاهدوم الدنيا وما عادها. ابن الدى[؟] السيادة والكياسة
وشذبها فكان من الحاجات السيادة والكياسة كثيراً بما لا ليلاق
الذي فقس، ثم وتطيب بالعطور، والحفل ان يسلك
لطوعه من المحسوس والمنظور، بل حاول ان يسلك. فاعترف بفضل
المناقضات، ويوفق بين النور والظلمات. كما اعترف بفضل الفراش الوثير
الماعون الفارغ يحمله الدرويش، كما اعترف بفضل الفراش الوثير
يفرش للقضاة. اما الاول فهو رمز كل باطل في الحياة، واما
الثاني فهو رمز الحياة التي تظل ناعمة – ولا بأس – بحثنا.
كان جُنيد محباً للجدل، شغفاً بالاساليب البيانية، بل كان ممن
يستهويهم الالفاظ، فيأتون منها الحكم والآيات للناس.
لا يفهمهم. "البلاء سراج العارفين" قالها جُنيد
وقال غيرها مما لا
وما عرف البلاء في الحياة الدنيا، فقد
تكلفت اجهاد النفس في شاهد لقيه
سيكل

[illegible] ٧

سُئل مرة عن غني شاكر وفقير صابر ايهما افضل،
فقال: "الذي آلم صفته وازعجها أتم حالاً ممن متع
صفته ونعمها." وقد كان هو كما اسلفت، من
الممتعين المتنعّمين، عفا الله عنه، وغفر له خلوصاً
لقوله: "ما اخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن
الجوع وترك الدنيا." ان في كتابه "دواء الارواح"
من الغوامض الفكرية، والاساليب اللفظية ما يعيد الى الذهن
اسلوب يوحنا في انجيله، وبولس الرسول في بعض رسائله.(١)

لست ممن يقولون ان كتبه — ومن يقرأها اليوم يا ترى — هي
الضامنة لدوام ذكره. انما اظن بل اعتقد ان ذلك الذكر
منوط بحجر دوام بقيعة تلميذه وزميله الحلاج، الذي حكم عليه جنيد
بالاعدام. وقد دفن الاثنان بالمقبرة الواحدة في التراب
الواحد، انما تحت حجرتين قريبة الواحدة من الاخرى.
وهو لا يزال في هذه التربة ممن يأتون بالمعجزات.
كان في الجامع الصغير الذي يحتوي ضريحه على سجادة مفروشة
فوق مائدة صغيرة، حجرين املسين نعمان بالصفة التي
للطوب البوخزانة. اجل ان فيهما الدواء لكل الامراض. كان
فاذا وضعت المرأة احد الحجرين على موضع الالم منها
لها الشفاء. وان كان الداء داخلياً حملت المرأة الحجر
على

---

(١) قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، المحيط علماً
بالمتصوفين، المتضلع بعلوم التصوف العربية والفارسية، ان في كتب
جنيد واقواله مجالاً للبحث في ما قد يكون من الصلة الروحية
والفلسفية بين هؤلاء المتصوفين وبين نساك النصارى في العراق.

على رأسها وطافت بالمسجد حول الضريح، وان كانت عاقراً
تبتغي ولداً مسحت بالحجر بطنها، وإنّ خارج المسجد
بئراً يحقق الغسل بمائها ما قد يعجز عنه الحجر العجيب،
بل ان فيه فوق تلك القوة ما يكيف الجنين ليرضي
حاملته المؤمنة. فهي اذا اخذت ثلاثة ادلية من
ماء تلك البئر، وصبتها على رأسها وجسدها، وكان
ما سبق حمله ولدها اناثاً كلهن، تنعم بمولود ذكر!
حسبك من جنيد هذه المعجزة، وهو فيها منقطع
النظير بين الاولياء. فيتفقون في
على ان هناك عدة من الاخصائيين
البركة عند معجزة لا يعدونها: ان في هذه المقبرة القديمة
تراب صوفي آخر هو بهلول الذي كان معاصراً لهرون
الرشيد، وجوازاً لابي النواس في منادمة ذلك الخليفة
المرح؛ وانه اليوم، وان كان من الابرار في الجنة، ليناس
زميله جنيد بالمعجزات،
انما لبهلول طريقة طريفة، توجب على الزائرين
والزائرات، وخصوصاً الزائرات، البناء والهدم في سبيل الله،
كان في ساحة المسجد الصغير، كومات من الحصى متعددة،
هي بيوت القلوب، اي ان كل كومة فيها هي بيت لبنية
احدى الزائرات الناذرات تحتوي منية قلبها. وبعد
ان تتم المسكينة بناء بيتها تتوسل الى بهلول، وتقسم
انها لا تهدم ذلك البيت قبل ان يستجيب دعوتها،

فصل

الفصل السادس

في مقبرة الكرخ

—

الصوفي الكبير —

قباب الأولياء — الصلة

التوفيق بين النور والظلمة — بين ولوكس الرسول —

الروحية عند جنيد — ما أحب ما لا

معجزات جنيد — أبو جرادة —

سنشاهد الطوب — بيوت العامرة بالذهاب

مقام بهلول —

—

الفصل السابع

الصوفي الأكبر

—

ما قاله عبد القادر الجيلاني في الحلاج —

"شطاح العراق" — "أنا الحق" —

الحكم على الحلاج بالإعدام — بيلاطوس ببغداد —

ما قاله الحلاج للخليفة — الرأس الناطق والدم

الكاتب — ورأس ماريوكه بروحه — الشرق

والغرب يلتقيان — ما يروى عن الحلاج —

— ما قاله

عن نفسه

ما قاله الحلاج

لأخته في منامها —

هل يجوز أن تدعى المعجزة البهلولية اللعب بالحصى؟

ما السبب أذن في ازدحام هذا المكان بالبيوت

العامرة؟ -- لا أهدم بيتي، حتى تستجيب

دعوتي ... وحمل كالسراب، وقلب

يا بهلول ... ذرهم في حوضهم يلعبون.

من التقوى خراب"

-٥-

الفصل السابع

الصوفي الأكبر

ها نحن في ظلال — العفو يا قارئي. ليس في هذه

المقبرة غير الشمس في النهار، والظلمة في الليل. لا نستجير ولا

نطل بين هذه القبور. انما نحن واقفون وراء ظلنا الضئيل

الذي يقبل الآن عتبة مقام الحلاج حسين بن منصور بن أبي

بكر الأنصاري المعروف بالحلاج، المشهور في الشرق والغرب.

قال عبد القادر الجيلاني في الحلاج: «كان بازياً من بزاة الملك. فطلب في الأرض

فلم يجد في السماء ما يجاوز حد الصيد. تلفت لقنص

ما هو أعز من وجود المنار في قعور البحار. فكر فلم يجد في الدارين مطلوبا

عقله فما شاهد سوى الآثار. فطرب فقال بلسان سكر نفسه: أنا الحق.

سوى محبوبه، فطرب فقال بلسان سكر نفسه: أنا الحق. صفر في روضة الوجود صفيراً

ترنم بلحن غير معهود من البشر. صفر في روضة الوجود صفيراً

لا يليق ببني آدم. لحن بصوته لحناً عرضه لحتفه.»

كان الحلاج مثل عبد القادر فارسي الأصل، ولد في تل

بيضا القريبة من شيراز، وجاء العراق فقضى معظم سكرته

الإلهية ببغداد. وهو حقاً من أعظم السالكين وأحد

المتصوفين، بل هو أشهر من ابتلوا بالعشق

وتلذذوا بالبلايا. هو إذن صاحب الخرقة

شطّاح

شطّاح العراق، رئيس السكارى والعشاق".
ولكن جُنَيد أنكر ذلك. فقد قال ردًّا للحلاج
"فتحت ثغرةً في الإسلام لا يسدها إلا رأسك".
ما لنا والتكلم. أما الرأس فقد طاح، والتوحيد
صاح. وما تبقى من صاحبه هو مدفون تحت قبة
في جوار خصمه الأكبر. وما جُنَيْد ومعروف
الكرخي. إذا ما ذكر الحلاج فهو للسالكين في الشرق وفي
الغرب النور الأنور والعلم الأشهر.

تفكّرتُ في الأديان جدَّ تحقّقٍ
فألفيتها أصلاً له شُعَبًا جمّا
فلا تطلبنْ للمرء دينًا فإنه
يصدّ عن الأصل الوثيق وإنما (؟)
يطالبه أصلٌ يعبّر عنده
جميعُ المعالي والمعاني فيَفْقهها"

لو عدّها في ديوانه من الحكم الإلهية التي تبدو كفرًا
في ظاهرها، وقلّ من الكفر المستبطن بالإيمان. غير أن الذي
أوجب الحكم عليه بالإعدام هو قوله: أنا الحق. وقد أطلق [illegible]
على ما قال عبد القادر الجيلاني في شرح الحال التي أدّت
الحلاج إلى أن ينطق ~~[illegible]~~ بهذه الكلمة،
أما الجنيد منكرها ومُخزي قائلها، فقد جلس في
كرسي

كرسي القضاء وحكم حكمه بعد ان جمع اربعة وثمانين من العلماء
والقراء ليشهدوا "بأن في قتله صلاح المسلمين".
... وجاء حامد بن العباس وزير الخليفة
المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ = ٩٠٨-٩٢٢م) ومعه موكبه وصاحب
الشرطة محمد بن عبد الصمد، فتقدم حامد الى الخشبة، وأخرج من كمه
الدرج الذي فيه شهادة الفقهاء والعلماء فقال: "اريد الشهود".
فاذا بالشهود يهرعون اليه من كل مكان. فقال لهم: "هذه
شهادتكم وخطوطكم؟" فقالوا له: "نعم، اقتله ففي قتله صلاح
المسلمين ودمه في رقابنا". فأنزل من الخشبة، وتقدم السياف
اليه ليضرب عنقه، فقال الوزير (بيلاطوس بغداد) للشهود:
"امير المؤمنين بريء من دمه". فقالوا(1): "نعم". فقال:
"وانا بريء من دمه". فقالوا: "نعم". فقال: "وصاحب
الشرطة بريء من دمه". فقالوا: "نعم". لله انتم يا بيلاطوس
النباطي، ويا اخوان بيلاطوس ببغداد!

الهندي

---

(1) "وبلغنا ان الحسين بن منصور دخل على المقتدر بالله فقال له: بدّ ... اذن [illegible] تبالي بما سيفعل
بي. فقال المقتدر: كل شيء اطاع الله اطاعه كل شيء.
فقال له: ثمّ حاكم ومحكوم عليه وواسطة هي السبب في ايصال الحكم
من الحاكم الى المحكوم عليه... انت الواسطة وانا عبد من عبيد الله
صابر لحكم الله، راضٍ بقضاء الله، فافعل ما حُرِّكتَ له، واعمل ما استُعملت
فيه، ولكن بعد ذلك شديد الحذر، فيما تأتي به وتذر. وانظر
في عواقب امرك... واني لا اعترض عليك، ولا الومك في فعلك
ولكني اقول كما قال الخليل: "وجهت وجهي للذي فطر السموات
والارض حنيفاً وما انا من المشركين". فامر الخليفة بحبسه،
وجمع الفقهاء والصوفية في مجلسه واستشارهم، فكفّره
الفقهاء، وتوقف عن تكفيره الصوفية" — الا الجنيد".

من مخطوط ذكرها لويس ماسينيون ونشر نصها في Recueil de Textes Inédits

Concernant l'Histoire de la
Mystique en Pays d'Islam –
Paris, Librairie Orientaliste

هذي هي صفحة من التاريخ، وهناك صفحة أخرى من كتاب الأساطير.

... عندما ضرب عنقه، بقي جسده ساعتين من النهار قائماً،
ورأسه بين رجليه، وهو يتكلم بكلام لا يفهم، إلا أن آخر
ما قال: أحد أحد. وكان الدم يخرج منه ويكتب
به على الأرض: الله الله. في خمسة وثلاثين موضعاً..(1)
وبعد أن ضرب عنقه أُحرق بالنار، فانتثر رماده
في نهر دجلة وهو ينطق قائلاً: أنا الحق!

قال الشاذلي: اضطجعت في المسجد الأقصى، في
وسط الحرم، فدخل خلق كثير أفواجاً، فقلت: ما هذا الجمع؟
قالوا: جميع الأنبياء والرسل قد حضروا ليشفعوا في
حسين الحلاج عند محمد صلعم في إساءة أدب وقعت منه...

---

(1) عندما ضرب الرومان الوثنيون عنق الرسول الشهيد ماربولس
عليه السلام جرى من جسده الحليب بدل الدم (كذا في
كتاب الأساطير الغربي) ووثب الرأس ثلاث وثبات على
الأرض، فنبع في موضع كل وثبة عين ماء. ولا يزال المكان
يدعى بالثلاث عيون "ترى فنتانا" وهو في ضواحي روما،
ولا يزال المؤمنون يؤمونه متبركين بمياهه، ويشربون
منها مع خطر نظارة الصحة بروما، لأنها، مثل المياه في
بئر جنيد، تحمل العنواتر، وتشفي المجذومين.
من ذا الذي يقول بعد هذا أن الشرق والغرب
لا يلتقيان؟

وقيل انه قبل ذلك وضع بالسجن وصوّر في حائط
المحبس صورة مركب وقال للمحبوسين : قوموا لنذكر الله
تعالى . ثم انهم فعلوا ذلك حتى غابوا عن الحبس
فاذا هم دخلوا المركب المصورة ونجوا جميعاً .

- - -

وقيل انه حفر حفرة ، وأوقد فيها النار ، ووضع فيها
الهاون . ثم انه خلي كالجمر ، وقال لأهل المدينة والاولياء :
كل من كان صادقاً بالله فليتقدم ، وليقف على الهاون
داخلاً النار . فلم يقدر احد . ثم انه تقدم ووقف
عليه فذاب تحت قدميه حتى صار كالماء . . .

- - -

وقال القاضي ابو علي التنوخي : حدثني ابو الحسن محمد بن
عمر القاضي قال : حملني خالي معه الى الحسين بن منصور الحلاج
وهو اذ ذاك في جامع البصرة يتعبد ويتصوف . . . فاخذ يحادثه
وانا جالس معه اسمع فقال لخالي : قد عملت على الخروج من البصرة .
فقال له خالي : لم ؟ قال : قد صيّر لي اهل هذا البلد حديثاً ،
فقد ضاق صدري واريد البعد عنهم . فقال له : مثل ماذا ؟
قال : يروني افعل اشياء فلا يسألون عنها ولا يكشفونها ،
فيعلمون انها ليست كما وقع . ويخرجون فيقولون الحلاج
مجاب الدعوة ، وله معونات - قد تمت على يده الطاف ،
ومن انا حتى يكون لي هذا ؟ بحسبك ان رجلاً حمل إليّ منذ
ايام دراهم وقال لي : اخرجها الى الفقراء ، فلم يكن بحضرتي في
الحال احد ، فجعلتها تحت بارية (حصير) من بواري الجامع الى جنب
اسطوانة

اسطوانة عرفتها، وبت ليلتي. فلما كان من غد جئت الى الاسطوانة اصلي، فاحتف بي قوم من الفقراء، فقطعت الصلاة، وشكلت البارحة فاعطيتهم الدراهم، فشنعوا علي بان قالوا اني اذا ضربت بيدي الى التراب صار في يدي دراهم".(١)

- - - -

وقفت في حضرة الحلاج عند مائدة عليها ورقة مكتوبة فيها الاشعار التي قالها قبل ان ضرب السياف عنقه وقد نظم هذه الابيات على مائدة بعدان علم بالحكم الذي اصدره جنيد. ولكنه سأل من جاءه بالخبر: ابن صدر الحكم أفي المسألة التكية ام في المدرسة؟ فقيل له: في المدرسة. وفي المسألة التكية نقطة قانونية شغلت باله. فلو ان الحكم صدر في التكية لكان باطلاً لان الحلاج وجنيد فيها اخوان. اما في خارج التكية فجنيد القاضي يحكم بما يشاء. وجاء الشهود وتبرأ من تبرأ من دم هذا الصديق فانشد الابيات المعروضة اليوم على المائدة عند صلبه!

نديمي غير منسوب الى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب(٢) كفعل الضيف للضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

- - - وبعدها نامت اخته فرأت في المنام اخاها حسيناً وهو يقول لها: يا اختي، الى كم تبكين علي؟

Textes Inedits
بقالة صفحة ٢١٧

(١) نقلها من كتاب لويس ماسينيون
(٢) اشارة الى انه كان تلميذاً لجنيد

فقالت له: كيف لا ابكي وقد جرى عليك الذي جرى؟

فقال لها: يا اختي، لما قطعوا يدي [illegible] كان قلبي مشغولاً بالمحبة، فلم ادرِ الا هي طيبة. فلما صلبوني كنت شاهد ربي، فلم ادرِ ما فعلوا بي. فلما احرقوني نزلت علي ملائكة ربي من السماء صباح الوجوه، فاختطفوني الى تحت العرش، واذا بالنداء من العلي الاعلى: يا حسين، رحم الله من عرف قدره، وكتم سره، وحفظ امره. فقلت: اردت التعجيل الى رؤيتك. فقال: تمهلاً بالنظر فاني لا احتجب عنك."(1)

— ٥ —

الفصل الثامن

المرأة المجهولة

بالقرب من ضريح الحلاج، لا بل بالحوض الملهم الملهم(؟)، وبالنخلات العالية التي تظللها، قبة فريدة بشكلها وهندستها، هي ما رأيت في بغداد غير قبة واحدة مثلها، هي مقام الصوفي السهروردي(2) خارج السور الى الجهة الشرقية منه. ان هندسة هاتين القبتين سورية(؟) عربية. فالشكل الهرمي فارسي، والزخرف في الداخل عربي، هو التقرنص. غير ان هذا التقرنص وجيهين(؟)، خلاف ما نراه فوق ابواب الجوامع والخانات القديمة. فان بين المخروطات وطبقاتها المتشابكة نوافذ للنور مغطاة بالزجاج، فتبدو القبة للواقف تحتها كقطعة من السماء مرصعة بالحجارة الكريمة.

//ر ن

(1) صفحة ٦٦ من كتاب Recueil de Textes Inédits

(2) اقلب

١٠٩

~~شاعرتين ... سوداء و~~
~~الى الفتنة. بنت أبي عباد~~

(٢) هو ابو الفتح شهاب الدين يحيى بن حبش الحكيم السهروردي،
الذي أشرقت شمسه بمراغة من اعمال اذربيجان،
في القرن السادس للهجرة، وغابت قبل اوانها بحلب. والسبب
في ذلك ان هذا العالم المتصوف كان يتهم بالكفر والزندقة،
مثل الحلاج، فأفتى علماء الشهباء باباحة دمه، فحبسه
سلطانها الملك الظاهر بن صلاح الدين الايوبي، ثم
خنقه باشارة والده صلاح الدين - المشهور - لتقرير
هذه الاحوال!- في شهر رجب سنة ٥٨٧ وله من العمر
ثماني وثلاثين سنة. وكان السهروردي شاعرا،
موفقا لقصيدة واحدة، مطلعها اشهر منه. فهو القائل:

ابدا تحن اليكم الارواح
ووصالكم ريحانها والراح

الفصل التاسع

المرأة المجهولة

القبة الفريدة – المرأة الوحيدة –
زبيدة والست زبيدة – ضريح الحب
الخالد – المرأة الفاضلة –
ضريح الجندي المجهول – ضريح المرأة
المجهولة

ومن تلك النوافذ الصغيرة ترسل الشمس اشعتها فتبسط
على ارض الحجرة بساطاً من الظل والنور، يبدو
كالمشبك تحت قدميك.

ليست هذه القبة الجميلة في جبانة الكرخ لاحد
من الرجال اصحاب السيادة او الكرامة او المال: بل هي
لامرأة تدعى زبيدة. ولك ان تسأل: من هي
تلك الزبيدة التي استحقت هذا الاثر الرائع؟ ولي ان
اجيب: لعلها من اهل البر والتقوى، من اهل الكرامات.
فلو كانت كذلك لكان ضريحها اليوم مقاماً لابناء الاحلام
وبنات الاساطير والاوهام.
ولكنها في نظر احد المصورين الانكليز الذي صور
في لندن، تمت بالنسب الى حد
الفرج لتاجر صورة — وطبع ادعاءه
ذكرنا، فقد ادعى ذلك المصور التاجر — ان هذا هو ضريح
تحت الصورة، بياناً بل ضلالاً — الف ليلة وليلة!
السيدة التي صنفت كتاب الف ليلة وليلة! من الجميلات الفاتنات
اما انها كانت من ذوات الليالي، من الجميلات الفاتنات
فذلك ممكن، ومما لا ريب فيه ان رجلاً واحداً صفا
لها، واخلص الحب حتى النهاية. اقول ذلك لعلمي —
ولا اظنك تماريني به لعلمك — او عدم علمك — انه يستحيل في الشرق
اليوم، وبالحري في الماضي، ان تتكرم امرأة هذا
الاكرام

الاكرام الا الحب شخصي . فلا المعاهد العلمية ولا
الجمعيات الادبية والنسائية ، ولا الحكومات "البرلمانية" ،
تبذل فلسًا من اجل أثر تذكاري يقام لامرأة
عظيمة .

وهل كان بين النساء العباسيات اعظم من الست
زبيدة المشهورة بوقائها وبرها واحسانها ؟ وهل هي
مدفونة تحت قبة مثل هذه الزبيدة المجهولة ؟ ان الست
زبيدة التي يفاخر بها التاريخ مدفونة في مقبرة الخلفاء ،
مثل سواها من النساء ، والا شيء يزين قبرها او يلطف
الوحشة المخيمة عليه .

لذلك اقول ان هذه الزبيدة المجهولة مدينة لرجل
من كرام الرجال بما يحيط ضريحها ونجمها تحت جمال تلك
القبة ، بالحب الابدي . اجل هو ضريح للحب الخالد
تزوره في النهار اشعة الشمس ، وتزوره في الليل ضياء القمر
والنجوم .

من عادات العالم الجديدة ، التي اوجبتها الحرب العظمى ،
ان تقيم الامم ضريحًا للجندي المجهول . فهلا تنشأ في العالم
عادة اخرى جديدة ؟ ان هذا الزمان لزمان عبد الازمنة
العابرة بالاباحات المشروعة ~~والخيانات~~ وغير المشروعة ،
وبالخيانات الزوجية السرية والعلنية ، ومع ذلك
ما عدم الزمان المرأة الفاضلة .

المرأة

فالنساء الفاضلات البواسل، اللواتي يجاهدن في سبيل
بيوتهن، ويستبسلن في سبيل الحب والسلام، او في سبيل
السلام وحده، النساء الكاظمات، الصابرات، الورعات،
الحافظات امورهن، وامور بنيهن واهلهن، الباذلات
نفوسهن من اجل ازواجهن وابنائهن، النساء
اللواتي تتقدس في حياتهن الامومة والاسرة،
انهن على الدوام مجاهدات مستبسلات في كل مكان.

اجد ان الجميل لنفسي ان استذكر، التي ترقد
تحت هذه القبة هي من النساء اللواتي ذكرت — وهي
المرأة المجهولة — فاجثوا امام ضريحها كما تجثوا امام
ضريح الجندي المجهول. هذا الرجحان
وعندما ينفتح قلب بغداد لهذا الاحساس والادراك
تصبح بغداد فريدة محببة بين المدن. بل يحق لها اذ ذاك
ان تخاطب مدن العالم قائلة: عني خذوا، وبي اقتدوا.
ويودي لو ان المدن تباشر العمل قبل بغداد،
فتبني كل مدينة كبرى — قبل ما تشاء في عاطفتي هذه
الانشودة — الى جانب ضريح الجندي المجهول، ضريحا
للمرأة المجهولة.

قلب العراق

الفصل التاسع

١ - ٢١

(بعد ص ١٦١)

[illegible] الثاني

الفصل التاسع

غزوات الاثريين

—

أُبهة الغزاة – المرأة في الغزوة – مُكهنية حفار
القبور – ما تحت الارض من انوار التاريخ – الغزاة من
كل الامم – الامريكيون في خارسرحون – تصحيح تاريخ آشور –
شعب قديم جديد – خارطة العراق على طابوقة – اورنامه
عمرها ستة الاف سنة – اين هي سلوقية ؟ – ما هي
أكثاك ؟ – البرثيون ومن هم – هندسة شرقية غربية –
الانكليز في أُور – الكنوز في القبور – المدنية السومرية –
شرائع حمورابي وشرائع سومر – الاعماق تنير جادة العلم
خليج فارس تحت اسوار أُور – البطاح ما يتحرك في
العالم – اكتشاف عجيب – ملحمة كلكامش وسفر
التكوين – الطوفان – أُوتا نابشتيم نوح السومريين –
وصف الطوفان – اين بنى نوح فلكه – اين دفن
نوح – الزقورة، هرم السومريين – هياكل تحت
هياكل وجدت فوق مدن – "ودفين فوق بقايا دفين" –
اشنونا والمدنية الهندية – آشور تقتبس من أُور –
حمورابي ينصر المرأة – السومري يلعب النرد –
اين تذهب آثار العراق – البعثة الالمانية في
اوروك – كنوز هيكل "اي انا" – السرقات المتعددة –
قسمة ضيزى – المدير الاجنبي والاحص الوطني –
الحلم الغالي الثمن – عبد الرزاق لطفي –
الاثار في حاجة الى اخصائيين وطنيين – توقيف
الحفريات

—

٢

للنزل الذي كنت مقيمًا فيه صحن فسيح مفروش بالبلاط الابيض،
يرحّب حتى بالسيارات. وفي ذات يوم ساعة الفجر، سمعت صوت
بوق صخّاب، فاذا بسيارتين في ذلك الصحن،
وقد كساهما غبار الصحراء، الواحدة عادية، تظهر في مؤخرها لوحة
بلدية دمشق، والثانية كبيرة فخمة، تحمل لوحة حمراء مطبوع عليها
اسم مدينة من المدن الكبرى في الولايات المتحدة الاميركية.
فسارع الى استقبال الركب مدير النزل الكلداني، يحييهم بالانكليزية
وتبعه الخدم لنقل ما أُثقلت به السيارتان من الحقائب والرزم
والصناديق.
ثلاثة رجال في معاطف من الجلد، وهم [illegible]، بيض البشرة
زرق العيون، وسيدتان شقراوان جميلتان، كل واحدة منهما
في معطف من الفرو يندر مثله — ويندر مثلهما — في بغداد.
قلت: سياح من اغنياء الاميركيين؛ وقلت: سفير من السفراء.
وكنا قد سمعنا ان السفير الاميركي المعين جديدًا لايران سيمر
في ذلك الاسبوع ببغداد في طريقه الى مركزه بطهران.
بادر الخدم الى السيارتين ينقلون ما حملتاه من حاجات — حقائب وصناديق
الاسفار ولوازمها. وما اكثرها عددًا واشكالًا — من الجلد ومن القماش، واخرجة ومعاطف
كبيرة وصغيرة، واكياس، وعلب لبرانيط النساء والرجال — المسافر والاعزب
وشالات. وما اكثر ما يستخرجه
سفير او ~~[illegible]~~ سري، ما ينبئ لغير ذلك.
ثم جاء ما كانما السيارة قبعة
داخل السيارتين. كانما الخدم من السحّار حتى بالة من القطن. وهذه قرب
يستخرجون لك منها، ومعاطف من جلد الغنم
من القماش، وحزم طويلة من المطاط، وآلات للكتابة وللتصوير
وصناديق من الصودا والمياه المعدنية، وللمساحة

للمساحة، وصندوق من اللحم المقدد، وعلبة كبيرة فيها علب
صغيرة، فيها مسحوق لقتل البرغش!
ليس القادم سفيراً اميركياً، ولا الهواة بسياح اغنياء. انما هم
الطليعة لبعثة أثرية اميركية. اجل، قد تغيرت الاشكال بعد الحرب
العظمى، كما تغيرت الاخلاق. فما نرى العالم فنظنه سفيراً، والسفير
فنظنه تاجراً او صعلوكاً، والمتسول السائح فنظنه من اهل الورع والتقشف.
اين ذلك العالم المحدودب، الظاهر، الكث اللحية، اللابس ثوباً
بالياً ونظارات سميكة، المتأبط كتاباً، الحامل حقيبة كبيرة، فقد امسى اثراً من
الآثار، وجاء عالم اليوم رجلاً بهي الطلعة، حليقاً نشيطاً، ورديّ
الخد، متقد الباصرة، أنيقاً لبقاً، تظنه في اسفاره سفيراً.
وان ما يتقاضاه ثمن علمه وعمله لاكثر مما يتقاضاه السفير. فيغدو
وبامكانه ان يطلب امرأة او حبيبة او رفيقة الى مكان عمله.
وقد تكون السيدة المرافقة عضواً من البعثة، ثم تكون من الغزاة.
ذلك لان علم الآثار بعد الحرب العظمى اضحى من العلوم المثمرة — مادياً —
فتهافت عليه من اهل العلم الرجال والنساء.
فلا تعجبين اذا كانت تلك الحسناء، المتلفعة بمعطف من الفرو الغالي،
المخبئة سهام لحظها وراء نظارات زرقاء، الحاملة حقيبة تحتوي
على اسباب التبرج كلها — من المكحلة الى الاحمر القرمزي — لا تعجب
اذا كانت اختصاصية في العلوم والآثار الاشورية.
وانها في كل حال لأهل لمشاركة زوجها، او خطيبها، او حبيبها،
او رفيقها، مسرات الاسفار، وحفر الآثار. اجل، هي اهل لان
تتمتع واياه بملذات الحياة في حفر قبور الاقدمين، وخصوصاً
في البلاد الشرقية، الغنية في روحها، وفي ما تحت ارضها.
واذا كانت القبور لا تستهوي هذه الامرأة الغازية، فهناك في

موضع

موضع التنقيب دار فسيحة جميلة تقيم فيها، وهي السيدة الآمرة
الناهية كأنها ملكة أور، او اميرة من اميرات آشور.
وكلمة اخرى هي ربة بيت البعثة المفروش باحدث انواع الاثاث
وافخرها، المجهز بالانوار الكهربائية وبالحمامات، الحافل بالكتب والصور
والرسوم. قلت بيت البعثة فاخطأت. ان لكل بعثة
من البعثات الكبيرة بيوتاً عديدة، فهذا بيت الادارة، وذاك [illegible] وهذا المخزن
للرسم والتصوير، والثالث للاعمال الكيماوية والميكانيكية،
والآخر بيت لسياراتها،
ات او البعثة، وذاك بيت خدامها،
وفلاعة بيوت الحيوانات الداجنة. تبعث هذه البعثات
والجامعات الاميركية الكبرى المحسنون، يهبها
من اموال الطائلة النفقات تنسحق
تنفق في سبيلها النفقات الطائلة من اموال يهبها المحسنون، فهل تستحق
او من وقفات يقفها المتمولون على العلم والثقافة. فهل تستحق ما ينفق فيها في
الاعمال الاثرية — والاثريون والاثريات — كل ما ينفق فيها في
هذا السبيل؟ ان لهذا السؤال جوابين، جواباً يتعلق بما
يحرز من العلم، والآخر عما يحرز من نفائس الآثار ونوادرها. لعدان لقرأ
للقارئ ان نجيب على السؤال من ناحيته،
بياناً عن الغزوات الاثرية في العراق.

لا اظن ان في العالم [illegible] بلاداً تتعدد فيها البعثات الاثرية
تعددها اليوم في [illegible] العراق. ولكن العلم بتاريخ البلاد القديم كان
يقتصر، منذ نحو عشر سنوات، على المملكتين الكلدانية والآشورية، وعاصمتيهما
بابل ونينوى. اما بعد ذلك، اي منذ سنة ١٩٢٢، عندما
باشرت البعثة الانكليزية الاميركية التنقيب في أور،
فقد فتح كنز من كنوز العلم جديد، وكنز آخر من الآثار العجيبة
والتحف الثمينة التي زادت بغناء المتاحف الانكليزية
والاميركية

والاميركية، وكانت الباكورة في تأسيس متحف صغير لبغداد.

اذن لقد اصبح علمنا بتاريخ بلاد الرافدين علمين، علماً بماضيها البعيد، وعلماً بماضيها الابعد. وما بال نينوى في القدم الى جانب ما تقدمها من المدن والدول؟ اني لأتخيل علماء آشور يتحدثون في زمانهم كما نتحدث نحن في زماننا عن ثقافة الكوثيين، وفتوحات العيلاميين، ومجد السومريين الاقدمين. وقد نكون ادركنا الاوليات في وصولنا الى اعماق أور ونوزي.

قد يجوز لنا ان نتساءل: وبعد أور ماذا؟ أومن هم اجداد السومريين؟ ومن اين استمد اهل أور نورهم - ومن اين استقوا معارفهم؟ ان الاثريين مستمرون في الحفر والتفتيش، في اعماق الارض، وفي القبور، طالبي العلم والنور. فهم يخترقون طبقة بعد طبقة من الارض، ويعثرون في كل مكان من بلاد الرافدين الصفرة، على مدن مدفونة تحت المقابر، وعلى تلال متهدمة تحت إساس الهياكل والقصور. لقد كشفت أور الكلدانيين، بابل ونينوى. وهناك غير أور من المدن القديمة المكتشفة، التي كانت مدفونة بعضها تحت بعض، منها أوروك ولرسا ولاكاش وإشنونا وكيش ونوزي وسلوقية، فلا عجب اذا اجتذب العراق الاثريين.

ان في البلاد اليوم ثلاث عشرة بعثة اثرية منها ست بعثات اميركية، وبعثتان اميركية وانكليزية مشتركتان، وبعثة المانية، واخرى طليانية، واخرى بريطانية، واخرى فرنسية، ولجنة مشتركة من الاميركيين والالمان. ففي الشمال تنقب الانكليز في نينوى، والاميركيون في خورسباد، وفي تل بلا وتبه غورا، وفي نوزي وكركوك. وفي وسط العراق في إشنونا وخفاجي وسلوقية، بعثات اميركية اخرى. وهناك لجنة مشتركة اميركية المانية في تيسفون، واخرى اميركية انكليزية في كيش. اما في الجنوب فالالمان ينقبون في الوركاء، والفرنسيون في كيش، والاميركيون والبريطانيون في أور. ثم جاء اخيراً الاثريون الطليان فأُعطوا امتيازاً للتنقيب في رحمان

فمكان يُدعى كيكشو على ضفة نهر الزاب الكبير. وقد كشفت هذه البعثة الطليانية مقبرة من عهد البرثيين(١)، ومدينة أقدم منها من عهد سنحاريب(٢).

ولكن أهم البعثات التي تنقب في الشمال هي البعثة الامريكية في دور شروكين التي تدعى اليوم خورسباد. فقد حفروا الى قلب التل الذي تُبنى عليه بيوت البعثة، وهم من ايوان بيتهم الجديد المنير بالكهرباء يطلون على غرفة العرش في قصر سرجون الثاني نفسه. وقد اهتدوا الى سور المدينة، ومدينة [illegible]

---

(١) البرثيون (Parthians) كما يسميهم الاوروبيون، وقد دامت دولتهم اربعمائة وخمسين سنة (٢٤٩ ق م - ٢٢٦ م) ونشأت اولاً في القسم الشمالي الغربي من ايران، وكانت حاضرتها الاولى في مقاطعة قومس، ثم نازعت السلوقيين السيطرة على ايران. ولكن البرثيين لا يعرفون بهذا الاسم في التواريخ العربية. فقد اسماهم العرب: أشكان او أشغان، وقالوا ان الاشكانيين من اسم ملكهم الاول أشك، و كانوا اعظم ملوك الطوائف الذين نبغوا في بلاد الفرس بعد الاسكندر.

(٢) سنحاريب هو الملك الذي غزا فلسطين وعاد منها مدحوراً. وهو المخرب الوحيد في العالم الذي استخدم الماء سلاحاً في حروبه. فقد حمل على بابل بعد غزوته الفلسطينية، فأخذ من الفرات خليجاً فسلطه على عاصمة الكلدانيين فخربها، وكان من الفاتحين!

خورسباد، التي بناها على ما يظن، الاسرى الاسرائيليون الذين
كانوا قد أجلوا في ذلك العهد عن فلسطين. وما اكتشفوا
شيئاً كثيراً من التماثيل الآشورية الشامخة السليمة والمحطمة
المصنوعة من انواع الرخام التي نشاهدها اليوم في
ابنية الموصل.
ولكن قيمة الآثار التي ناشد العلم ليست
بحجمها ولا زخرفها، وقد تكون ظاهراً قطعة صغيرة من
الفخار او المعدن، تشبهها معول احد العمال، او تبرز من
تحت محراث احد الفلاحين، مثال ذلك صفحة من الآجر
بقدر حجم اليد، عثر عليها في المكتبة بقار كرجون،
هي ذي اذن اهميتها
على وجهها كتابة مسمارية، وجد العالم الاختصاصي [illegible]
كان في تلك الكتابة جدولاً باسماء خمسة وتسعين
الأثيبر بالوجي [illegible] وما كان يعلم من قبل غير الف
ملكاً من ملوك آشور، اذن، سنصحح تاريخ آشور.
هذا العدد فمنهم هو عنبر الذي حكم في القرن التاسع
فكان اول ملوكها حسب ذلك السجل المسماري
قبل المسيح. اول ملوكها قبل ذلك الزمان بالف
الصغير جلس على العرش [illegible] سنتي الالف
وخمسمائة سنة، اي في منتصف
الثالثة قبل المسيح.
البعثة الاخيرة الاخرى التي تقوم
دا بطهران الذي يدعى اليوم تورتا الان
باعمالها في نوزي الكان [illegible] فقد اكتشفت عدداً كبيراً
من المخطوطات التي تبعث النور في تاريخ شعب
تشبث ما تقدم.
كان مجهولاً، هو الشعب الكوري، قرأ الاحصائيون

[illegible]

تلك المخطوطات فاذا فيها عن شؤون الحوريين وصلاتهم
بالشعوب الاخرى المعاصرة لهم، ما هو ذو قيمة اقتصادية وتاريخية
وجغرافية. والقيمة الجغرافية اكبرها، لانها اول اثر
لهذا العلم عند اولئك الاقدمين.
اجل قد اكتشف الاثريون في نوزي اقدم خارطة عرفها
العالم، هي خارطة رسمت على طابوقة من الطابوق المشوي، وظهر
فيها نهرا العراق الكبيرين، وقسم من جباله، وعدد
من مواقع المدن الشمالية القديمة. ومن شكل الهياكل
وقد استنتجوا من بعض تلك المخطوطات، وزعموا ان اباءهم
ان الحوريين كانوا يدينون بدين الاشوريين،
تساعد في ذلك تطور المدنية الاشورية. لبعثة اخرى
وقد تأيد هذا الزعم وتفند ذلك الاستنتاج
والفاضلية في
امريكية هي التي تنقب في اطلال نعيشة طبقة ما قبل
تلي بلاد وتبه غورا. فقد ادركوا في الحفر ٥٠٠٠ قبل المسيح
التاريخ، واكتشفوا دفائن يرجع عهدها الى . وقد قال مدير
وزعموا ان الوثنيين سكن هناك في العصر الحجري. هي ان
البعثة في خطبة القاها في بغداد ان الاهمية في ما اكتشفه كانت
مدنية السومريين في دولة اور الاولى (٢١٠٠ ق.م) كانت
منتشرة في بلاد الاشوريين. ولكن آشور بحسب الجدول
المسماري الذي تقدم ذكره، لم تكن موجودة في ذلك الزمان!
الله اعلم
اثري بابلي اثريا، وطالب العلم يلجأ مسرعا الى
ولكن اولئك الاثريين البابليين كانوا موفقين في
مكان آخر من هذا العراق، وذلك في سعيهم لاصلاح خطأ
يتعلق بمدينة سلوقية. فالبعثة الالمانية التي تشتغل
في طيسفون تقول ان ما ادعته سابقا، وهو ان سلوقية
كانت

كانت على الضفة اليمنى من نهر دجلة، هو خطأ، ثم نقول ان النهر غيّر
مجراه في ذلك المكان، فسيظل تل طيسفون شطرين، وان
عاصمة الدولة السلوقية كانت الى غربي سور المدينة، اي على ضفة
النهر اليسرى.

وهناك في المكان الواحد تزاحمت البعثات وتباينت الاغراض.
فبينما كانت البعثة الالمانية مكدّة في اصلاح غلطها، اي في نقل
سلوقية من ضفة النهر اليمنى الى ضفته اليسرى، كانت بعثة
جامعة ميشيغان الاميركية تحفر الطبقة بعد الطبقة من الارض
لتكتشف مدينة سومرية اسمها أكشاك.

وقد ظفرت كل بعثة بمبتغاها، وبالادلة على اثبات افتراضها:
فتلك التلال الصغيرة المتعددة في ذلك السهل الفسيح هي ما تبقّى من
المدينة الاغريقية الشرقية سلوقية. وتحت تلك التلال المدينة
السومرية أكشاك. هذا ما يبدو للاثري في المرحلة الاولى
من عمله. ثم يجيئك في المرحلة الثانية بالبرهان والدليل.
فالدليل ~~[illegible]~~ على كون تلك الكوم من التراب والحجارة هي ما تبقّى
من سلوقية هو في ما وجدوه من الحفريات، ومنها تماثيل من الخزف صغيرة
اغريقية الصنع والمغزى، واختام مختومة في الحُمر) ومكتوب عليها "الدائرة
السلوقية لضريبة الملح"، ونقود تحمل اسماء بعض ملوك سلوقية.
اذن هذه سلوقية ولا ريب فيها.

اما أكشاك فقد وجدوها في الطبقة الرابعة مدفونة
تحت سلوقية. والدليل على ذلك "سيّاران" من الحجر
منقوش في احدهما كلمات سومرية واسم ملك اكشاك ~~[illegible]~~.
اكشاك وسلوقية — سومر والاغريق! اجل، قد وجدوا
في بعض ما تبقى من حيطان البيوت آثار هندسية مختلطة تجمع بين اساليب
شرقية ويونانية. وبعضها انتقل بعدئذ الى الفرس الساسانيين
والعرب المسلمين. ولا تزال امثلة منها قائمة في ايوان
/ القصر

١٠

القصر بتيسفون وفي خرائب الحضر، انه لعلم جليل.
على ان البعثات الاثرية لا تعمل للعلم فقط، فهناك المتاحف
والجمعيات التي انتدبتها، وهناك تزاحم بينها وتفاخر، وهناك نفقات
لا بد مما يقابلها من الاكثر من التحف والآثار. لذلك لا تكتفي البعثة بكشف
قبر واحد او عشرة قبور، لا سيما اذا كان فيها آثار نفيسة، وان شاءت
فقد كشفوا في سلوقية مائتي قبر، وعثروا فيها على مائتين وخمسة
وستين شكل من الاواني الخزفية، وعلى خمسين شكل من القناديل
الدقيقة (الاشكانية) ناهيك بالتحف والحلى.
وما هذا بشيء اذا قوبل بما اكتشف في الجهة الجنوبية من
المقبرة الملكية الكبرى، اي في بلاد السومريين. هنالك البعثة الكبرى،
وهنالك الكنوز الاثرية، العفو. ينبغي ان اقول كانت هنالك،
وهي اليوم في المتحف البريطاني بلندن، وفي متحف جامعة بنسلفانيا
بفيلادلفيا في الولايات المتحدة. اما ما تراه ايها العراقي العزيز في
متحف بغداد فهو جزء صغير صغير منها، ان كان من الحلى او
وما أعجب ما تراه حتى في قسمة بلادك الضاري، ومن الاختام والتحف والمواعين
والجواهر، ومن الاواني الخزفية والتماثيل، وهناك اكليل الملكة
وهناك تكلة شبعاد السومرية ودبابيس شعرها. وهناك
شبعاد، واوراقه الشبيهة بورق الورد مصنوعة من الذهب، وقد
قلائدها، وفيها مائة حجر كبير وصغير من الياقوت واللازورد.
وجد في قبر هذه الملكة السومرية مع حليها وجواهرها، قارب من الفضة هو
ذكرى نزهاتها ولا ريب في نهر دجلة.
وماذا كان مدفونا مع صاحب الجلالة العظمى ملك الارض وبطلها الاكبر
مش كلام دوغ؟ كان الخوذة التي كان يلبسها الى الحرب لمن الذهب الابريز
وكذلك سنان الرماح والفؤوس سلاحه. وهناك خنجر من الذهب
نصابه من اللازورد، وقرابه من الذهب المسلسل الدقيق الصنع
وهاكم، يا غواة الموسيقى، قيثارة الملك المرصع صندوقها بالذهب
وحجارة اللازورد والياقوت. وان انفس واثمن ما اكتشف
في مقابر الملوك بأور الكلدانيين كبش من الذهب الخالص

[illegible]

صوغ من المعدن والحجارة الكريمة، وهو واقف عند جذع شجرة ذات
أغصان مثمرة، صيغت كلها من الذهب: الذهب! لقد
كان في ذلك الزمان، على ما يظهر، أنجس من الحديد. فصنعوا
منه حتى الخناجر وسنان الرماح!
أما الحلي المتنوعة صيغة وشكلاً، فكان في متحف بغداد
جزءاً صغيراً منها للتمتع به النظر سيدتي البغدادية. ولتعلم
سيدتي أن أختها السومرية، التي كانت تسرح شعرها أو تجلس للماشطة
في هذه الشمس بيننا، وعلى ضفة هذا الفرات وإيانا، منذ خمسة
الآف سنة، كانت تنام على سرير، وتجلس على كرسي، وتمد
خوانها على مائدة، وتفرش بيتها بالطنافس.
وذلك الذي بنى بيتها، ذلك المعماري السومري، هو الذي اخترع
القنطرة والعقد في البناء، وهو أول من استوحى شجرة النخل
فأوحت بالعمود إليه. فظهر العمود لأول مرة في قصور أور
وهياكلها!
ومما هو جدير بالذكر أن شرائع السومريين وصناعاتهم كانت
لمن جاءوا بعدهم مصابيح علم وهدى. فعندما اكتشف الأثريون
لنينوى، منذ خمسين سنة، قالوا ان شرائع موسى مأخوذة
من شرائع حمورابي(1). واليوم يقول لنا الأستاذ لينرد وولي
مدير لجنة أور ان شرائع حمورابي مستمدة من شرائع سومر،
ولم يكن في موضع مدينة لنينوى أثر للبناء يوم كان السومريون
قد وصلوا (٢١٠٠ ق.م) الى درجة عالية من العمران.
ولك ان تتساءل: الى اي حد من عمق الارض حفر الأثريون
ليدركوا هذا العلم كله؟ عندما وصلوا الى مدافن دولة أور الثالثة،
اي الأخيرة، استمروا في الحفر فاخترقوا خمس طبقات من الارض،
كل طبقة منها تمثل دوراً من ادوار التمدن بما اكتشف فيها
من الآثار التي تختلف عما اكتشف في الطبقة دونها.
وقد

(1) اطلب

الحاشية

(1) كان حمورابي يقدر المرأة في زمانه، فقد
[illegible] مزايا تختص بها فكان من حقها أن
تتعلم القراءة والكتابة، وان تبيع وتشتري
في السوق بحرية

وقد حفروا حتى تحت الطبقة الخامسة فوصلوا الى التراب
البكر اي الطين الراسب في ذلك الزمان على ضفتي النهر.
اما اكتشاف هذا فهو اهم من كل ما تقدم ذكره. ان المسافة
الحديد اليوم، بين البصرة وبغداد، محطة في اور، هي على مائة وعشرين ميلاً
من البصرة. والبصرة هي على ثلاثين ميلاً من خليج فارس. ولكن امواج
هذا الخليج كانت تتلاطم في ذلك الزمان تحت اسوار اور الكلدانيين،
فتكون مياه الخليج عادت القهقرى مائة وخمسين ميلاً في خلال خمسة
الاف سنة ونزيد، اي ثلاثة اميال كل مائة سنة. والحلزونة
تجتاز الثلاثة اميال — اذا تركها الانسان وشأنها — بشهر
واحد في الاكثر. ان حركة البحار، وهي تتقدم في البر او تتراجع
عنه، لأكثر بطأً حركة في العالم. وكيف
قيل ان اور كانت على البحر. والاصحاح يقال ان البحر كان عند اور
عرف الاثريون ذلك وتحققوه؟ عرفوه بالمطالعة، وتحققوه بالمعول والمسحاة. ولو كان
ولو لم يقرأوا في كتب اخصائهم ان في عهد الاحتلال البابلي لاور
في المدينة هيكلان لنبوخذنصر ونابونيدوس يدعيان "هيكلي
الميناء" لما عدوا واحدوهم الاثرية الى ما دونها — الى ما تحتها
واستمروا يحفرون حتى ادركوا طبقة سمكها
لعلماء الجيولوجيا — من رمال شاطئ الخليج!
ثلاثة اقدام، من رمال شاطئ الخليج العجيب الذي جاء ذكره
وها هنا اكتشفوا الاكتشاف الثالث العجيب من رجال
في ملحمة كلكميش. وما ملحمة كلكميش بذاتها اعجب من رجال
شاطئ الخليج. انما هي اعجب في ما تشير اليه بل في النبوءة التي
تحتويها.

جاء في تلك الملحمة: "ان الآلهة لغاضبون غضبة شديدة. وسيمحقون الجنس
الانساني. سيغرقونه اغراقاً في البحر." ولكن إنليل احد
الالهة حمل السر الى اوتانابشتيم، ذلك الرجل الصالح الساكن

/ ٣

الساكن في قرية شوروباك على الفرات، وأوحى اليه

بطريقة للنجاة، فبادر نابشتيم الى بناء سفينة

مثل فلك نوح. نابشتيم في ملحمة كلكميش:

ثم يقول

«وحملت في السفينة كل مالي -

كل حصاد الحياة جمعت في السفينة -

اسرتي واقاربي،

والحيوانات في الدور والمواشي في الحقول، والصناع والخدم

ادخلتهم السفينة جميعاً واقفلت الباب.

- - - -

وعصفت الرياح، وهاجت البحار،

ستة ايام وست ليالي،

طغت الاعاصير والمياه، وغلبت الارض وغمرتها.

ولما انبلج فجر اليوم السابع خفت صوت العاصفة،

وتقهقر البحر الذي كان يجارب كالجيش الفاتح، فتوقف الطوفان.

وسكن وجه اليم وسكنت الرياح،

ونظرت الى البحر فاذا هو هادئ كالنور،

ونظرت الى البشر فاذا هم كلهم كالوحل.

وبعد ذلك أطلق نابشتيم طيراً من الحمام، وترك سفينة

على رأس الجبل، وقدم ذبيحة للآلهة. وان في رمال الخليج دليلاً على

هذي قصة الطوفان السومرية. وهناك دليل آخر

ما جاء في ملحمة كلكميش، كما يقول الاستاذ وولي،

في الخزف المدفون الذي وجدوه تحت اكوام الرمال وفوقها

فمن يعرف الصلة والسبيل؟

ومن كلكميش الى كاتب سفر التكوين - هو نوح او هو غير نوح؟

نابشتيم أو نابشتيم هو نوح

من ذا الذي يستطيع ان يقول ان

او ان موسى قرأ ترجمة كلدانية لملحمة كلكميش؟

صفحها

الخميس

الثاني

ا/ما

اما ان لنوح آثاراً في هذه الديار فاهل الكوفة والنجف
اليوم يعرفون. وقد كان من حظ المؤلف ايضاً ان يعرف
بعضاً مما يعرف اهل الكوفة والنجف: ان في الصحن الفسيح
لمسجد الامام علي بالكوفة حوضاً جافاً، او مكاناً محفوفاً اذا ما
سأل الزائر عنه احد الكوفيين قال له: هو المكان الذي بنى
فيه سيدنا نوح عليه السلام فلكه قبل الطوفان. واذا ما زرت النجف
٢١ الغفاري؛ وكنت من المؤمنين الجعفريين، ودخلت الحضرة، فعليك ان
٢٢ تلقي هذا السلام: السلام عليك يا علي وعلى ضجيعيك آدم ونوح
اذن لقد صنع نوح فلكه هاهنا في الكوفة، ولقد دفن مع علي
والكوفة هي على النهر مثل اور في الماضي
في جوارها الملوك، فمنه انه جاءت
وقد كان موضعها [illegible] بين سومر وبابل، فمنه انبثقت ملحمة
هذه الاساطير: اساطير نوح والفلك، وما علاقتها بملحمة
كلكميش وقصة نابشتم؟ ان موضوعنا السؤال الخطر لا
يتسع لهذا البحث. فلنعد اذن الى اور: فقد اكتشف الانكليز في كيش،
وفي خفاجي، ما اثبت لبعض اكتشافات البعثة الكبرى. وفيها
تنوعت آثار الطبقات المختلفة، ان هناك، في كل مكان
وزمان، الرمز الاكبر، الرمز السومري الشامل، المجسم في الهيكل
وفي ما هو اجمل بناء في الهيكل، اي ذلك البناء الهرمي الذي
يدعى زقورة، [illegible]
وهو ان الزقورة [illegible] مدرج مؤلف من سبع طبقات
الطبقة السفلى اوسع مما فوقها، وما فوقها اكبر مما يعلوها
وهلم جرا، كما هو الـ"باغودا"(١) عند الهنود،

(١) هي للفظة باللغة الكلدانية العلو والزهو

وقد بنى احد ملوك سومر زقورة عظماء، طُليت جنباتها
العليا بالفضة والذهب.
كانت الزقورة معروفة في كل دولة من الدول السومرية
الثلاث، واسست كلها تحت الارض مسلسلة ودفنت [illegible]
الواحدة فوق الاخرى. فعندما وصل الاثريون الى زقورات
الدولة ~~الاولى~~ الثالثة، واستمروا في الحفر عثروا على بقايا
الدولة الثانية. وتحتها في الطبقة الثالثة
زقورات الدولة الاولى وتحلوها وهكذا كلها
لبث لهم اساس زقرات الدولة الاولى. ووجدنا حوضها
تلول تحت تلول، وقصور تحت قصور، ووجدنا مدن
تحت المدن وفوقها مقابر اختلطت عظامها
بعظام من دفنوا تحتها.

«ودفين فوق بقايا دفين في طويل الازمان والآباد،
خفف الوطأ ما اظن اديم الارض الا من هذه الاجساد»

[illegible]

السومريون شعب مختلط اجتمع فيه العنصران
الآري والسامي. وقيل انهم آريون الاصل جاءوا
من الشرق وتوطنوا جنوب العراق في سنيّ الالف
الرابعة قبل المسيح، ثم جاء الأكاديون — ~~اهـ~~
العقاديون ؟ — الساميون من الشمال، فتغلبوا
على السومريين في عهد الدولة الثالثة فأسسوا
الدولة العقادية وجعلوا حاضرتها مدينة لاغاش.
وبعد ذلك جاء شعب من الجبال القريبة من أور، شعب متغلب
فاتح، هو الشعب العيلامي الآري، فأسس مملكة

مملكة في ~~وسط~~ قلب العراق، عاصمتها إشنونا او
اشنوناك، على مسافة عشرين ميلاً شرقي بغداد في
المكان الذي يدعى اليوم تل عُمر، وفي تل عمر لبعثة امريكية موفقة في حفرياتها
وغنائمها. اما الحفريات فقد اضاءت شيئاً من تاريخ
تلك الناحية، منذ سقوط الدولة الثالثة الاورية
الى سقوط إشنونا، وليس في هذه الدولة غير ملك واحد من الملوك الفاتحة
هو كيريكي الذي [illegible] عيلام باسمه اشنونا واستولى
على ما يليها، فقد حاول
على أور. اما ابنه الذي تولى الملك بعده فقد حاول
ان يبسط سيادة عيلام على البلاد السومرية كلها، فصدّه
عن ذلك الحمورابيون الساميون الذين زحفوا على
بابل من لسان الشرقي، وكانوا في ذلك العهد من
الغزاة الصائلين المتغلبين. فحمل عليهم
[illegible] ~~[illegible]~~ كيريكي وما كان موفقاً في
عيلام حملته، فعقد وإياهم صلحاً غريباً فريداً في بابه الغزاة
قال بيلالاما ابن الملك كيريكي الى اولئك الغزاة بشرط
لا بأس من ان تغزوا في البلاد
الحمورابيين: لكم الغنائم ولنا الارض. فلا عجب اذا كان
واحد قصداً في العراق. فقد دخلوا
عهد اشنونا في حوزة الملك الاشوري السامي
(٢٠٢٥-٢٠٢٠ ق م) من عهدهم من الشعوب
الى ١٧٦٧ سقوط
الاكبر حمورابي اي حين
وفي هذا العهد من التاريخ
الدولة

الدولة الآشورية الثالثة (٢٧٠ – ٢٠٥ ق.م) الى ان دخلت
اشنونا في الدولة البابلية الكبرى، تطورت عيلام
تطوراً جديداً في حياتها الاجتماعية والصناعية. فقد
كشف الاثريون الاجنبيون مخطوطات في القصر
تدل على ان اشنونا كانت على اتصال في تجارتها بما بين
الوسطى والادنى في صناعتها وحياتها الاجتماعية اثراً للمدنية
الهندية [illegible]. اذن النفوذ الهندي في العراق
يرجع الى القرن الواحد والعشرين قبل المسيح
ولكنه ضئيل بالنسبة الى النفوذ السومري
والعقاديين والعموريين
فان الشعوب السامية كلها - العقاديين والعموريين
والآشوريين - اخذوا عن السومريين دينهم وبعض اساليبهم في البناء
وطقوسهم وشرائعهم وكانوا اعلى
في الاول مقام [illegible] كما اشتقت البابليون
وكثيراً من شرائعهم كما اقتبسوا منهم انواعهم يستعملونها
الاجيال مقلدين لهم. ومما هو جدير بالذكر ايضاً ان الاسماء التي كان البابليون
[illegible] للعهد القديم [illegible]
الناس في ذلك العهد القديم [illegible] القناديل المصنوعة من الحجر
والآشوري. هناك قطع: على شكل الاصداف البحرية
والصفر والفضة والذهب والفضة ومخطوطات
الحجر والصفر والقوارير من الذهب الغلاف [illegible]
وسنان من الزجاج والقوارير مكتوبة على الغلاف من النحاس الابيض
من الآجر مغلفة بالخزف والمواعين من النحاس
صاحبها او موضوع ما تحتويه، في سوق النحاسين
المطرقة الشبيه بما نراه اليوم مدهونة بالدهان
[illegible] وما نشير من الجص وجدت في كيش
بغداد (٢٠٠ ق.م)
الاسود [illegible] فاضل

ومناجل واسياخ واوتاد، واواني خزفية وجرة مزينة
بالرسوم، وجفان من الحجر الصوان، واكواب من اللازورد،
ولوحات للالعاب مطعمة بالصدف، — واعجب من ذلك كله
قطع من العظم مكعبة، ومنقطة بالدهان الاسود، هي حجارة
النرد. فاذكروا ذلك يا من تريدون ان تقضوا على القمار في
العالم: ان عمر "الزهر" خمسة الاف سنة!

هذي هي قصة البعثات الاثرية من الناحية العلمية والتاريخية
وهناك ناحية اخرى ذكرتها عرضا في مطلع هذا الفصل، ولا يجوز ان اختمه
دون ان اعود اليها. فمن حق اهل العراق ان يعلموا بمصير آثار بلادهم
القديمة. وعلى حكومة العراق تشجيع فتقدم على العمل الذي فيه صيانة
هذه الآثار، وحفظ حقوق البلاد في البعثات الاثرية.
كان الالمان ينقبون في اوروك، اي الوركاء، واكتشفوا مخازن
هيكل "إي آنا" العظيم، ووجدوا فيها كثيرا من نفائس التحف والآثار
المنقطعة النظير في الاكتشافات العراقية. فاعلمت البعثة القنصل الالماني
ببغداد، فسارع الى الوركاء. وماذا حدث بعد ذلك؟ لقد حدث ما
يحدث دائما في اعمال البعثات كلها. اني انقل للقارئ ما يلي من كتاب رسمي
ارسله امين المتحف الى وزير المعارف، وقد كتب في اعلى الكتاب:
سري مستعجل:

في ٢١ ك١ سنة ١٩٢٢

اخبرني من اثق به بان قد زار موقع الوركاء الاثري في ١٢ و١٤
ك١ سنة ١٩٢٢ احد كبار رجال المفوضية الالمانية الذي قيل عنه
لعمال البعثة انه القنصل الالماني، وغادره في ١٥ منه.
وكانت سيارة هذا الشخص — على ما اطلعني المخبر المومى
اليه — فارغة عندما عبرت النهر الى جهة الوركاء،
وحاملة عددا من الصناديق الخشبية عندما اجتازت
النهر بواسطة قوارب العبرة في طريقها الى بغداد.

ان السياسي، في هذا الامر، لكالأثري - انهما صنوان.

وهناك طرق اخرى تمكن البعثات من السرقات. فالبعثة ترسل
قسمتها من الآثار في صناديق الى البصرة، فتخزن هناك في مخازن
شركات البواخر التي تنقلها الى خارج العراق، بدل ان تبقى في مخازن
الجمرك الى يوم سفر الباخرة. وفي اثناء وجودها في مخازن الشركة،
يتمكن احد اعضاء البعثة من فتحها واضافة ما يريد اليها.

ولقد اضطربت مديرية الجمارك لما تعدد من الاشاعات والاحتجاجات
على البعثات الاثرية، فطلبت ان تفحص الصناديق قبل ان تشحن.
وقد كتب مدير مخازن البصرة الى مديرية الآثار ينبهها الى ما يبعثه
من الريبة ابقاء صناديق الآثار في مخازن الشركات حتى وصول الباخرة
وألح في وجوب فتحها وفحصها، عل فيها ما لا يجوز اخراجه من العراق.
سمعت مديرية الآثار كل ذلك، ووضعته في اضابيرها. ذلك
لان المدير اجنبي - الماني - وهو يرى ان الآثار في اوروبه، وفي امريكه،
وخصوصاً في المانيه، هي احفظ واسلم واكثر فائدة منها في بغداد.
وهم يتذرعون لفعل ذلك. هم يستعيرون كل نفيس، وكل
نادر من الآثار ليدرسوه، ويصوروه، ويعرضوه، او ليصلحوه
اذا كان مكسوراً، او لينشروا رسمه ويكتبوا عنه في المجلات
الاثرية. وبعد ذلك يعيدونه، اذا كان من قسمة العراق،
الى متحف بغداد.

هل يعيدون ما يستعيرون؟ لقد فحص امين المتحف
قوائم القسمة لمجموع ما استخرجته بعثة اور الانكليزية الامريكية،
منذ سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٢، فوجد ان ثلاثة الاف أثر
ونيف من الآثار التي تضمنتها تلك القوائم لا تزال مجهولة المصير.
فكم يكون يا ترى عدد الآثار المجهولة المصير عندما يكشف ما اخذته
البعثات الاخرى؟

رجب

يجب على المدير (مادة ٢٢ من قانون الآثار) "ان يختار من بين
الأشياء المكتشفة ما يراه لازمًا لإكمال المتحف العراقي من الوجهة العلمية"
وان يخصص بعد ذلك "للذي أُعطي رخصة التنقيب عددًا كافيًا من
العاديات مكافأةً له عن اتعابه بصورة عادلة".
ولكن ولي القسمة مدير اجنبي، وليس للوطني امين المتحف ما يقول،
وان احتج واعترض وشكا، فليس لوزارة المعارف، ما زالت المفوضيات الاجنبية
تهتم للبعثات الاثرية اهتمامها لمصالح بلادها التجارية والاقتصادية في العراق،
ليس لوزارة المعارف ما تقول. أليس توقيف اعمال البعثات خيرًا من
ما الحيلة وما التدبير؟ أليس توقيف اعمال البعثات خيرًا من
استمرارها في هذه الحال؟ وهلا تستطيع الحكومة ان توقف الاعمال
الأثرية كلها الى ان يظهر في البلاد اخصائيون وطنيون؟ أوليس ذلك
افضل من ان تذهب الآثار الى المتاحف الاوروبية والاميركية؟

ان الحالة الحاضرة لحالة محزنة. فان كانت تنقصنا العلوم التقنية
والاختصاصية، ونحن في حاجة اليها، فعلينا ان ندفع ثمنها مهما كان.
وترانا ندفع ان كان في العراق، او في سورية، او في فلسطين، اثمانًا
باهظة: هذا المدير الالماني ببغداد يتقاضى من الحكومة مشاهرة مائة وخمسين
دينارًا، ويمهد للبعثات سبيلها الغير علمي، والغير قانوني،
والغير ادبي؛ وهذا امين المتحف الملتهب غيرة على وطنه، وعلى آثار بلاده،
القائم بأعمال المتحف الداخلية كلها براتب لا يتجاوز الثلاثين دينارًا.
ان الاستاذ عبد الرزاق لطفي لوطني من اصدق الوطنيين ومن اشدهم غيرة
على صالح وطنه. وانه عالم عامل مجتهد، وقلما ارتقى في الماضي من كاتب
نفوس في القرية الى طالب علم بلندن، يستطيع ان يستمر في طلب
العلم الذي يميل اليه، وتخصص له، فيصبح اهلًا للمنصب الذي يشغله
اليوم عالم الماني. استغفر الله. قد يكون اليوم اهلًا للمديرية.
وفي كل حال خير للعراق ان تتوقف اعمال البعثات كلها
وان ترسل الحكومة العراقية في اثناء ذلك بعض الطلبة لدرس علم الآ
الآثار / وفي

وفي كل حال ان العراق لا يخسر اذا توقفت اعمال البعثات
الاثرية ريثما ترسل الحكومة العراقية بعض الطلبة لدرس
علم الآثار في اوروبه او اميركه.
بل خير للبلاد ان تبقى آثارها مدفونة
من ان "تطير" الى اوروبه واميركه.

قلب العراق

١٦٣ - ٤١٢

القسم الثالث

النهضة في الوانها وظلالها

الفصل الاول

خطبة بين كرسيين

—

لجنة الاستقبال - الجماهير المحتشدة - الخيالة تفتح الطريق -
الهول الساكت - لجة من البدو والحضر - نوري السعيد
في اللجة - ابهة الماضي ودمقراطية اليوم - رئيس الوزراء
والصدر الاعظم - الرئيس يدعونا لخوض اللجة - الزحام
والتدافع والتضاغط - اين شهرة الفيلسوف، واين عظمة
الوزير؟ - انفتح الباب - السيل الجارف - صيحات
من بين الارجل - ضغطة القبر - الاعجوبة! -
النجاة - جماهير لنوري وجماهير لبغداد - الحدث
العظيم - الصوت العجيب - من بغداد الى الواق
الواق - الراديو يوجه الاول - الخطبة
العربية الاولى - الاوليات في النهضة العراقية -
صحف المعارضة تنتقد الخطبة وتقرع الخطيب -
هل تغير شيء في العراق؟

—

من المألوف في آداب الحفلات الخطابية ان الجمعية او الجماعة المقيمة الحفلة تعين لجنة مؤلفة من ثلاثة او اثنين او واحد فقط لتستقبل الخطيب وترافقه الى قاعة الخطابة. هذا ما عرفته والفته كخطيب في الغرب

العرب وفي هذا الشرق العربي:
أما في بغداد، يوم افتتاح المعرض الزراعي (٧ نيسان
١٩٢٣) فقد كان الاستقبال هائلاً، وكنت أنا الخطيب
الفريد المنقطع النظير في العالم، كذلك. وقد كنت الغريق
في لجج من الناس، أحاول أن أسمعهم غير ما جاءوا يسمعون،
أحاول أن أسمعهم شيئاً من الآيات والزفرات التي كانت
تخرج متقطعة من تحت أضلعي: خطيب الحفلة
ذاك النهار
هاكم القصة. كنت في [illegible] لأخوض من الزحام
الأولى في المعرض، فجئت قبل الوقت المعين لتنقذني، وناظمين
الذي وقفت فيه. فإن لجنة الاستقبال هي هذه اللجة
سلامة الحفلة التي أنا خطيبها، اللجنة هي وفي الساحة أمام المدخل
من الناس المحتشدين في الشارع، وما هي على شيء
الوحيد الى الجهة المعرض هي لجنة هائلة،
من لطف الاستقبال، أو من حسن المجاملة. فقد رأيت
وما كان الذنب ذنبي في خصوص عبائها. وأخرى من الخيالة
عندما وصلت ثلة من الشرطة تعاطب الجماهير، وتحفظ النظام،
تشد بها لتفتح الطريق الى المدخل
ورأيت تلك الجماهير من المدن ومن العشائر - من حضر
وأكراد - يتزاحمون ويتدافعون ويتصايحون ويخطون،
وبينهم النساء المحجبات والسافرات (يهوديات ومسيحيات) وهن
بين تلك اللجج كالأزهار في الأعصار.
ومن أعجب ما شاهدت في احتشاد الناس أن
الجماهير العراقية غير صخابة. فهي تتموج ساكتة
هادئة

هادئة، وتتضاغط وتتدافع بشدة وبطء دون
ان يسمع لها صوت او انين، كأنها قطع من الجماد
تحركها يد جبارة خفية. وكانت في تلك الساعة
تدفعها دفعاً بطيئاً عنيفاً قاهراً نحو بوابة
موصدة يحرسها شرطيان لا غير.

وقفت مترددا في الطريق التي فتحتها الخيالة
وما آنست من رفيقي شجاعة على الاقدام. وبين
نحن كذلك دهشت الدهشة الثانية، الدهشة
الكبرى. فقد رأيت على حاشية اللجة نوري باشا
السعيد رئيس الوزارة في تلك الايام، فلفت اليه نظر
الرفيق، فاستبشر وقال: لنتبع الباشا ولا خوف علينا.
عجبت لصروف الزمان. فقد اعاد الى ذهني هذا
الوزير الرئيس مشهداً من مشاهد الدولة العثمانية في
الاستانة. وكان هناك احتشاد اقوام، وابهة
ملك، وازدحام، وكانت الخيالة تخترق اللجج البشرية
وتدفع بها يمنة ويسرى، دون ان تبالي بما تفعله
سنابك الخيل، لتفتح الطريق لعربة الصدر الاعظم
السائرة في موكب فخم الى الباب العالي. لله در
صروف الدهر وتقلب الزمان.
ليس العراق وان استقل ودخل في عصبة الامم بالدولة
العثمانية. ولكنه ذو سيادة وبرلمان ودستور، والصدر

والصدر الاعظم فيه شخصية بارزة، وقوة في البلاد نافذة. وهو
مع ذلك يحضر الاجتماعات العمومية غالباً وحده دون مرافق عسكري
او مدني. ان نوري السعيد لمن اخلص الوزراء في
روح الديمقراطية الوادعة. وانه اصغرهم سناً واكثرهم
اقداماً، واغناهم بما عنده من بشاشة، وسكينة
فتراه، والسيكارة في فمه والسبحة بيده، طلق المحيا،
هادئ البال على الدوام! قلت في نفسي: ولا
عندما اشار رفيقي بان نتبعه، فان السبحة بيده،
بأس على من يمشي في ظل حاكم البلاد، لتفعل ما لا تفعله فرق من الشرطة
اذا ما ادركنا بها، وقد رأى
واحرى من الجند. فاذا نوري كان، كأنه
توكلنا على الله واقتحمنا ان افسحوا.
برفع يده، ويومئ بالسبحة والبسمة اذ ذاك مصدّرين
ندعونا الى طوق من التصفيق. فاسرعنا، وتوارينا
ارواحنا، وما عتمنا ان صرنا في ظله فعبرنا اللجة،
واياه فيها: ثقلاً وراءنا وصلابة امامنا، فوقفنا
وكانت تزداد نكاد نفقد النفس — نخص
متراصّين متلاصقين لما سمعنا
بالهواء. ولولا صرخات لبعض النساء تحت الاحذية
بالحشد صوتاً غير ذاك الذي يخرج من المتشددين
عندما يستحيل المشي [illegible] على المتشددين
فيزحفون زحفاً.

/الحي

وكان الوزير الأكبر أمامنا ساكتاً
في ضغطة القبر.
هادئاً مثل غيره من الناس. وما احد على ما اظن عرفه
غيرنا. الا انه كان يحاول ان يصل الى مكان يرى منه
الشرطي فيأمره بفتح الباب. وليس فيها أقاصم فيه
خبرت الجماهير في المدن الكبرى، ولكني ما احسست
والمساء في ارتال نيويورك.
جماهير الصباح في جماهير
مثل الهول المجسم الساحقة الواجمة.
مرة هناك الهادئة الساكتة
بغداد، تلك الجماهير واصبحت ولا ارى من
وكنت قد أضعت رفيقي،
نوري باشا حتى صدارته. فوددت في تلك الساعة لو ان
ايش
احداً عرفني فآنسني ولو بابتسامة.
اين عظمتك ايها الوزير؟
شهرتك الآن ايها الفيلسوف؟ مثل سائر الناس
أنضغط ونختنق وننسحق.
ولا احد يقول: فه.
ولا احد يصيح: المدد! اراه بعيني
فها هو ذا المدد
سبحانك اللهم. سبحته.
فاليد المرتفعة يد نوري، والسبحة فرآه الشرطي
وكان قد دنا من المحجة، وما كاد يفتح الباب ذلك
فأومأ اليه ان افتح الباب.
حتى شدّة بالناس. فطفقوا يندفعون كالسيل الجارف
فيهبطون من أعلى الدرج الى أسفله وينثنين ويتدحرجن الى ارض
المعرض. وكانت

وكانت اللجة تخف امامنا وتزداد شدة وراءنا.
فقذفنا متعثرين متقاذفين. وكنت احس وانا في هذه
الحال بكوع يغرس في جنبي، وبآخر لبدوي،
عملاق، يلوي عنقي. فلحت فناوها، وضاعت
صيحتي بين صيحات اخرى عميقة، كأنها كانت
تصعد من تحت الارض، وهي في الحقيقة صاعدة من بين
ارجل الهائجين المتغيرين؛ وانني
اما انا فما كدت اخرج بدنوي من بوابة الحديد و
فقد دفعت
كوع البدوي، حتى تراءى لي شبح الموت
الى البوابة، وضغطت هناك ضغطة القبر،
بعنف
فعلقت يدي بين قضبان الحديد، وسمعت
صوتاً في كتفي كصوت عظم تتكسر، فاغمي عليَّ وأيقنت:
خيّل الي انها ساقضي بقية حياتي بيد واحدة. ولكنه
سبحانه وتعالى تداركني برحمته فتخلصت من قبضة
فاذا انا
طائحاً فوق الدرجات
الحديد، وهويت
بين ذراعي رئيس الوزراء. وكان قد وقف هناك
ينتظرني، فعانقته بكلتا يدي وانا احمد الله على
السلامة
وعلى المحنة التي فيها فقد السلامة العلم والشجاعة، فارسا
فقد اصبحت بعد نجاتي من تلك الغمرة ببغداد،
مغوداً لا تروعني الجماهير، ولا تتأكدني الزحمات.

ز فاحونه

فأخوض عبابها كأنها حوضة ماء في جنينة غناء. لينفضني
بيديه المتحجرتين ذلك العلج الواقف في باب القطار
في النفق بنيويورك، وليقذف بي الى داخل
القطار، وليضغطني ويرصني فوق من
ضغطوا ورصوا، وليقفل ورائنا باب
الحديد، فيجيء كالمكبس على بالة القطن ليقفل
كل ذلك فلست ابالي. قد خضت عباب الجماهير
العربية ببغداد، واصبحت ذا مناعة بدوية.
وقد شاهدت وخبرت اباطيل الشهرة والسيادة،
اباطيل العبقرية والعظمة في مثل تلك الغمرات. فما
رئيس الوزراء، وما الفيلسوف الخطيب، اذا لم يكن ذا
احساس بليد، ونشاط عنيد، واعصاب من حديد،
فيكون في الغمرة جزءًا منها، جزءًا متحركًا
متكلمًا متقدمًا مستهترًا.
وما كانت الكربة بعد الخطبة افضل من الكربة
التي تقدمتها، الا انها من نوع آخر. ولكن بين الكربتين
برهة سعيدة احب ان اشرك القارئ بها. ولا
حرج في الحديث، وان كنت موضوعه، لانه يتناول ما
هو اكبر من حالة حائلة وشخصية زائلة. كيف
لا والحدث منقطع النظير في تاريخ العراق قديمًا
وحديثًا

وحوشيا. كيف لا، والخطيب - دعني ادري ولو مرة
واحدة خير خاطب - كان اول من وقف ذلك
الموقف في قطر من الاقطار العربية، وحسبي ان انوه بصوته
العجيب. فما كان كزئير الاسد ولا كقصف الرعد،
بل كان منخفضا ناعما هادئا. وقد جاز مع ذلك
الآفاق، وسُمع حتى في بلاد الواق الواق.
عفواً، قارئي. لست محدثك بالالغاز - فقد ملأ
الراديو الارض على حداثة عهده، وانسى ذكره [illegible]
مستنزلا. سيدان للتاريخ حقا يرعى. فان استعمال
الراديو للمرة الاولى في اقدم بلدان العالم - في ارض
الرافدين - لجدير بالذكر والاعتبار.
فقد صاحت الآلة - أذن الاذاعة ولسانها - من
بغداد للمرة الاولى في السبع خلون من شهر نيسان من
السنة الثانية والثلاثين ومائة والف مسيحية، وكان
الريحاني اول من وقف امامها بالخطابة. وكان الانسان
الخطيب وماكينة صوته في احسن حال، تمدهما السماء
بروحها الكهربائية المخططة. وكانت الاسلاك ممتدة
من الجهاز الى مكبرات موزعة في ارض المعرض،
فخطب الخطيب في جمع امامه يُرى، وجموع في جواره
لا تُرى.

وهكذا /

وهنالك وراء الآفاق في قواعد ألوية العراق، وفي ما دون العراق غربا وشمالا وشرقا – في سوريه وفلسطين ومصر وفي انقره وطهران – يسمع صوت الخطيب الواقف على المنبر ببغداد. اجل قد طارت كلماته على اجنحة الاثير لتحدث باعجوبة هذا الزمان، وباعاجيب جرى في تاريخ العراق الحديث، فسمعها المؤمنون والمشككون، وهم يبتسمون ويكبرون، يسمعونها لاول مرة في حياتهم باللغة العربية، وسيذكرونها مدى الحياة. سيذكرون ولا ريب الحديث القاطع، وسيذكرون ان شاء الله اسم صاحب الخطبة، وسيذكرون كذلك بفصاحة ما اشاد به من مظاهر النهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، وبعض ما اشار اليه من اوليات هذه النهضة المباركة. ورأس الاوليات المعرض الزراعي الاقتصادي فما رأت ارض الرافدين، منذ عهد السومريين الى عهد الاتراك، معرضا مثله. ومن الاوليات في كل ازمنة التاريخ القديم والحديث حكومة العراق النيابية، وملك العراق الدستوري، ومدارس العراق العامة. وسيذكرون تسمع الخطيب انه دعا العرب للاتحاد، ودعا زعماء الاقطار العربية للتفاهم والتعاون. وانه اثنى على الملك فيصل الذي ساس العراق بالحزم والحكمة، فاجتاز بفضله المرحلة الاولى من مراحل الاستقلال

الاستقلال الوطني والسيادة القومية. قد يذكرون
كل ذلك او بعضه. وقد لا يذكرون شيئا من الخطابة غير
انها هبطت عليهم (1) مثل الوحي من عالم الغيب. اذا
اذن لوحي منزل. استغفر الله. ليس فيها شيء
عجيب غير انها تسمعت في وقت واحد في سائر المدن
الكبرى في الشرق العربي. الا ان الخطيب اجاد كما
يقال كل الاجادة. اما الذي اعرفه في مواقفه الخطابية
كلها اقول ذلك: [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وهذا القول لا ريب فيه. لا يخا الخطيب
مع ذلك فانجب الخطيب من صحافة بغداد
او بالحري من صحافة المعارضة. فقد تناولت الخطابة، بل تناولتها
بمخالب النقد، ومزقتها اربا اربا. ثم عرقت عنها
العظم، وتلمظت بالمرارة. وقد قال احد كتبة
المعارضة ان الخطيب من الثرثارين. وقال آخر انه
يتزلف من الملك وانه من المستوزرين. وغمس آخر
قلمه في دواة التهكم والظرف وخط الآية: ان
الخطيب لمن ذوي الآذان الطويلة. وشخص
آخر مرضه فقال انه مصاب بداء التفاخر فاستنجد

(1) لذلك تنشرها في الملحق لهذا الكتاب

فاستنتجت من كل ذلك ان المعارضة، اي الحزب المعارض
للحكومة والانكليز، لا تزال حية ترزق، وانها تعارض
مبدئيًا على طول الخط، ولا تبالي بما يقال في مواقفها،
ولِمَ المبالاة، ووظيفة المعارضة، كما يقول السياسيون، هي
هي ان تعارض. الا ان في بغداد ثلاثة لا تتغير هي
الغبار والوحل والساسة.
وقد عجب ارباب السياسة لما في خطبه من السطحيات،
فكيف فات الجوهر الخطيب؟ ماذا دهاه؟ فهمي او
تعامي؟ أما كان بامكانه ان يرى حتى في نظرة سطحية،
الحقائق البارزة؟ فالانكليز لا يزالون في العراق، وما تحسنت
اقتصاديات البلاد، وما تحررت الادارات من المستشارين،
وما، وما.. هي المعارضة، وارتاح. فقد نصبت مدافعها[1] بين ادغال
الصحافة، ووراء أكمات الاحزاب، وشرعت تطلقها في كل
ناحية، من الطرف الايمن في افق الحكومة الى الطرف
الايسر، من القصر على شاطئ الكرخ الى القصر على شاطئ
الرصافة — على المندوب، على الملك، على الوزارة، على
البرلمان، حتى على المعرض لانه من اعمال الحكومة!
فلا عجب اذا اصابني رشاش من مدافعها، وانا انتقل
من مكان الى مكان في مرامي الجبهة،
مستكشفاً - يا للحماقة! -

(1) انظر في الملحق ترجمة المقال الانكليزي الذي كتبه المؤلف
في تطور العراق.

الفصل الثاني

ضعف المعارضة

آفات بغداد الثلاث – الارث السياسي – تلون
السياسي والشاعر – العقلية السردابية –
روح المعارضة – الاضراب في سنة ١٩٢١ – قانون رسوم
البلديات – الاضطرابات في حلة وبعقوبة – الاضراب
يتحول الى حركة وطنية – بغداد مقفلة –
موقف المعارضة – الحملة على وزير الداخلية
وعلى الحكومة – اسقطوا الوزارة – اضربوا اسبوعاً
اضربوا اسبوعين برحيل الملك – لحم البلدية لا
يشتريه الفقراء – لعرض محاباً – يرمى في دجلة –
التحقيق في وطنية البغداديين – حرم نقص الوزراء
سافرات – الحكومة الكافرة – وجهة وزير
لا يلعب الـ"بريدج" – اساليب المعارضة
الانقلابات مطايا الاحزاب – فضيحة كاتب
يثير حفيظة الصابئة – استغلال العاطفة –
السياسة المكيافيلية – ~~حسنها~~ – تطورها –
خيبة المشاغبين.

ما اشرت في الفصل السابق الى آفات بغداد الثلاث
حبا بالاغراب والابداع في الانشاء. انما هي الحقيقة تتجمع في بعض
الاحاسيس الشوارد والمتناقضات، فاذا هي شرع في سببها
او في نتائجها، فان اول الآفات البغدادية هي عاصفة التراب

التراب (او ما يدعى هناك "القاطرة") في الربيع، وثانيها
الوحل في الشتاء، وثالثها في كل فصول السنة السياسيون.
اما الآفتين الاولى والثانية فلا تنفرد بغداد بهما،
وقد لا تكون فيها كغيرها من المدن. كان في اسواق باريس في
الشتاء مثلاً تتكون صفحة رقيقة من الوحل الزحق اللزج
الذي يتحول تحت الارجل الى مزلقات، فهي اذ ذاك اكرب
من بغداد. وان ضباب لندن في الخريف، ذلك الضباب
القاتم الكثيف المشبّف المسممي، والمفعم بالروائح الكبريتية
هو افظع من «قاطرة» بغداد التي لا رائحة لها ولا تسد عليك
السبيل. اما سياسي بغداد فلا اظنك تجد له ضريبًا
في الشرق او في الغرب. كان في عقليته مزيجًا من الغبار
والوحل والكبريت، ولكن قلبه مضمّخ بالطيب
والرماد
ولسانه لسان خطيب.
اجل، ان ارث السياسي البغدادي لارث مركب فيه شيء من
العناصر النفسية والعقلية والبيانية. فيستطيع لذلك
ان يكون شفافًا او كثيفًا، دقيقًا او غليظًا، فوقيًا او
موازيًا، لطيفًا او خشنًا، صريحًا او مجمجمًا. ان في عروقه (١)
العربية آثارًا من الدم الفارسي والتركي والكردي والتتري،
فهو يصلي بالعربية، ويفتكر بالتركية، ويستشعر بالفارسية
وقد بدأ يرى الاشياء بعين انكليزية. هو دمقراطي
اللسان، اوتوقراطي العقل، ثيوقراطي القلب (٢)
والمجموع ميّال، بعد الاتكال على الله، الى الاستبداد.

---

(١) راجع صفحة   من هذا الكتاب.
(٢) (اقلب)

(٢) دمقراطي مركبة من لفظتين اغريقيتين ديموس (demos)
شعب وكراتيو (krateo) حكم — حكم الشعب.
وعلى هذا القياس اوتوقراطي: اوتوس (autos) الذات —
الفرد، وكراتيو الحكم، اي الحكم الفردي. وتيوقراطي:
تيوس (Theos) الله، اي الحكم الالهي. وقد توسعوا بمعنى
هذه الالفاظ المركبة فصارت تشمل الاخلاق والسلوك.
وبما ان اللفظة الاولى، دمقراطي، اي شعبي الحكم وشعبي الاخلاق،
أدخلت في اللغة العربية واصبحت مألوفة معروفة، فلا ارى
بأساً في ادخال اللفظتين الاخريين وهما من المصدر
الواحد والقياس الواحد.

"انما العاجز من لا يستبد".
فالشاعر والسياسي من هذا القبيل متفقان. والشعراء
يتلونون مثل السياسيين. وهناك طائفة من اصحاب القوافي رأوا
يسلكوا يوماً مسلك المستبد، ولوماً عكسه.
ابي عمر بن ابي ربيعة ويكفي ان نشير الى سيدهم
انما في عجزهم كانوا غير صادقين.
المتنبي الذي طأطأ الرأس بل تشكك "لابي المسك"
فأطراه — "ومن مثل كافور؟" ثم هجاه هجاءً منكراً.

"ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحداد البواكيا"

وتكلم على "مشفره" و"رجليه". فانما في بغداد
واذا ازعج سياسي بغداد الحكومة والانكليز
من الشعراء والكتاب من يحسنون التلون كالمتنبي،
فيقولون حيناً: من مثل الزعيم؟ وحيناً:
"لا ينجز الميعاد في يومه" والى ما قال في امسيه".
ومن الممدوحين والمذمومين من يتعرضون كالمداحين
والهجائين، لملك البلاد، صراحة او ضمناً، بالاساليب المريبة،
فيروون في المقاهي والانديه اخباراً عنه معيبة، ثم
يردفونها بقولهم انها كذب وبهتان، وهم لا يصدقونها. ولكم
ملكيون والله — وهم جمهوريون — وهم أُمّعيون!
لله من اولئك السياسيين، ومن فصاحتهم ومن لطفهم
ومن مجونهم واحكامهم ومن اساليبهم في الطعن والاغتياب!
وما اكثرهم ببغداد. فانهم فيها لكالرهابين في لبنان، ولا
غفر فتنهم. كم مرة وقفت في سراديب عقولهم السياسية!
كم

كم مرة تغلغلت بعقلي وقلبي فيهم لافهم اقوالهم وادرك
افكارهم ومقاصدهم، وامتز بين الاوهام والحقائق في مزاعمهم.
وكم مرة أصغيت ساكتا صابرا للاحاديث الطويلة
لا تحقق ما فيها من شكوى، من علم، من عقيدة. وكم مرة
اوقفني محدثي وانا اتبعه صاغيا متنبها، كم مرة اوقفني
بغتة في جادة ملتوية مظلمة، ليؤكد لي انها ليست
بجادته او جادة حزبه، بل هي جادة الحكومة والانكليز.

— اني اطلعتك يا استاذ، على حقائق هذه المسالك
الملتوية المظلمة.

هل يليق بي الشك وانا في مجلسه من اولي صداقته،
واكد لي انه يمشي اياما ويتكلم اياما وليالي في خدمتي، لينير ذهني
ليطلعني على حقائق الدولة واسرارها، ولولا وطني وادبي
ويغنيني في التحقيق والتدقيق، لما كان يمشي خطوة، او
يفوه بكلمة. لا والله. وهل يليق بي الريب في قوله،
اما انه كان في حديثه لي يخدم كذلك نفسه، من حيث لا
يدري او من حيث لا يظن اني ادري، فذلك امر لا ريب فيه،
الا انه لا يمدح نفسه. كلا. ولكنه يرهقك بالحديث
ويعيبك بالسير في سراديب السياسة لينهمك انه
اخلص سياسي العراق وطنية، وابعدهم نظرا، واسدهم
رأيا، واصدقهم واصرحهم قولا. هذا السياسي المدرب المجرب
اللطيف الشريف، سنيا كان او شيعيا، او كرديا
او مسيحيا، قد يكون اليوم من اساطين المعارضة
ويعلم الله ما قد يكون غدا في الحكومة.

[illegible]

الدول. اما بعد ذلك فقد اصطدم الشعب بالشرطة وتضاربوا
شتى مرات، واضطرب حبل الامن في العاصمة، وقتل في
الناصرية اثنان. وما خلا ذلك فقد ظهرت الحكومة
وظهر المضربون في مظهر من الثبات والسكينة يذكر فيشكر
وظلت بغداد مقفلة عشرة ايام ثم بدت في بعض نواحيها
امارات السأم والوهن، فاصدرت الحكومة بلاغا بالبلاغ
افتتحته بـ "حيث ان الالحاح المستمر على بعض الاشخاص
المعروفين بحسن النية والعقيدة بلزوم الامتناع عن فتح حوانيتهم او
مزاولة اشغالهم قد سبب ضنكا للاهالي الخ."
وتنذر بعقوبة الحبس والغرامة كل من يروع او يحاول
ان يروع احدا عن فتح الحانوت او استئناف عمله، وكل
من ينشر اخبارا كاذبة بقصد التدخل بالحرية العامة."
كان الملك فيصل يومئذ في اوروبا ومعه رئيس الوزراء
نوري باشا السعيد. فعاد نوري الى بغداد في اواسط تموز
عندما كان الاضراب آخذا بالتلاشي، واول ما عمله ان استعان
بالمادة الثالثة من قانون رسوم البلديات، فالغى بعض الضرائب
واصدر بلاغا جامعا بين الشدة واللين، فتمكن من خلال ثلاثة
ايام من اقناع الناس بلزوم العودة الى اشغالهم. اما البصرة
متمردة، فلجأ الى العنف، فالقى القبض على بعض زعمائه،
الاضراب، وابعدوا، فعاد الامن الى نصابه، والنظام الى مجاريه.
وما الحد الذي جناه الشعب من ذلك الاضراب؟
ان ما اسقطه رئيس الوزارة من الضرائب كان اسقاطه ممكنا
بموجب المادة الثالثة من القانون (قبل الاضراب) ولنا ان
نتساءل

نسأل سؤالاً آخر: من هم الذين انتفعوا من ذلك الإضراب؟
قد شاء بعض السياسيين خارج الحكومة أن يخرجوا بعض السياسيين
فيها ليتبوأوا كراسيهم. وقد شاءت المعارضة، في
غياب الملك ورئيس الوزارة، أن تزعج الحكومة وتضعف
جانبها.
لقد أجملت فأخلص: كان وزير الداخلية يومئذ من
زعماء المعارضة، فتنكب مستوزراً، وفاز بأمنيته فصار
وزيراً في الوزارة السعيدية. هو إذن خائن لحزبه،
وحق للحزب أن يطلب رأسه - أن يذبحه سياسياً.
وكان أهل العاصمة يومئذ من أعداء وزير الداخلية، وما كان نائب
فساعد المعارضين لينالوا أغراضهم منه. فتزعموا
الملك بالرحيل الذي يخشى جانبه فخلا لهم الجو
الإضراب، وكانوا في سلطته ونقمته مفلحين - طمعوا برأس
(فطمعوا بغير رأس وزير من الوزراء)
الحكومة نفسها في بغداد، أن تستمر أسبوعاً تستعفي
قال الزعماء للمضربين: تسقط الوزارة، وأن
وإن تستمر عشرة أيام
البلدية. وإن تستمر أسبوعين يرحل الملك.
نسي المضربون غرضهم الأول من الإضراب، نسوا أحكامهم التي
كانت تتعلق بتخفيض الضرائب. نسوها وصاروا وطنيين
ثائرين، يبتغون قلب الحكومة. وكانت المعارضة تغذيهم
بالكلمات الحماسية والمناورات السياسية.
أسلفت القول أن الحكومة أوعزت إلى البلديات

بديع

بذبح الأغنام وبيع لحومها. فرحبت بلدية بغداد بتجارة
جديدة كاسبة. وما ادركت شيئاً مما دُبّر لكسبها
ولا احست به. ذبحت. وما باعت في اليوم الاول، ولا في اليوم
الثاني. خفضت الاسعار وما رغب الناس باللحم. فعرضته
بأسعار خاسرة فظل الناس
راغبين عنه. فقدمته البلدية مجاناً
وكان حر تموز يفعل فعله باللحم
للناس، فما اقبلوا عليه. كان اهل بغداد اضحوا جميعاً
(من المتقشفين)
من مذهب الهندوس - من فساد اللحم
فاشفقت البلدية على الصحة العامة
فالقته في نهر دجلة!
فرمته اصوات الوطنيين بالهتاف والتمجيد:
اذاً علت اصوات ... عن المغرضين! اشهدوا
خذوا المثل الاعلى في الجهاد الوطني عن ... ومحافظتهم
بهؤلاء المتفانين في حب وطنهم، انهم ... المطالبة
على النظام لكن خير الشعوب المتمدنة الناهضة، وروحانيتهم العالية
وكلنهم في وطنيتهم الصافية، حرمان ما تعودوه
بخنوعهم الشرقية التي حببت اليهم
ونزعتهم حتى اهل الهند. وان للمؤلف
يفوقون ... ولاء ذلك الحرمان، على شيء كذلك من العلم
ان الله اعلم علم ما كان
لحسن حظ القارئ الطالب الحقيقة، هي ان اهل بغداد رفضوا
فالحقيقة العارية في لحم البلدية، لان رجال المعارضة، وهم يرون
ان يشتروه، او يقبلوه مجاناً، الاشاعوا
حقاً كل ما يساعد في مقاومة الحكومة والاكلية
/ الله

الله من فرج الازمة!
هو اذن للمسلمين منحس، وما هو كابشرى
وهل يجرؤ المسيحي، خصوصاً في ايام الاضراب،
لليهود. ان يدنوا مما تنبذه اليهود والمسلمون؟
اذن، الى دجلة باللحم! وليحيى الوطنيون.
وليحيى المضربون! وليسقط جان بول الملعون!
هي السياسة - سياسة المعارضة. وقد اشاعت
ايضاً ان حرم بعض الوزراء سيبذن الحجاب، ويخرجن
سافرات (وما عرفت غير امرأة وزير واحد، كان يومئذ
المعارضة تخرج سافرة) الكفار
وقد قررت الحكومة الكافرة المذعنة لارادة الكفار
الانكليز ان تجبي من الضرائب كل مسلم يسمح لحرمه بالسفور.
الى دجلة بهذه الحكومة! الشبان الشبان ايها المضربون.
بعد اسبوع سقطت الوزارة، وبعد اسبوعين الملك
نفسه يشد للرحيل!... - -
سمعت في احدى دور الاعتماد ببغداد هذه القصة:
كان احد القناصل يدعو صديقاً له من الوزراء للعشاء ولعب
الـ"بريدج" في بيته. وكان الوزير يعتذر دائماً
لاوقات لسوء الحظ - حسبنا الشرف والسرور - الاشغال
كثيرة. سقطت الوزارة واجتمع القنصل بالصديق الوزير
السابق فخاطبه قائلاً: "ان وقتكم في هذه الايام يسمح ولا
شك"

182

شك بسهرة للعب "البريدج" في الحفل." فرفع الوزير يديه مجيبًا: "ان الاشتغال في هذه الايام اكثر والله واهم. فقد دخلنا في حزب المعارضة."

وهناك غيرهم من يعتقدون ان لذة السياسة بالتنقل، وهؤلاء هم جاهلون ان تكتم اسرار حزبها فكيف تستطيع المعارضة او تموه حيلها فتخفى على الحكومة. ومع ذلك هي مفزعة الحكومة، فقد طالما روعتها، وافسدت ظنونها وتدابيرها، على انها عاملة مناوئة، وصارت تتخيلها في كل مكان "لتستغل" كما تقول وكما يقال، ابدًا متيقظة متأهبة، لتعرقل اعمالها، لتفسد الموقف كلها، لتشوه سمعة الحكومة، خططها، لتسقط وتسحق رجالها، ان في موقف الاثنتين شيئًا من المبالغة والوهم. فالحكومة تبالغ لسوء الظن والخوف، والمعارضة تبالغ بتقدير قواها، ومبالغة فيه هواها تتخذ شتى المسالك من الاساليب والمآرب لاغراضها. ومن القويمة وغير القويمة، الشريفة وغير الشريفة، ومنها ما يثير الامثال، هذه ما يضحك، وقد اعطيتك الامثال، عندما تنسخ الوحي واذا الاشمئزاز، فهي لا تتورع من اتخاذ حتى الاحتيالات، مطية لمآربها. مثال ذلك ما حدث يوم كانت اقتضى الامر، عاصمة الامم تبحث مؤهلات العراق لعضويتها، كتب احد الادباء العراقيين السيد عبد الرزاق الحسني مقالًا في مجلة مصرية عن الصابئة. وقد جاء في المقال ان المرأة الصابئية اذا ما اعتدى رجل عليها ~~[illegible]~~ ترخي له كرشتها خلال الاعتداء دون مقاومة او احتجاج. وكل ما تفعله هو ان تقبض على شيء قربها، حجرًا كان او خشبة او عشبًا

ذ. ك

هي تهمة فظيعة،
ذلك، فستشهر على طلب عرضها.
وان كان بالامكان اثباتها، هي تهمة فظيعة تثير الحفائظ
في اي بلد كان. فهي في البلاد العربية تستثير القبائل
فتسفك الدماء دفاعا عن العرض. وهي حتى في بلاد
الغرب حيث تكثر في هذا الزمان الاباحات، جريمة لا
تغتفر. ثار ثائر الصابئة في العراق. فقاموا
فلا عجب اذا ~~[illegible]~~ فاعتصموا
يطلبون رأس الحسني عبد الرزاق. ولكن
ببغداد نشر اعتذاره في جريدة من الجرائد اليومية.
عما كتب ونشر فان بعض الناس غاروا على
الامر مع ذلك ما انتهى. على انفسهم فراحوا
شرف الصابئة الذين عدة الصابئة
يحرضونهم على المطالبة بالعقوبة. عمت جنوب البصرة
غضبت الطائفة غضبة شديدة فتحدة الاول نفسه،
تخطى العراق لا تجاوز القشرة
جمعاء، وهي في العراق حتى الموصل، الى بغداد
فجاء رؤساء الجنوب الى من العمارة
جاءوا يطلبون مقابلة الملك، فقابلهم
مساكين غاضبين. وامر بان ينظر
وطيب خاطرهم ثم احالهم الى العدلية
في قضيتهم سريعا. كان الملك فيصل رحمه الله يخترق
وكانت الحكومة، كما اسلفت
الاستار لما يرى او يظن. فاشيع
القول تتخيل المعارضة في كل مكان.
باسترضاء الصابئة، الصغير الهادئ
وما استرضاء هذا الشعب
الشاق. ولا استهواءه واستفزازه،
الورع بالامر فقد

والعيب في العامل
فقد كان بين عاملين الصفح والشرف . فاعتزم الرؤساء اقامة
الثاني الاهواء والاغراء . فاعتزم الرؤساء اقامة
الدعوى على الكاتب يطلبون الاثبات . فحركت العدلية
جبينها ، وعادت الى المجابة فستشرحها . فقرئت
بما قرأت : لا يكفي لأنه باجمعها ان تقيم دعوى
واحدة على شخص ما . بل يجب على كل فرد من تلك الامة
ان يقيم تلك الدعوى باسمه منفردا ! تقدموا ايها المعمدانيون الاتقياء !
انه لموقف الاستغلال العظيم ! كان اربعة او خمسة
الاف دعوة تقام على كاتب في دولة صغيرة كالعراق ،
لتهلك جنودها الارض فتخدم مصلحة الاحزاب المعارضة
للحكومة . فهل تفادي الصائبة بوقتهم واموالهم وسعاداتهم ؟
اذن ليست العدلية وحدها ! اذن لتشغل القضية
الوزارة الداخلية . وقد امر الوزير ان يتخذ
اسرع التدابير لارضاء الصائبة . فأحال المسألة
الى متصرف لواء بغداد مشفوعة بالامر العالي .
اقف بك هاهنا لاطلعك على كتاب المتصرف المكتوب على
الآلة الكاتبة — امامي نسخة منه — الى وزير الداخلية . وقد
كتب في أعلى الكتاب ، سري مستعجل . انك لتدرك بعد اطلاعك عليه ان سعادة
المتصرف كان يوما من حزب المعارضة ، وانه درس علم
اللولبيات القانونية والادارية على استاذ ماهر .

الى /

الى وزارة الداخلية

بالاشارة الى حاشيتيكم المرقمتين ٤٤٥٧ و
٤٤٥٦ والمؤرختين ٢٦ / ٢ / ١٩٢٢ على مضبطة
الصابئة، والحاقاً بكتابنا المرقم ٤٢٧٧ والمورخ ٢١/٢/١٩٢٢
لقد احضرنا رؤساء الصابئة الى هذا المقام في يوم الاربعاء
المصادف ٢٢ مارت سنة ١٩٢٢ وكلمناهم في عدم وجود اي
مسلك قانوني يستلزم محاكمة السيد عبد الرزاق الحسني
لحسن نيته في ما كتبه عنهم واعتذاره عن ذلك في جريدة
العراق وصدور المجلة في القاهرة. ثم اننا اطلعناهم في يوم
الخميس على الكتب التاريخية القديمة التي استند اليها
الكاتب في بحثه عنهم فأمنوا لعدم وجود سوء نية عند
الكاتب، واكدوا لنا ان ما كتبه الاقدمون عنهم لا
يتفق والحقيقة، واخيراً اتفقوا على ان يجلبوا كتابهم الخاص المقدس
في ديوان هذه المتصرفية في يوم الاثنين ٢٩ الجاري
وان يترجمه بطارقة الملل الاخرى الى اللغة العربية. فاذا ظهر ان ما
ذكره الاقدمون صحيحاً ومطابقاً لما ورد في هذا الكتاب
المقدس فهم يتنازلون عن شكواهم. والا اي اذا ظهر
تفاوت بين كتابة الاقدمين وكتابة الحسني وبين ما جاء
في كتابهم المقدس فانهم يكتفون بتكذيب يصدره هذه المتصرفية
وينشره في مجلة الهلال المصرية التي نشر فيها مقال الكاتب
ونخبركم بما تم في هذا الصدد.

متصرف لواء بغداد

هو ذا سياسي عراقي متخرج من المدرسة التركية
المكياڤلية. وهل يستطيع احد ارباب هذه المدرسة ان
يخرج من هذا المأزق بأحسن من هذا الاسلوب؟
هاتوا كتابكم الخطي المقدس - وليترجمه بطارقة الملل
الاخرى الى اللغة العربية! فاذا جاء رؤساء الطائفة
بالكتاب - فهل يجيء البطارقة؟ واذا جاءوا فهل يترجمون؟
واذا ترجموا فهل يحسنون؟ واذا احسنوا فهل يتفقون؟
واذا اتفقوا فهل يصدق رؤساء الطائفة انهم
احسنوا الترجمة وحرفوا الديانة فيها؟ احسن. اما
اولئك الرؤساء فكأنهم رضوا باعتذار الاستاذ
الذين كانوا يأملون ان يستغلوا قضية احدى
الاقليات، ليشوهوا سمعة العراق في جنيف،
فيستخدمون القضية ويحولوا دون دخوله في عصبة الامم، فقد
احفق مسعاهم.

الفصل الثالث

قوة المعارضة

—

تذبذب الحكومة البريطانية – الحكومة العراقية مع المعارضة –
مسلك المعارضة القويم – الغاء الانتداب – استئناف
الجهاد – المعاهدة والملحق وذيل الملحق – قصة البدوي
وجمله – ما احسن المعاهدة لولا المعلق بذنبها – حديث
السر فرنسيس همفريس – القوة الجوية البريطانية –
مطار الهنيدي – ميناء البصرة – سكك الحديد –
ما نفهمه اهل العراق – الشاعر الزهاوي يلقي قصيدة –
الربيع والاستقلال – نظر المعارضة في المعاهدة –
ياسين باشا الهاشمي –
مواصلات العراق في الحرب – الاحتلال العسكري –
تسخير العراق – تجديد المعاهدة – ميناء البصرة
والسكك الحديدية والادارة الانكليز – موقف المعارضة
المتبع – سمعة الانكليز – الخوف والحذر – الاحتلال
الثاني للعراق – الاعضاء العراقيون في مجلسي ادارة
المرفأ والسكة – اعباء العراق – جنيف
الحذابة المقيدة – لماذا رغبت الحكومة البريطانية
بالغاء الانتداب – قيود عصبة الامم – الاحتلالات
والضمانات – الاجانب في العراق.

[illegible]

—

كانت الحكومة البريطانية تخبط خبط عشواء في سياستها
العراقية خلال السنوات العشر التي تقدمت المعاهدة الاخيرة.
وكانت تزيد بموقفها غموضا وارتباكا، وهي تحاول ان تخفي
رغبتها

رغبتها وخبرتها، في ما اتخذته من شتى الاساليب والخطط،
حينا متعسفة وحينا متساهلة، لغرضها المنشود.
فعقدت المعاهدات الواحدة بعد الاخرى، وهي تظن ان
في كل واحدة منها الحل النهائي لمشاكل البريطانية
العراقية كلها.

فقد كان موقفها خلال هذه المدة
اما الحكومة العراقية فكانت سياستها تارة حزبية وطورا
موقف المطالب المساوم، بل يجوز ان نقول ان
وطنية، حينا سلبية وحينا ايجابية. كان ضمنا في
موقفها في الغالب، على اختلاف وزاراتها العشر،
الاول موقف المعارضة. فاما اذعنت مرة للحكومة البريطانية
في اعرض الامور بجوهره، قبل ان اعدت العدة لتجديد المقاومة،
وهي تستكشف موقف المعارضة لتتشفع به، ومكابرة اخرى
كانت تستعين بخصومها الوطنيين على خصومها الانكليز.
احيانا في المقاومات الشديدة فقد كان يضطر رئيس الوزارة ان
يستعفي كما فعل جعفر قبلا في سنة ١٩٢٧ والسعدون
في سنة ١٩٢٩

ولا بد من القول ان المعارضة - الرسمية -
غير الحكومية - كانت على الاجمال تعمل بمعنى اللفظة
الحرفي. اي انها كانت تعارض مبدأيا على طول الخط. ولا
تزال كذلك في اكثر [الاحيان] تضعف في المناورات السياسية،
والمهرجانات الوطنية كما بينا في الفصل السابق،
وتتزن فتصلب فتمضي جانبها في المواقف الوطنية الخطيرة.
ومن ذلك مسلكها القويم الشريف في ثلاث
مسائل جوهرية، فقد حاربت الانتداب، ورفضت كل
معاهدة عقدت في عهد الانتداب، وقاومت كل المحاولات
لتأسيس حكومة من المستشارين والموظفين البريطانيين
والانتداب

الرجحان هي ازن قوة سلبية

تنكسف الحجابيه الحكومة
بانتداب او بغير انتداب ـ
العراقية . في هذه السلبية كانت المعارضه ذات
فضل جم . وقد اشتركت والحكومة بعمل واحد ايجابي،
هو السعي لدخول العراق في عصبة الامم . فاذا حصرنا النظر
في هذه الامور توجب علينا ان نقول انها سديدة الخطة
شريفة النزعة، قولاً وعملاً . وانها من هذا القبيل في
مستوى واحد والمعارضات السياسية في الحكومة الديمقراطية
او في غيرها من الحكومات المنظمة الراقية .
ميدان المعارضة العراقية لا انظر بالعين الواحدة الى تطور
العراق، وعقليته الحاضرة . فهناك حزب يسقط من
اهمية هذا التطور، وحزب لا يرى فيه شيئاً مهماً او نافعاً .
وما اهمية العضوية في عصبة الامم، وما الفائدة منها؟ اني
لا اشارك المعارضة في هذا السؤال . ولكني اذكرها ان ما احد
من المعارضين او من الحكوميين حسب دخول العراق في عصبة
الامم خطوة كبيرة مهمة . وان كانت كذلك فهي خطوة
لغرض اكبر واهم، هو الغاء الانتداب .
وقد أُلغي الانتداب، وحلت محله معاهدة لخمس وعشرين سنة،
ولا تزال المعارضة . وهي تحسب نفسها في بداية
والمعارضة لا تزال تحتج . ١٩٢٠ ما هو شبيه
الجهاد مرة ثانية، لانها ترى في معاهدة سنة . فقط يقول ان
بالانتداب بل شر منه . فالذي يقرأ المعاهدة
المعارضة متعنتة متعسفة . ولكنه بعد ان يقرأ الملحق يرى
في موقفها ما يبرر الخوف والارتياب والحذر .
وثمة ذيل للملحق هو من الاهمية بمكان . قرأت
الوثائق الثلاث قراءة المتعلم علماً جديداً، فذكرتني بقصة

البدري

البدوي وجمله

نُكب بدوي نكبة شديدة فاستجار بالله، ثم استجار، ثم قال: الله! أجرني، ربي! لبعت جملي بريال. ولعدة أيام انكشفت كربة البدوي، ففكر في ما قال، فكربته كربة أخرى. فكيف يبيع جمله، وهو زين الجمال، بريال واحد؟ ثم راح إلى الإمام يعرض له الأمر ويستشيره. فأطرق الإمام، ثم أزاح عمته ومسح جبينه، وقال: «إن الله سبحانه وتعالى يريد خلاصك وخلاصه حملك عن يدي. فاسمع وعِ.» فسمع البدوي مستبشرًا، وجاء بهر فربطه بذنب الجمل، ونزل به إلى السوق ينادي: الجمل بريال، والهر بألف، ومن يبيع الاثنين ... فقال الناس مدهوشين متعجبين: ما أحسن هذا الجمل حقًا! وما أرخصه لولا ذاك المعلق بذنبه!

وإن هي ذنب المعاهدة هرّان بدل الهر الواحد: الملحق وذاك المعلق لذنب الملحق. وما هما؟ أي الملحق وذاك المعلق لذنب الملحق، من بنات فكر عائث، ولا هما بدعة من بدع الشروع والخيال. إنما هما جزءان كريمان سويان مكملان للمعاهدة(١)، ولا يستحيل تفسيرهما والدفاع عنهما. فالمندوب السامي الأخير والسفير الأول في العراق(٢) السر فرنسس همفريس هو واحد أبوي المعاهدة، فحقيق به الشرح والتفسير:

قال السر فرنسس يحدث المؤلف: «إننا نرحب بالانتقاد العادل وبالموازرة، ولا نريد أن نكون دائمًا مستشارين. بل نرغب بالشورة والنصيحة لخير العراق وخيرنا، فنحن السياسة في السبيل التي يجب علينا نحن والعراقيين أن

---

(١) المادة السادسة: يعتبر ملحق هذه المعاهدة جزءًا لا يتجزأ منها.

(٢) بعد عقد المعاهدة تحولت دار الانتداب إلى سفارة وصار المندوب السامي السفير البريطاني الأول ببغداد.

ان يجتازها معاً. اما المعارضة فهي مفيدة متى كان رائدها
العقل والنزاهة، وغرضها البناء لا التدمير. ولكنها في معارضة
المعاهدة بعيدة على ما يظهر عن الانصاف. خذ مثلك القوة
الجوية: نحن نريدها في العراق لسببين، الاول هو مساعدة
العراق داخلاً، في قمع الفتن مثلاً، والثاني هو مشاركة العراق
في الدفاع عن حدوده. وسنساعده في انشاء وتنظيم دائرة الطيران
فيصير لديه بعد خمسة سنوات قوة جوية عراقية. الهنيدي
هي اليوم لنا، وستصبح بعد خمس سنوات للعراق. سنعطيه اياها
بخسارة ثلث قيمتها الاصلية. اما الدفاع عن حدود العراق
اذا اعتدي عليه من الجهة الشمالية مثلاً، فهو اهم من ما عدتناله
في شؤونه الداخلية. وان وجود القوات البريطانية الجوية
في العراق لازم لذلك. فمن اصعب الامور
انها تنقل جيشاً بعدته الكاملة من البصرة الى داخل البلاد
ثم الى الحدود الشمالية، هي طريقة قديمة وبطيئة وكثيرة
النفقات. اما مركز الطيران موجود، فيمكننا ان نجلب
القوات اللازمة للدفاع بوقت قصير - بالطيارات -
من مصر او من لندن."

قلت: "هل ~~وجود~~ القوات الجوية البريطانية
في العراق لخير العراق فقط؟"

قال: "كلا. الفائدة مشتركة متبادلة. والا فما
معنى العقد - ما معنى المعاهدة؟ قلت ان وجود قواتنا الجوية
في العراق هو لسببين. فينبغي ان اصحح ذلك. انما هو
لثلاثة اسباب. وما السبب الثالث على ان اقل اهمية منه
السببين الآخرين. فالقوات الجوية البريطانية في العراق لراحة
للتأمين

لتأمين خط المواصلات الامبراطورية." (١)

ثم تطرقنا في الحديث الى ميناء البصرة والسكك الحديدية،

فقال السر فرنسيس:

"هي مسألة تجارية، محض تجارية. وقد تساهلنا في التسوية الاخيرة تساهلاً يذكر. قبلنا [struck] بالميناء ما حددته المعارضة اي ان يكون ملك الحكومة العراقية مباشرة وان يكون الثمن اثنين وسبعين لك روبية (٤٨٠٠٠٠ ليرة الذهبية) ثم جعلنا الفائدة ١/١٠٠ غير مركبة لعشرين سنة. وبعمل هذا التساهل تسوت مسألة السكك الحديدية التي اصبحت ملكاً لحكومة العراق. اما مجلسي الادارة لشركة الميناء وشركة السكة فقد جعلنا كلاً منهما مؤلفاً من خمسة اعضاء اثنين عراقيين، اثنين بريطانيين ورئيس تعينه الحكومتان بالاتفاق بينهما. الا اننا طلبنا لاسباب عملية تقنية، ان يكون مدير السكك الحديدية الحاضر وهو كالدين الرئيس الاول لمدة خمس سنوات. ولكان من العدل - ونحن الدائنون - لو طلبنا ان يكون مديرا المجلسين من الانكليز لمدة الدين كلها. ولكننا تساهلنا حبا بالاتفاق والتعاون. فليس بالمعارضة ان تقدر ولو بعض التقدير هذا التساهل منا. ولما كنا متساهلين لولا املنا بمستقبل العراق، وثقتنا بحكومته واهله."

اما الحكومة مهما كان لونها الحزبي فان تقدر السفير لها مبررة. واما اهل العراق فهم لا يبالون بما يقوله [struck] السفراء والوزراء، وقلما يفهمونه. فاذا ما انشقوا فهم لا ينشقون لمن يضعون المعاهدات انشقاقهم لمن يصوغون القوافي. وان قصيدة حماسية لتهزهم وتستفزهم اكثر من معاهدة سياسية، جلية في عدلها ومنافعها.

(١) الكلب

/اما

(1) أُنشئت سكة الحديد في أثناء الحرب العظمى لاغراض
عسكرية، وتحولت في سنة ١٩٢٠ الى الادارة المدنية
لحكومة الاحتلال فخسرت في ادارتها ثلاث سنوات
خسارة جسيمة ثم .... وانتقلت ادارتها
في سنة ١٩٢٢ الى الحكومة العراقية

(1) أُنشئت سكة الحديد وهي بعرباتها وموادها قديمة، في أثناء
الحرب العظمى، لاغراض عسكرية. وانتقلت ادارتها في سنة
١٩٢٠ الى حكومة الاحتلال، فتولت اعمالها ثلاث سنوات
بخسارة جسيمة، فسلمت لحكومة العراق في سنة
١٩٢٢ بعد ان ثمنها الاختصاصيون باربعمائة وثمانية
وخمسين لك روبية. ثم تم الاتفاق على بيعها بمائتين
وخمسة وسبعين لكًا، وكانت الحكومة العراقية قد قرضتها
بضعة قروض خلال المدة التي تولت ادارتها.

اما ميناء البصرة فهو الميناء الحديث الذي يبعد نحو اربعة
اميال عن المدينة، وقد بُني مثل سكة الحديد لاغراض
حربية. فانتقلت ادارته الى حكومة الانتداب، ثم الى
الحكومة العراقية، او بالحرى الى الوزارة المالية وقتيًا،
وهي التي ~~كا~~ تولت ادارته وكانت مسؤولة عنها.

"اما العراق فحاله دون التقدم حائلُ
حق له استقلاله فنريده ونحاولُ"

الكلمات للزهاوي، والصوت صوته، تعالى في تلك الحفلة الإستاجيه في العرض، فهدد وصلصل، فضج المكان بالهتاف والتصفيق. والشاعر الزهاوي المقعد المسن انما هو روح متوهجة تستطيع ان تقذف بنارها في صدور الناس، فتهيج وتبهج وتعمي

اني اذكره وهو جالس على كرسي على منصة الخطابة، امام آلة الراديو، يتلو قصيدة موضوعها الربيع. ولكن الموضوع مهما كان لا يحول دون مكان للعراق فيه. ان الزهاوي لسيد موضوعه. فهذا ما وصل في تمجيد الربيع الى العراق – ولا ندري كيف وصل – تأججت تلك النار في صدره، و[illegible] فتهيج به، فاستوى على رجليه، ورفع الى السماء رأسه ويديه، وهو يردد بالصوت الجلجل:

"حق له استقلاله فنريده ونحاولُ"

فاهتزت الآلة وكادت تقع الى الارض.

ثم عاد يتدرج الى سكينة الربيع وجلاله، وحاول اثناء ذلك ان يجلس، دون ان يدرك ان الكرسي ساعة وقف انزاح من مكانه، فهوى الى الارض بضجة [illegible]، فسارعنا اليه لنعينه، فوقف هادئاً كأن لم يكن شيئاً، ثم صاح بأعلى صوته مردداً بيتي القصيد:

"اما العراق فحاله دون التقدم حائلُ
حق له استقلاله فنريده ونحاولُ"

[illegible]

وعد "يحاول" فطاولت السماء. فأذكى بها جنة
الناس. [illegible]
وقد كان لهذا الحادث معناه الرمزي الذي تمثل
فان تعثر العراق
بعثرة الشاعر، فما خفي عليهم.
ويسقط مرارا، وهو "يحاول"، فهو يقف حالا
ويمشي، مستمرا في المحاولة. ادرك الشعب ذلك
فازدادت ثقته تأججا. وقد كان ما فكان الشاعر في مقدمة الساعة
ان تعوده [illegible] الى ساحة القتال. هو ذا الهول البشري،
الشعبي - هو ذا الدهماء هو ذا السواد - الذي تعوّل
عليه الاحزاب السياسية في المعارك الحزبية والوطنية.
أفليس من العجب ان لا تفوز المعارضة فوزا باهرا في كل مواقفها؟
اما موقفها تجاه المعاهدة الاخيرة - موضوعنا الاكبر -
فهو وطيد منيع. وان لها في الرد على السر فرنسيس همفريس
حججا دامغة، وآراء سديدة، يشرحها منه جانب الى جانب
في المجلس النيابي وخارج المجلس، زعيم المعارضة الاكبر ياسين
باشا الهاشمي. واني ملخص للقارئ بعضها:
لو وقعت الحرب بين انكلترة والهند مثلا، او بينها
وبين تركيه او ايران، فالعراق ينقاد اليها، اذ عليه ان
يساعد "حليفته" بريطانيه العظمى، عملا بالمادة الرابعة،
فيقدم لها "في الاراضي العراقية جميع ما في وسعه
ان يقدمه من التسهيلات والمساعدات. ومن ذلك
استخدام السكك الحديدية والانهر والمواني والمطارات
ووسائل المواصلة كلها". فيمسي العراق والحال هذه
ساحة"

ساحة من ساحات الحرب. اذن خير له، وهو بين شرين،
اي تقييد وسائل المواصلات، والمشاركة في الحرب خارج البلاد،
ان يختار الشر الاصغر، وهو ان يرسل جنوده الى ساحة
القتال وتظل اسباب المواصلات كلها حرة بيده.

اما القوة الجوية البريطانية في ارض العراق، والقوات
العسكرية في المطارات الثلاثة (المادة الخامسة) التي
يأذن بها — لا بأس بالمجاملة — جلالة ملك العراق، ووفقاً
لاحكام ملحق هذه المعاهدة، لحماية هذه المطارات، فهي
حقيقة وفعلاً احتلال عسكري. كيف لا، والامتيازات التي
تتمتع بها القوات العسكرية في ارض عراقية، لا تعتبر
من العراق، فلا تجري فيها احكامه المدنية، ويعفى المقيمون
فيها من الرسوم الجمركية وغيرها، ان هذه الامتيازات
تندر وتكاد لا تكون في غير البلاد المحتلة. فلا معنى
اذن للمجاملة التي تنتهي بها هذه المادة اذ تقول:
"ان وجود هذه القوات لن تعتبر بوجه من الوجوه
احتلالاً، ولا تمس على الاطلاق حقوق سيادة العراق."

أضف الى ما تقدم ان الحكومة العراقية يتوجب
عليها ان تقوم بجميع التسهيلات الممكنة لنقل القوات
المذكورة وتدريبها واعاشتها" (البند الثالث من
الملحق) فاذا اضطرت الحكومة البريطانية ان تنقل احد
المطارات مثلاً من مكان الى مكان، وما كان لسكة الحديد
شعبة تصل المطار الجديد بالخط الاصلي، فعلى حكومة
العراق ان تمد تلك الشعبة على نفقتها، وان
كانت

كانت غير لازمة لها وغير مفيدة.

وما مطار الهنيدي الذي اشاد بلفقته السر فرنسيس همفريس؟ أيستخدمون الارض مجاناً ويشغلون بالمطار عشر سنوات ثم يبيعونه بثلثي القيمة التي أُنفقت في تأسيسه؛ بدل ان يقدموه مجاناً للعراق؟ بل يجب ان يُقدم بمقابل الارض التي قدمها العراق للحكومة البريطانية في الحبانية. ان ذلك هو العدل؛

وثمة شيء في المادة الاخيرة من المعاهدة، هو تجديدها. فلو فرضنا ان المعاهدة لازمة لمصالح الفريقين المشتركة، فقد لا يرى العراق بعد خمسة وعشرين سنة، لزوم تجديدها. فماذا الفعل اذ ذاك الفريق الثاني؟

هب ان خط المواصلات البريطانية قائم على الدوام، او لخمسين سنة اخرى، فيجب ان تدوم اسباب الحماية له، فتكرر المعاهدة. وبكلمة اخرى اذا اقتضت العراق في تجديد المعاهدة. بعد خمسة وعشرين سنة من تاريخ الهند في حوزة الانكليز فعلى "الفريقين الساميين المتعاقدين ان يقوما بناءً" على طلب احدهما، بعقد معاهدة جديدة ينص فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مصالح صاحب الجلالة البريطانية الاساسية في جميع الاحوال." واذا رفض العراق ذلك، فالمسألة "تعرضه على مجلس عصبة الامم." وتحت الحيلة، فماذا عسى ان يكون حظ العراق من احكام العصبة ومؤامراتها؟

اما مبناء البصرة والسكك الحديدية فانهما كابوسه

كابوس ياسين. وقد طالما روّعاه وأرّقاه منذ
تولى وزارة الاشغال سنة ١٩٢٣ الى اليوم. انه حقاً باطل
الميناء والسكة. ثمن من الوزراء العراقيين يعطي شعبه ليحرزهما
للعراق هبةً خالصة لوجه الله. اما وقد حالت
الاقدار والسياسة دون الهبة، فان الفضل الاكبر
لياسين باشا في التخفيض ثمنهما نحو نصف ما كان
يطلبه الانكليز. (١) وقد تحدد باتفاق
وليس الاعتراض الان على الثمن
الفريقين، ولا على الفائدة الغير مركبة لمدة عشرين سنة
والمركبة بعد ذلك، ولا على الملكية التي تحررت للحكومة
العراق. انما الاعتراض هو على الاغلبية الانكليزية
في ادارة الشركتين. ولا ريب كبير خير للعراق
من القانون الذي سيسنه المجلس النيابي لادارتهما.
ذلك لان القانون هذا لا ينبغي ان يطابق الاتفاق
الذي تم بين الفريقين، ولا يجوز تحويره بدون اتفاقهما
ما زال على العراق قسم من الدين.

~~اما الاتفاق فقد تقدم ذكره في حديث الرئيس [illegible] وهو تعهد الحكومة العراقية بان تعقد [illegible] والموظفين [illegible] انما هناك شرط آخر [illegible] سنوات [illegible] الا [illegible] عقود البريطانيين في سكك الحديد [illegible] الحكومة البريطانية [illegible] بعد موافقة [illegible] تنتهي هذه العقود الغير موافقة الحكومة البريطانية~~ / اما

---

(١) اي ٢٧٥ لك روبية ([illegible] ليرة انكليزية) ثمن
سكك الحديد، و ٧٢ لكاً (٤٨٠٠٠٠ ليرة) ثمن
ميناء البصرة.

اما الاتفاق فقد تقدم ذكر شيء منه في حديث السر فرنسيس همفريس.
وهناك شروط اخرى تتعلق بمجلسي ادارة شركة الميناء وشركة
السكك الحديدية. فللشركة وحدها الحق في استدانة المال
للتحسين والترميم والتمويل، وفي توظيفه في حال الفيضه.
وعلى الحكومة العراقية ان تعقد والموظفين البريطانيين في
السكك الحديدية عقوداً لثلاث سنوات، ولا يجب ان تنتهي
هذه العقود بغير موافقة الحكومة البريطانية.

هذه هي خلاصة الاتفاق لحل المشكل المالي الذي كان عقدة
العقد في جميع المعاهدات والمفاوضات التي جرت في السنوات
العشر الاخيرة. ولا يزال هذا الاتفاق نفسه موضوع الخلاف
بين الحكومة والمعارضة. بيد انه يظن ان الحكومة، وهي ترى فيه
بعض ما تراه المعارضة من الحيف، ستنتهز الفرصة
في المستقبل للمطالبة ان يعاد النظر فيه.

اما الان فموقف المعارضة، وان خفت صوت احد حزبيها،
هو الموقف الاشنع والاعنف. وخصوصاً في ما سلفت ~~...~~ وما
من اعتراضها على المعاهدة
تثيره من الخوف والحذر. خذ الدين مثلاً، فهو في مجموعه مليونان وثلاثمائة
وستة عشر الف ليرة انكليزية. فلو كان بامكان العراق ان
يدفع هذه القيمة مباشرة لفعل، ولتملك ملكاً تاماً
ميناء البصرة والسكك الحديدية، وبكلمة اخرى لاحرز
استقلاله. ولكن الانكليز لا يريدون المال دفعة
واحدة. فعلى العراق ان يدفع القيمة نسيئة، وان

وان تقبل بأقلية الاصوات في مجلسي ادارة الشركتين،
وان يستمر في هذه الحال خمس وعشرين سنة. أو لا يجوز ان
يحدث في خلال هذه السنين، ما يوجب زيادة
الدين وتمديد مدته؟ أو لا يجوز ان يحدث ما
يحمل الانكليز على الاستئثار في ادارة المجلسين؟

أو لا يجوز ان يحدث
لبيك يا انكلترة، ما كنتِ ذات ماضٍ مريب
في الهند، وفي جنوبي البلاد العربية، وفي مصر! فلكان الناس
اذ ذاك يثقون بك، ويشكرون الله على بركات التعاون
واياك. ولكن الخوف الاكبر والاشد، الخوف الذي
تزدريه اليوم الحكومة، وتستشعره المعارضة، هو ان المجلس
الاداري السائدة فيه كلمة الانكليز، سيستمر في تحسين ميناء البصرة ولوجب عليه تجديد
وفي تمديد سكك الحديد ليزيد بالدين على العراق - ولا انتداب -
المعاهدة. وبعد ذلك؟ دين كدين مصر - وهل يلزم اكثر من ذلك
ومعاهدة يأبى العراق ان يجددها -
لتتذرع به الحكومة البريطانية، فتحتل العراق احتلالاً ثابتاً -
عسكرياً - مصرياً!

قد يكون في هذا التخوف شيء من الوهم والمبالغة. وقد تزيلها
تدريجاً حكومة العراق اذا احسنت التعيين للاعضاء العراقيين
في مجلسي ادارة السكة والميناء. فاذا كان التعيين، كما
هو الغالب، سياسياً، اي لارضاء الملل والاحزاب، فيكون
صاحب المعالي صاحب وجاهة وبلاهة - والاعضاء الانكليز
اذ ذاك يشتغلون في العمل ويستأثرون ولا غرو

را ما

(٦) اذا كانت الحكومة تتجرد من الحزبية و[illegible]
فتعين من هم اهل لهذه الوظائف من رجال العمل والمال المجربين
المدربين، والمشهورين بنزاهتهم ووطنيتهم، فلا
خوف اذ ذاك على العراق. فان أولو الوطنية والعلم
والخبرة، ليستطيعون، في مثل هذه المراكز، ان يحفظوا
مصالح بلادهم، وان ينقذوها من الديون الاجنبية.
هناك اعباء من غير
على ان هناك غير الديون الاجنبية —
بريطانية. فمنذ أُلغي الانتداب ازدادت تبعات العراق. ان
جنيف لجذابة، ولها المقيدة. اجل، ان عصبة الامم
تصنع قيوداً جديدة، قبل ان تفك القيود القديمة.
وهب ان الفاصلة عصبة ثلاث امم لا غير، فهي تستطيع ان
تحل وتربط في الشؤون التي تتعلق بالامم الصغيرة،
فتعتبر احكامها وتطاع. ولكن هناك احوالاً
وان قلت تنعكس فيها الآية، فتقف احدى الدول
الكبرى امام لجنة الانتدابات الدائمة لتجيب على سؤالات
محرجة، او انها تقف موقف الدفاع عن نفسها في المجلس.
وهذا ما يزعج عصبة الثلاث أمم.
~~[illegible]~~
لماذا رغبت الحكومة البريطانية مثلاً بالغاء الانتداب؟
الجواب وجيز بسيط. ان المعاملة والعراق مباشرة!!
لخير من المعاملة عن طريق جنيف. وقد كان
موقف العراق في هذا الامر موقف الحكومة البريطانية
عينا. اذن علينا ان نتخلص من جنيف.
وذلك لا يتم الا بدخول العراق في عصبة الامم. لذلك
كانت

كانت مساعي الحكومة البريطانية مستمرة في هذا السبيل. وهي
تعود الى سنة ١٩٢٤ عندما وقف اللورد پرمور في
مجلس العصبة وقال ان قريبا يمسي الانتداب غير لازم في
العراق وغير مفيد، نظرا لتقدم البلاد السريع في الشؤون
الاقتصادية والسياسية. وقد ردد هذا القول كبار رجال الانتداب
انفسهم، لاسيما السر فرنسيس همفريس الذي ناصر العراق
في طلبه وقال انه جدير ان يدخل في العصبة، بعد
ان يؤدي الضمانات اللازمة التي ستحدد في معاهدة
تحل محل صك الانتداب.

~~ولكن للعصبة العليا حقوقا تعلنها وشروطا تفرضها، وقد بحث~~
~~الاعلى هذه المسألة تحدد الضمانات والشروط، فقبلها~~
~~مجلسها العراق اصبح اهلا للعضوية فيها~~

ولكن ذلك مقيد بحقوق وشروط لعصبة الامم نفسها،
وحدد الضمانات والشروط
فبعد ان بحث مجلسها الاعلى المسألة، للضمانات والملحوظات
قدمها للطرف فقبلها، فاصبح اهلا. اما ما
الاخرى - الغير بريطانية.
هي ذي اعباء العراق ظاهرة من المذكرتين اللتين قدمهما
اعباء ثقيلة فذلك قبل دخوله بخمسة اشهر،
العراق لعصبة الامم، بصواحب العصبة
وقد ذكرت في الاولى مسألة الاقليات، عامة
المحبوبات، فادى العراق من اجلهن ضمانات ثلاث
وجاءت واضافية. اولا: ضمن العراق لكل شعوبه على
السواء حقوقهم المدنية والدينية والسياسية، فهم
في نظر القانون متساوون لهم جميعا نفس الحقوق وعليهم
جميعا نفس الواجبات. ثانيا: وضمن للاقليات
الدينية

الدينية والجنسية (1) جميع الحقوق التي يتمتع بها الآخرون. ثالثاً: وتحق لهذه الاقليات ان تؤسس على نفقتها معاهد خيرية ودينية تختص بها، ومدارس طائفية يتعلم اولادهم فيها بلغاتهم. وقد زيد في الضمانات للاكراد، فان لهم الحق ان يعلموا اولادهم في مدارسهم الخاصة بلغتهم الكردية، وان تكون اللغة الكردية لغة رسمية مثل العربية في الالوية التي هم فيها الكثرة، كالسليمانية واربيل.

اما المذكرة الثانية فهي تختص بالاجانب وبعض الامتيازات الدولية. فالعراق يضمن للاجانب حرية الضمير والعبادة، اللهم اذا كانت لا تخالف الآداب العامة، ولا تخل بالنظام. ويرحب بالمرسلين من اية طائفة كانوا او من اي دين. ويمهد سبيل العمل للارساليات التهذيبية والدينية والطبية. وسيعامل رعايا الحكومات التي هي من عصبة الامم معاملة اكثر الامم تفضيلا لديه - بشرط ان تعامله بالمثل - لمدة عشر سنوات من تاريخ دخوله العصبة.

ان بعض الامتيازات، كالمدارس الارسالية والطائفية، لا تتفق ومساعي الدولة الفتية في توحيد وتوطيد قوميتها. وهي تعرقل في الاخص مسعاها في سبيل النهضة العربية الكبرى.

~~الوطنية [illegible] في هذه المسائل [illegible] اذا موقف المعارضة [illegible] فقد [illegible] تكون الحكومة الوطنية. [illegible] موقفه [illegible] اليوم [illegible] العراق [illegible] نفسها [illegible] في هذه الامتيازات [illegible] هي البادئة بالاصلاح.~~

اقلب

~~(1) انظر [illegible] المؤلف في الملحق.~~

الوطنيين في هذه المسألة لموقف
إن موقف ... في الحركة
فهم موقفون
سديد وطيد، وإنهم ... بزعامة نوري أو بزعامة
كانوا أو في المعارضة،
بأسرهم، بل وقد يكون الحكومة هي السابقة
فسعى لإلغاء هذه الاتفاقات أو بعضها
عاجلاً أو آجلاً عملاً بسنة التطور، ووفقاً
لروح العصر المستمر واستقلاليه:

الفصل الرابع
عثرات التعليم الوطني

المبادئ المسيحية في تحرير العراق – الأقليات –
منشور ثقيل الظل – لفظة انكليزية تعبر عن
خمس لفظات عربية – المدارس الطائفية –
المدارس الأهلية والرسمية – صيحات رؤساء
الأديان – العراق يحترم المسيحيين حقوقهم – المستر اسكويث
المستر لويد جورج بأرفق ولغتهم
ينادي بالجلاء عن العراق – لويد جورج يذكر
البرلمان بالنفط – مكابرة بعض الرؤساء –
الانكليز الاحرار في جريدته العارض – ساطع
بك الحصري – سجاياه وبلاياه –
مثلان من عمله واسلوبه – قصة
كرنياسوس خان دري – المعلم الايراني الذي
صار عراقيا – التجنس لا يذهب
بحب الوطن – قصيدة تذهب
بوطنيتين

الوحدة الوطنية — ساطع والحكومة [illegible] — كرامة

مجزرة [illegible] — الاستاذ الامريكي يغضب — الاكراد

العرب يشيع — الاثنان يتصافحان — [illegible]

التعليم الصحيح

كان للسر آرنلد ولسون، الحاكم المدني بالنيابة في بداية الاحتلال، آراء سياسية أدى العمل بها الى الثورة. وكان له في التعليم آراء غريبة أقل ما يقال فيها انها مثل آرائه السياسية، رجعية استعمارية. فقد جاء في كتابه "تنازع الولاء"(1) ان العراق لم يعد اهلاً للحرية "الا اذا أُشرب المبادئ المسيحية." "الانجيل ثم التاجر ثم المدفع، هي سياسة قديمة ذهبت مع من ذهبوا في الحرب العظمى. ولكن بعض السياسيين والمتدينين، مثل السر آرنلد، ظلوا متمسكين باذيالها.

وقد حاول الحاكم المدني في بداية الاحتلال ان يحييها ويعززها بواسطة التعليم في مدارس الاقليات المسيحية وغير المسيحية، التي كان رؤساؤها يحومون حوله، ويزيدون بكرمه في ما يدعون ويطلبون — لبداته كان يماليهم ويجاملهم جميعاً، من بطاريق النصارى — الكلدان والسريان والآشوريين والارمن — الى رؤساء اليزيديين، ومن آغاوات الاكراد الى المرسلين والمبشرين، المسيحيين والزائرين. ومما جاءه من وراء البحار في تلك الايام خبر من اخبار الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، هو المنسنيور [illegible] القاصد الرسولي جاء من روما يتفقد قطيعه الكاثوليكي في الناحية الشمالية

(1) A Clash of Royalties

~~ومنهم في المناطق~~ الشمالية من العراق . فاستأذن بالسفر الى
الموصل التي لم تكن مفتوحة يومئذ للاجانب . وكان هذا المنسنيور
أشد الزائرين نزعةً ، وأكثرهم الحاحاً ، وأثقلهم ظلاً . فتحمّل
السر آرنلد المجاملة ، ثم تعلل ، ثم نزع القناع . فما اكترث
المنسنيور لذلك وظل يصرّ على طلبه مسرفاً ملحفاً . فشكاه
السر آرنلد الى حكومته بلندن ، وهو يود لو كان بامكانه ان (١)
يرسله ، لا الى الموصل ، بل الى حيث ألقت رحلها أم قشعم ،
ولكن الحكومة بلندن لم تكن من رأيه ومزاجه . أفليس هذا
المنسنيور من الامم الموالية — من احدى حليفاتنا الكريمات ؟ أولا
هو اهل للمجاملة والاكرام . اذن ليسافر الى الموصل والى غيرها
من البلدان التي يهوى . وماذا يفعل المنسنيور في الموصل ؟ ليس لدينا من العلم باعماله
غير العلم ببعض نتائجها ، اي ما نبت وتجدد من المعاهد المسيحية
الكاثوليكية التي تعطلت واقفلت في ايام الحرب . ولكن السر
آرنلد بريء بالمسيحية غير الكاثوليكية الروحانية ؟ ومع ذلك فقد سهّل
السبيل للقاصد الرسولي ، عملاً باوامر دون شك (١) ، وعجّل
اخرن سيادته الرجعية الاستعمارية ، وهو ان وحدة العراق ،
مبدأ ، هي غير ممكنة ، وغير لازمة .
التي لاتقوم بغير توحيد المدارس ،
لذلك فسحت حكومة الاحتلال المجال للمدارس الطائفية ، بل فقد أعطت هذه المدارس ،
شجعتها ، وعززتها ، واغدقت عليها (فوق المساعدات المالية) من الامتيازات ما لم تكن تحلم به في عهد الاتراك . فقد

---

(١) للانكليز كلمة واحدة تقوم مقام هذه الكلمات الخمس العربية ، وهي خشونة فتلفظها
اي اسم البلدة التاريخية في فلسطين ، Jericho
ذكر الجحيم . وقد يكون قال السر آرنلد لسيادة القاصد الرسولي :
ولماذا لا تسافر الى آريحة ؟ وما ادراك سيادته ما أريد
له في ذلك من الخير !

فقد كانت ادارتها بيد رؤساء الطوائف، وكان مدراؤها في الاغلب
من رجال الدين، وكان برنامجها يُقرَّر باتفاق مديرية المعارف
والرؤساء، الذين منحوا، مع ما منحوه، حق اختيار كتب
التدريس. استمرت هذه الحال بضع سنوات، فازدادت المدارس الطائفية،
وهي تدعى في العراق "المدارس الاهلية"، وامسى عددها ضعف [illegible]
ضعف عدد للمدارس الرسمية، اي مدارس الحكومة. فاضطربت
مديرية المعارف، وحارت في امر تلك المدارس
السائدة في ادارتها، وما اهتدت في بادئ الامر الى الخطة اللازمة لاصلاحها.
فما هي هذه المؤسسة الطائفية التي لا تخضع الا في بعض الشؤون للحكومة؟ وليست تجد استقلالها
ليست في اعتبار انها من مدارس الاقليات، فاقدمت
من مدارس الحكومة. ثم حاولت، ثم فكرت، وشجعت رؤساء
مديرية المعارف، وذلك انها خيرت
على العمل الذي رأت فيه العدل والمساواة. واما المدارس الاقليات،
تلك المدارس بين ان تكون مدارسهم اما مدارس الاقليات كلها
الحكومة. فتعامل في الحال الاولى معاملة مدارس الحكومة، او تخضع في الحال الثانية للقوانين
المالية ذاتها، دون ان تفقد حق اختيار
ثم تمنح المنح التي تختص بمدارس الحكومة
والنظر في تعليم الطلبة دين اجدادهم. فاستمروا
المعلمين لتعليم الحالة الثانية، الا القليل منهم
وقد اختار الرؤساء، واستمروا يحتجون، فانشأوا
يطالبون بحقوق مدارسهم المستقلة، والموازرة
في بعض التشجيع السياسيين، امثال السر آرنلد ولسون، التشجيع
فتجاوبت مجسمة" في
ذاعوا يبثون دعواهم في اوروبة،
لبعض الصحف هناك: - العراق يحرم المسيحيين حقوقهم
العراق بضع المدارس المسيحية تحت نير التعليم الاسلامي!
ولكن /

ولكن حكومة العراق قالت لاحتجاج اولئك الرؤساء وانصارهم
الاوروبيين والامريكيين، وأكدت لهم انها تمنح ابناء كل
طائفة حق انشاء مدارس طائفية، وتوليهم ادارتها، بشرط
ان يقوموا هم بكل نفقاتها، فأبى الرؤساء مكابرين.
واستمرت الشكاوي والاحتجاجات تنتشر في الدوائر الدينية
والسياسية، فمست الى اذن تقية في الوزارة البريطانية، هي
اذن الرئيس نفسه المستر لويد جورج. فاهتم واغتنم
لاحياء اولئك الشعوب المسيحية القديمة، وقام يدعو لانقاذها.
فدعا حتى امريكا للمؤازرة (!) في هذه المهمة العظمى التي تفرضها علينا
المدنية. ونسي تلك المدنية
ولكنه في موقف آخر نسي اولئك المسيحيين،
حينما صاح المستر اسكويث زعيم المعارضة يومئذ برأيه في السياسة
الانكليزية العراقية، ودعا الحكومة للجلاء عن العراق والاحتفاظ
بمنطقة البصرة، نهض لويد جورج للدفاع فقال — ماذا قال؟
ان في الموصل اقليات مسيحية يتوجب علينا حمايتها؟ كلا.
بل قال في البرلمان: "ان بلاد الموصل غنية بثروتها
الطبيعية — غنية بالنفط." قالها لنواب انكلترة،
وكأنه همسها في اذن الدولة.
اما كلمته المجنحة، الكلمة التي وصلت الى العراق،
فهي تلك التي نطق بها دفاعا عن الحكام المسيحيين، وعن مهمة
التمدن المقدسة. فاعتز اولئك المسيحيون، وتضاعفت
الاحتجاجات والمكابرات. فقد روي عن رئيس احدى المدارس
الاجنبية انه قال: "لم تعترف حكومتي بحكومة العراق،
ولا انا اعترف بمديرية المعارف العراقية."
وما خلت مديرية المعارف في تلك الايام من بعض الانكليز
الاحرار

الاحرار الذين قاوموا تلك النزعات الطائفية والدينية، وسعوا سعياً مبروراً لتأسيس خطة عصرية في التعليم وتأييدها. اما الذي جاهد من الوطنيين الجهاد الاكبر في هذا السبيل فهو الاخصائي العربي في التعليم واحد اساطينه في الشرق الادنى، ساطع بك الحصري. ولكنه لقي في جهاده من الصعوبات اشدها. وكانت تظهر غالباً في النزعات السياسية الحزبية التي تحكمت بالمديرية وحتى بالوزارة نفسها.

وما ساطع بغريب في البلاد، ولا هو حديث العهد في مهنته، فقد ولد في صنعاء اليمن من ابوين سوريين، وتلقى العلوم في الاستانة، وهو منذ ثلاثين سنة يمارس مهنة التعليم، تدريساً وكتابة وادارة، في تركيا، وفي سورية، وفي العراق. اما ان في لهجته العربية آثاراً منه التركية فذلك لا ينكر. ان حبه للعرب في قلبه لا في لسانه، ولا احد ينكر على ساطع الاخصائي مقدرته، او على ساطع الرجل فضله، بيد انه، مثل اكثر الاخصائيين، ضيق نطاق الحياة الفكرية، فله في المسألة خط واحد لا يعدوه، ونظر قصير لا يبعد ولا يتسع. لذلك ترى تجنبه الكبرى في صلابة عوده، وفي حبه للنظام وقيوده. ويكفي بالشطر الثاني منهما قيداً للرجل العامل، عالماً كان او سياسياً، في هذا الشرق العربي. فالناس ينفرون منه، وقد يتألبون عليه. وانه في الحالين ليلقى شتى الصعوبات والمقاومات. وقد لقي ساطع منها، وهو مدير المعارف العام، الشيء الكثير. ولا عجب، فقد كانت عوامل العداء لخطته وسياسته اكثر واشد من عوامل الولاء، فكان في نضاله احياناً غالباً، وفي اكثرها مغلوباً. المعارض غالباً كانت الاولى تتجسم حتى في رئيس الوزارة نفسه، وهو، وان كان من السادة العارفين، لا يعرف من علم التعليم اولياته، لإرضاء فئة من الناس، سياسية او طائفية.

فالمدير

فالمدير الذي يعادي مثل هذا الوزير، يزيد بخصومه الاسماعي دون عمله، ومع
ذلك قد سلك ساطع المسلك الخشن، بما هو مفطور عليه
من شدة الشكيمة، وقوة الارادة، فأفلحت، كما قلت
بعض مساعيه، وكثرت اعاديه. فغدا في حال لا تطاق.
ألا فالوزير ناقم، والحكومة مغضبة، ورؤساء
الاقليات والمدارس الاجنبية غير راضين. استعاذ ساطع
منهم بالله، ولبس خوذته الشبيهة بعباديه – لا تتغير – وراح ينشد الحرية.

اما وقد وصلنا الى هذه المرحلة من حياته التعليمية،
فسنعطي القارئ مثلين
وفيها حالة اكثر مما مثلته من عمله واسلوبه. ليست المدارس الاجنبية
، وان قلّت
كلها اوروبية وامريكية. بل هناك مدارس ايرانية
تولّد للعراق المشاكل والصعوبات مثل غيرها من مدارس الاجانب،
فقد كان في بغداد حينئذ مدرستان ايرانيتان
وكان الطلبة فيهما واكثرهم عراقيون، يكرهون على لبس القبعة
السوداء الايرانية. وما القبعة بذاتها شيئاً مهماً. اما
اذا عدّت عاملاً من عوامل الدعاية الوطنية، فلا يجوز
التغاضي عنها. ونحن في العراق، لا في ايران، وفي
بغداد لا في طهران. فالعوامل الوطنية ينبغي ان تكون
عراقية، حتى في المدارس الايرانية البغدادية. هذا
ما قاله ساطع لنفسه، ولأعوانه، ولرئيسه. ولكن
التدخل في هذه المسائل يولد مشاكل سياسية، وخلاصته
ان الانكليز فيما بينهم وبين الحكومة الايرانية مجاملات
لا يوافقون. فماذا تفعل هذا في استطاعة مدير المعارف
العام؟ جرّب ما في استطاعته ان يستنجد عقله
الحاد

متخصص، فاستنجده، فجاءه بحيلة – لبدعة – تنسي حد الوحي:
أنشأ ساطع مدارس عراقية – رسمية – الى جانب المدارس
الايرانية، وجعلها احب الى التلاميذ بجهازها وبعددها. جهزها
بلوازم التدريس كافة – بالخرائط الجغرافية، والواح المحادثات،
وصورات الصحة والزراعة، والكرات الارضية، وجعل اثاثها
كله جديدا. هي ذي الحيلة، بل هو ذا السحر الحلال. فقد سحر
ساطع الاولاد بكراته الارضية، وصوره الزراعية، فصار يزداد
عددهم في مدارسه، وينقص في مدارس ايران. ثم كرر العمل في
غير بغداد، وانشأ في البصرة مدرسة للبنات تباري المدرسة
الايرانية، فسحر البنات هناك بما سحر الصبيان في بغداد:
يذكرني الاستاذ ساطع في عمله هذا بقصة تروى عن ذلك الاميركي المحبوب،
والمربي الصالح الدكتور كورنيليوس فان دايك، ركب الدكتور حماره
ذات يوم وصعد الى الجبل فحياه احد الفلاحين في الطريق،
وسأله: الى اين؟ فقال الدكتور: انا قادم الى ~~[illegible]~~ القرية –
قرية الفلاح – لنؤسس فيها مدرستين. فقال الفلاح مدهوشا:
هل تحتاج قريتنا الصغيرة الى مدرستين؟ فاجابه دايك
الاميركي الحكيم: حيث يذهب الدكتور فان دايك يتبعه الجزويت!
وقد عُني ساطع بغير القبعة الايرانية التي أوحت اليه
عمله الحربي – وكر حيلة – بل عمله التجاري – والتجارة بالمباراة –
في مقاومة تلك المدارس الاجنبية. عُني باستاذ ايراني
ينظم الشعر، كأن روح الاكاسرة جاءت تتقمص ايران – جاءت
تخلق لساطع قضية تقضي بها عليه. فقد
حاول ذات يوم وزير المعارف ان يعين احد الشبان، وهو ايراني
التبعة، معلما في احدى المدارس، فرفض ساطع لان الشاب
اجنبي

اجنبي، فقال الوزير: «سيتجنس بالجنسية العراقية». ثم جاء الشاعر
يسأل ساطعاً كم الراتب ويقول ان تغيير جنسيته هو امر خطير. فكان
التغيير موكولاً بالراتب، حسب الظاهر، وكان الراتب محبباً اليه التغيير
فصار عراقياً، ثم صار معلماً في احدى مدارس العراق.
ولكن حب بلاده، الراسخ في فؤاده، استفاق بعد بضعة اشهر
فهيج فيه القريحة، فنظم قصيدة باللغة العربية تبدأ بمدح ايران وتنتهي
بهجو العراق وحكومته واهله. فلا الجنسية، ولا العشرون دينار،
تفسد حب الاوطان. ولكن قصيدة واحدة تكفي لتسلب
الشاعر راحة باله — ووظيفته.
وكانت القضية التي شاءها القدر لساطع انتقاماً لايران،
فقد عزل الشاعر عن وظيفته بانقلاب الوزير وطلب ان يعاد البهائي. فأبى
ساطع، فأصر صاحب المعالي، ثم رفع القضية الى جلالة الملك
ولماذا يزعج الملك بمثل هذا الامر وهو من خصائص مدير المعارف؟
والى م التحكم من وزير متعجم بشؤون المدير؟ سأل ساطع نفسه
هذين السؤالين، فاعياه الجواب، فالتمس اجازة بالسفر، وهو يقول:
لهم ان يفعلوا ما طاب لهم في غيابه. وكذلك كان. فقد
اعيد الشاعر الى وظيفته بأمر صاحب المعالي، واعطي منصباً
بعد عشرة ايام.
وكان ساطع بعد عودته قد ادرك الحقيقة الكبرى في حياته التعليمية،
وهي انه قرمية من السنديان، والحكومة تريد عبيداً اما من القصب او من الخيزران.
وادرك كذلك ان الملك فيصل الاول نفسه، عملاً بما توجبه الاحوال السياسية،
انحاز الى خصومه. وهؤلاء كانوا يطالبون باصلاح شؤون المدارس
اصلاحاً ذريعاً. فاستعفى ساطع، وتعين بعدئذ مديراً لكلية الحقوق.

—

—

قلب العراق

٢١٣-٢٧٦

+

(الملحق: ثلاث أوراق)

الفصل الخامس

مبارزة في علم التعليم

لجنة منرو الاميركية – تقرير اللجنة – رد الاستاذ ساطع عليه –
مبارزة بين عقليتين اميركية وعربية – الفرق بين
العقليتين – كشف اللجنة – تقدم المعارف في
العراق – جدول مفيد – المركزية الادارية –
الوطنية السلبية – الحالة الادبية والصحية – المنهاج
الفرد الجامد – مدارس القرى ومدارس العشائر – اساتذة
نجفي نيويوركي – مدارس الاقليات الدينية والاجنبية –
[illegible] – تقاليد العرب في التساهل – ما تجره
الاقليات – تذبذب اللجنة – اقتراحاتها –
الخبرة المسيحية – رد الاستاذ ساطع – معلومات
اللجنة ناقصة كشفها ساطع – اربعة اسباب لذلك –
الجو السياسي في ادارة المعارف – الناحية الشخصية –
الطريقتان في التعليم – التمركز الاداري نوعان – وحسرة
التعليم – التفتيش "الصلب والرخو" – الغرض الاكبر
من التعليم – سيطرة الاجانب – الوحدة الوطنية –
ساطع وخصومه – كرامة مجروحة تعدي – الاستاذ
الاميركي يغضب – الاستاذ العربي يبتهج –
الاستاذان يتصافحان – ما هو
التعليم الصحيح.

دعت الحكومة العراقية لجنة من الاساتذة الامريكيين المتخصصين
بعلمي التعليم والتربية، يرأسها الدكتور پول منرو، مدير المعهد الاممي
وكلية التربية في جامعة كولمبيا بنيويورك، لدرس شؤون
المعارف في العراق واقتراح الاصلاحات اللازمة لها. فجاءت
اللجنة(1) في آخر شهر شباط سنة ١٩٣٢ تلبي الدعوة، وعادت الى بلادها
في اخر شهر نيسان، بعد ان وقفت شهرين في ما تسميه "الكشف
التهذيبي" فزارت مدارس بغداد وغيرها من المدن، وبعض مدارس
القرى والعشائر، فوصلت جنوبا الى البصرة، وشمالا الى الموصل.
ثم أصدرت كتابا صفحاته ١٧٢، هو التقرير الذي قدمته لوزارة
المعارف، تبسط فيه مشاهداتها وآراءها، ثم اقتراحاتها
الاصلاحية.

وكان الاستاذ ساطع الحصري كان المدير العام في الدور
السابق، ومن المسؤولين – رسميا – عما آلت اليه احوال
المعارف، ومن المغبونين – رسميا وغير رسمي – في
موقفه التهذيبية الوطنية ومحاولاته التعليمية، لما جاء في
الفصل الاخير، نهض للرد على التقرير، فجاء رده كتابا صفحاته
١٥٠، وقد ختم برسائل فيها بيان واعتذار منه الى الاستاذ
منرو ومن الاستاذ منرو اليه، ولا تخلو من الاشارات المزرية،
والكلمات الوجيزة اللاذعة.
هي ذي المبارزة العقلية التعليمية التي استوقفتني.
فأغريت بها، فقرأت الكتابين، لا كطالب علم من العلوم
الاختصاصية، بل كمتفرج تروقه المبارزة بين عقليتين
الواحدة
= اساتذة اختصاصيين

(1) كانت اللجنة مؤلفة من ثلاثة: الرئيس الدكتور منرو،
وكاتبة سر هي ابنة الرئيس، مرافقا للجنة.
وقد عين وزير المعارف الاستاذ فاضل جمالي

الواحدة غربية والاخرى شرقية، وهو يتمنى الفوز – لا لتملك ذلك –
للثانية. فهل كان ما تمنيت؟ لا، وا أسفاه، ولا كان ما خشيت.
فقد نسي فارسي المغوار خصمه غير مرة، فوقف ورمحه مخفوض
ليشرح حال رجل مغبون مجروح. وكلمة اخرى قد حالت شخصية
الفارس العربي دون هدفه، فما كان سيره اليه متصلاً وطعنه
دراكاً، ليوقع بالخصم ما كنت اتمناه.
اقف ها هنا في المجاز، ان بين العقليتين فرقاً ظاهراً. قد
احيانا. فالواحدة تثق بمقدرتها، والثانية تتهمك في اثباتها
لا تكون العقلية الاجنبية اقوى وامتن، ولكنها اكثر تجربة وتمرنا.
وان العقلية العربية في ترجيعها – يسمح بالاستعارة – وفي وقفاتها او ان [نجاحها]
الشجاعة، تفسح لمناظرها مجالاً للتبرير. فتبتعد عن
العقلية العربية [تحول] بجولاتها الواسعة، وهي تهتز وتعتز،
هدفها، او تضيعه، او تنسى الخط الاقصر اليه. والعقلية الاجنبية
تقف مكانها، ثابتة فيه، قانعة به، مسرورة حتى بحدوده،
تضرب وتناضل بقوة متحورة، دون ان تجازف بشيء منها في
الجولات اللامعة. فهي تخشى ان ينكشف ما قد يكون كامناً من
ضعف في درعها، وتكتفي في النهاية، وهي تبتسم ابتسامة الاطمئنان،
بان تعد طعناتها الصائبة، وان تحسب فوزها فوزاً نسبياً.
تقول اللجنة في مطلع تقريرها ان التعليم في العراق تقدم في
عشر سنوات، تقدماً يذكر، بل تقدماً يدهش، نظراً الى ما اكتنفه
من الاحوال السياسية. وان هذا التقدم (١) يتجاوز النطاق الخارجي
الاخذ

(١) الجدول التالي منقول من تقرير الحكومة:

	السنة	مدرسة	تلاميذ
المدارس الاولية والثانوية في سنة	١٩٢١-٢٢	١٢٤	١٢٢٣٦
	١٩٢٠-٢١	٢٧٦	٢٩٦٤٤
مدارس البنات	١٩٢١-٢٢	٢٧	٢٠٤٩
	١٩٢٠-٢١	٤٩	٧٨٧٥
المدارس الليلية	١٩٢٢	٥	٦٠٠٠
	١٩٢١	٢٥	

نسبة مخصصات المعارف في الميزانية: سنة ١٩٢١ ٢,٠٢
١٩٢١ ٨,٢٧

المستمر بالتوسع، الشامل في الوقت الحاضر المناطق الكردية واليزيدية، وغيرها من مناطق الاقليات في البلاد. فان مخصصات المعارف في ميزانية الدولة، وان كانت لاتزال صغيرة، قد تضاعفت في السنوات العشر الماضية. ولكن النقص في نظام التعليم ومواطن الضعف فيه، لاتتعلق بالميزانية في نظر اللجنة، بل هي تقنية وادارية. واولها هو "التمركز التام في الادارة" ذلك التمركز المقرون بنظام للتفتيش "الشديد الصلابة" فيحول دون الخروج "عن الاشكال والاوضاع المقررة"! وكلمة اوضح ان ما يصلح لمدرسة ببغداد هناك لا يصلح لمدرسة قروية او لمدرسة في سوق الشيوخ. وما الذي دعا اولي الامر لوضع هذا النظام؟ هو اعتقادهم الذي تسميه اللجنة "افتراضا" او "ادعاء"، ان وحدة البلاد القومية والوطنية لاتتم وتتعزز الا بتوحيد خطة التعليم. وهذا التوحيد يتوجب التمركز في الادارة العامة.

اما اللجنة فهي "تناقض هذا الادعاء الرئيسي" وهي في بيانها وبراهينها تصل الى قلب الموضوع، اي الى الغرض من التعليم. فاذا كان الغرض منه تحسين معيشة الناس في الامة جمعاء — وهذا رأي اللجنة — فمن الضرورة ان تشترك السلطات المحلية في ادارة المدارس ونشأتها "لتحمل الاهلين على الاهتمام بها وعلى تقديم المساعدات المالية اللازمة لها." ان الغرض الاول منه

ومن الآفات الكبرى ان يعتقد الطلاب ان الغرض الاول من التعليم هو التوظف في الحكومة. فان هذا الاعتقاد لا يربي في الناشئة وطنية صحيحة. وما رأت اللجنة ما يستحق الذكر من الوطنية الحقة والحماس الوطني بين الطلبة والاساتذة. انما هناك وطنية سلبية تقتصر على العداء لكل نفوذ اجنبي، ولكل سلطة اجنبية في البلاد.

دق

وقد وجدت اللجنة ان الحالة الادبية في المدارس غير
مرضية (الوزارة تعلم ذلك، وقد طردت ٢٧ معلماً لسلوكهم
المريب) وان الحالة الصحية لفي حاجة شديدة الى الاصلاح، وان
الرياضة البدنية تكاد تكون مفقودة. أضف الى ذلك آفة
في برامج التعليم، هي تعدد مواضيعه، واخرى في خطة التعليم هي
الاتكال على الذاكرة، دون عناية تذكر بتمرين وتجويد
قوتي الفهم والنظر.

ان في اشكال سكان العراق حقيقة مخوفة، وهي ان الثلثين
بالتقريب من العشائر والقبائل المقيمة والمتنقلة، والثلث الواحد
من الحضر. لذلك يتعقد مشكل التعليم. فالخطة الرسمية القائمة
التي لا تلين وتتنوع لتشمل مناطق البدو والعشائر في مدارسها
وتناسب ومحيطها هي خطة غير سديدة، هي خطة ناقصة، وقد
نظراً لجسامة ذلك ما تراه اللجنة. وهي تسهب في بحث احوال المدارس
في القرى وفي العشائر، وتستعين بما كتبه في هذا الموضوع الاستاذ
فاضل الجمالي مرشد المعارف بالاكثر، ومدير المعارف العام اليوم. والاستاذ
فاضل، الشيعي المذهب، العراقي الفكر، النيويوركي التهذيب،
العربي الروح، الذي عاد من اميركة غانماً ظافراً - غانماً زوجةً
فاضلة، وظافراً بالعلم النظري والعملي - قد جعل عشائر العراق
موضوع اطروحته لاحراز شهادة الفلسفة من جامعة كولمبيا،
وان استعانة اللجنة بتلك الاطروحة لثناء جميل عليها وعليه.
والاثنان اي اللجنة والاستاذ فاضل متفقان في ان منهاج
الدراسة الرسمي المتبع في المدن لا يصلح لمدارس القرى، والمتبع في
القرى لا يصلح لمدارس العشائر. فهو في الاولى اوسع مما
يلزم في الثانية والثالثة، وهو غير مرن، وكثير النفقات.
قالت/

قالت اللجنة: "على المدرسة ان تتناسب وحاجات الاهالي التي تؤسس بينهم ومن اجلهم". وعملاً بهذا المبدأ اقترحت اقتراحات في الاصلاح سديدة فنية.

هاهنا ينتهي كل ما هو واضح صحيح محقق في تقرير اللجنة، ويبدأ التذبذب والتعثر والتردد وجمجمة الكلام. فقد وصلنا الى مدارس الاقليات، الجنسية منها والطائفية. وصلنا الى العقبة الكؤود، الى المشكل المعقد تعقيداً شديداً، الى المسألة الخطيرة بما يكتنفها من عوامل السياسة والتهذيب. فاللجنة تخشى ان يكون حل هذا المشكل الاكبر غير ممكن في الوقت القصير القريب، وان يستغرق حله سنيناً عديدة. اولهما: "ان في التقاليد
ثم تجيء بتعليلين هامين او هميه مكان للاقليات
العرب وعاداتهم ما يثبت تساهلهم وحسن معاملتهم الاقليات الجنسية والدينية." والثاني: "ان الاقليات الجنسية والطائفية طالما ولدت المشاكل الخطيرة بعوامل التفريق والعداء لتحقق اغراضها فسببت التدخل الاجنبي في شؤون البلاد الحكومية، الدينية او الاقتصادية او السياسية." ولكن اللجنة اذن، العرب متساهلون والاقليات مشاغبون، والتحكم منشئ. فهي لا تستنتج شيئاً، نكتفي بما تقدم منها، ولا تقترح حلاً." انما نقول: "لا اصلاح عند اللجنة على مبدأ التساهل والمساواة"

نثني على الحكومة القائمة على مبدأ التساهل والمساواة بيدانها في المساعدات المالية لمدارس الاقليات (1) وفي تعيين طلاب منها (2) ليكملوا دروسهم في

(1) المساعدات المالية في سنة ١٩٢٠ للمدارس الاهلية:
المدارس الاسلامية: ١٩,٥٠٠ روبية
المدارس المسيحية: ١٥,٥٠٠ "
المدارس الاسرائيلية: ١٠,٢٠٠ "

(2) الطالبات اللواتي يتعلمن في مدارس بيروت: مسلمات ١٢ – مسيحيات ١٢.
الطلاب في انكلترا واميركا ومصر وسوريا ولبنان: مسلمون ٢٥ –
مسيحيون ٢٨ – ٣٠ يهود ١٢

في اوروبه واميركه. ثم تقول بعد ذلك: «لو أذنت الحكومة
تلك المدارس بان تغير بعض التغيير في برنامج التعليم الرسمي، او تكيف
اليه ما تراه لازماً لحفظ تقاليدها، ومتناسباً ومحيطها، لأحسنت
عملاً، ولكانت تساهم كل ما هو منتظر او مطلوب.»
هذا الاقتراح تقترحه في شيء من التحفظ والحذر. ثم تستجمع
شتات الحزم والجرأة لتقول أن برنامج الحكومة مثقل بالمواضيع، وانه من
الخطأ نظراً وعملاً، ان يزاد بثقله. اذن، لا يجوز لمدارس الاقليات
ان تضيف شيئاً اليه. هي ذي النتيجة المنطقية. ولكن اللجنة كما
بلغت، تستمسك عن الاستنتاج. ولما استهدفت للنقد لو
وقفت عند هذا الحد. فمن رأيها ان تخفض الحكومة البرنامج الرسمي -
تسقط من مواضيعه - لتمكن الاقليات من اضافة ما تريده اليه!
وبعد ان تطلب هذه الامتيازات لمدارس الاقليات تحذر من المحاباة في امتحانات
الحكومة، وتطلب المساواة في الامتحان والتعيين بين خريجي هذه المدارس
والمدارس الرسمية.
بهذه الخطوات البطيئة الخفيفة الوقع تتقدم اللجنة الى
غرضها الاكبر. فتفلت الهر من الكيس، كما يقول الانكليز، او تبيض البيضة،
كما يقول العرب. فاسمعي يا حكومة العراق: «اذا كانت
الاقليات او الارساليات الاجنبية الدينية (المسيحية طبعاً) تريد
ان تنشئ مدارس مستقلة فلا تطلب الامتيازات لا لها ولا
لخريجيها، فلسنا نرى ما يوجب رفض طلبها.»
وهذه الكلمات تعود بنا الى مطلع الفصل الاخير. وفيه
رأى المستر آرنلد وِلسون ان العراق يحتاج الى خميرة مسيحية - ولماذا
لا تكون بوذية او كنفوشية - والا فهو ليس اهلاً للحرية والاستقلال.
واللجنة تتفق والمستر آرنلد، ان لم يكن جهراً فضمناً. اجل ان
الاميركيين مثل الانكليز في هذا القبيل. او انهم يجاملون الانكليز.

/وقد

وقد يكون اعضاء "لجنة الكشف التهذيبي" ذوي نيتين او لا ذوي نيتين
في آرائهم. ولكنهم — في هذا الشرق — مسحبون. فمن العجب
انه لم ينهض غير واحد في العراق لانتقاد اللجنة والرد على تقريرها.
ان الاستاذ ساطع الحصري الجدير اذاً بشكر حكومة العراق
والامة العراقية.

اول ما يراه الاستاذ ساطع في التقرير هو ان معلومات
اللجنة ناقصة مشوهة، وان كشفها سطحي. فجاءت بكثير
من الاقتراحات الفاسدة، والاستنتاجات المخطئة، والاحكام
الجائرة. ولذلك اسباب هي على الاجمال اربعة: اولاً — الوقت
الذي قضته اللجنة في الكشف كان قصيراً. ثانياً — الجو الرسمي
الذي جاءت به كان مفعماً بالتحيز. ثالثاً — الزيارات السريعة
الشبيهة بزيارات السياح لبعض المناطق. رابعاً — اغفال اللجنة
التقارير التي اصدرتها مديرية المعارف، او حبس المديرية
هذه الوثائق الرسمية عن اللجنة. فلو اطلعت عليها لما
كلفت نفسها النصيحة، ولاستغنت عن كثير من الاقتراحات.
فان في الجو المفعم بالتحيز والتحزب، وفي جهل اللجنة تقارير المعارف
برهاناً ساطعاً، في نظر ساطع، على ان هناك حملة عليه مدبرة.
فقد لفتت انظار اللجنة الى اشياء فيها نقص وعوج، وما اشير
اشارة الى النظم والتقادير المعدة لاصلاحها. هي تهمة ليثبتها
الاستاذ بالوثائق ويؤيدها بالبراهين. فيضيع في ذلك اكثر ما
تستحق هذه الوقت والاهتمام. ان هذه الناحية من رده
ضعف موقفه في المبارزة. هي ناحية شخصية لا ينفع
الاسترسال فيها، ولا يضير اهمالها.
لنعد وها اذن الى المسائل الجوهرية. يقول الدكتور
منرو: "ان في التعليم طريقتين، الطريقة التي تصنع من الطلاب

[illegible]

رجالاً للدولة، والطريقة المعروفة بالتعليم الشعبي او العام:
وهذه لا تزال غير معروفة في الشرق.» هي كلمة حق. ولكن
الاستاذ ساطع عليها لوم لفتة، على ما اظن، معناها، ولما كان
يرى لزوما ما قدمه في عشر صفحات ليبين ويثبت بالبرهان ان
التعليم الشعبي العام كان معروفا في الشرق — في البلدان الاسلامية —
قبل ان وصل الى الغرب بمئات السنين، ثم يجيء بمثال مما تبقى
من اثره وهو مدارس الملالي اي مدارس المساجد. هذه المدارس الدينية
التي يخصها الدكتور منرو ببضعة اسطر من تقريره يستخبرها الاستاذ ساطع بعد
الاطناب والاسهاب الى الخير — السلام.
فهل تريد يا استاذي العزيز ان تبدل خطتك الحديثة في التعليم
تلك المدارس الشعبية المثلثة التعليم — القرآن واللغة والحديث —
~~…~~ المساجد حتى وان كان لا يزال فيها شيء من الخير؟
لقد اسأت فهم الدكتور منرو، او انك تعمدت في جولتك العلمية عن
هذه. ان معناه ليظهر لك واضحا جليا اذا قابلت بين المدارس الالمانية
قبل الحرب مثلا وبين المدارس الشعبية الامريكية.
وثمة مثل آخر في الجدل غير المفيد. جاء عرضا في تقرير اللجنة
ذكر خطة التعليم التركية «التي كانت تحتذي ~~…~~ الخطة الفرنسية».
فكتب الاستاذ ساطع عشر صفحات ليعلمنا ويقنعنا بان خطة الحكومة
العراقية خالية من كل اثر تركي (ويعطينا اثني عشر برهانا على ذلك) وانها «غير
وان فيها شيئا من الاساليب والمناهج المصرية»، وانها «غير
مصبوغة بصبغة اجنبية.» كأنما الصبغة الاجنبية نكبة من
النكبات في التعليم.
وها قد وصلنا الى الجوهريات في الموضوع. ان جواب الاستاذ ساطع
على ما قاله الدكتور منرو في التمركز الاداري لجواب سديد مفيد. ان
التمركز الاداري على نوعين، الاول يتعلق بالبرنامج والمنهاج
والثاني بالامور الادارية والمالية. وقد اقتصرت مديرية
المعارف

المعارف على النوع الاول، ويسعدنا لأن تشترك البلديات في الامور
الادارية والمالية. بل اقترحت المديرية قانونا يجيز للبلديات
فرض بعض الضرائب على الاهالي، فيصرف هذا المال في تحسين
احوال المدارس. ولكن ذلك الاقتراح لم يعمل به لاسباب
سياسية وغير سياسية. ولقد ادركت مديرية المعارف، قبل مجيء اللجنة، ان مدارس
القرى تختلف عن مدارس العشائر، وان المنهاج الرسمي الجديد
لا يصلح لا لهذه ولا لتلك، وباشرت النظر في امره. اما
التمركز الاداري فما هو حتى في نظام المعارف ومنهاج التعليم
يتمركز صلب شديد. فالمهم المهم فيه ان بعض المواضيع
اللازمة الحيوية لشعوب العراق كافة على السواء ينبغي ان تعلّم
في كل مدارس العراق تعليما واحدا، وينبغي ألّا تعلّم ما يناقضها
او ما يولد روح التنابذ والتخاذل بين مختلف عناصر الامة.
هو ذا الامر الذي تذبذبت اللجنة فيه وجمجمت الكلام. ثم
اقترحت الاقتراحات من اجل المدارس الاجنبية والطائفية:
فكان موقفها مضطربا متزعزعا، وموقف الاستاذ ساطع وطيد الاركان.
اما مسألة التفتيش فبدل "الصلابة الشديدة" التي يذكرها
الدكتور منرو متخوفا، نجد مئات من الوقائع التي تدل على "الرخاوة
الكثيرة". هذا ما يقوله مدير المعارف السابق، ومن اقام في البيت
بضع سنوات هو ادرى بما فيه ممن جال فيه جولة فحصوه. وها
هنا ايضا يدعم ساطع قوله بالبرهان، فهو نفسه لا احد مفتشيه،
أي في مدرستين، في جوار بغداد — وكانت المسافة
بينهما اقل من نصف كيلومتر — ان احداهما كانت تحمل (لاربع سنوات خلت) والثانية
بموجب تقارير وزارة المعارف "الصلابة الشديدة" في
التفتيش كانت تحمل تلك التقارير. فأين الصلابة

التفتيش؟

وها قد وصلنا في هذه المناظرة، الى ما قد يكون مشكل التعليم الاكبر في العراق. فالغرض الاول من تأسيس المدارس في هذا الزمان هو انشاء امة عراقية عربية موحدة، وطنية الاركان، ومشبعة بروح الوطنية التي تتجسم في اعمال – في الخدمة والتضحية." كما تقول اللجنة:

ويقول الاستاذ ساطع ان اللجان والمعاهد الاجنبية لا تستطيع ان تساعد العراق في حمل هذه المهمة الوطنية (1) اما الاقليات ~~ولو استطاعت فلا يجوز ان تقبل مساعدتها.~~ فيمكنهم ان يساعدوا، ولا بد من ان يساعدوا، اللهم اذا تركوا وشأنهم فلا يفيد عليهم الوطنية والحياة المدرسية الاجنبي، والمعاهد الاجنبية والسياسي الاجنبي، وان اقتراحات اللجنة في هذا الامر تعرقل عوامل التضامن وتعوق التوحيد.

(في الهامش: [illegible])

اننا نسلم بوجوب ابناء المدارس وفق بيئتها، وبوجوب تكييف منهاج التدريس للبيئة والاحوال المحلية الاجتماعية والاقتصادية وبوجوب تناسب التعليم وحاجات الناس. اننا نسلم بكل ذلك. واننا لذلك نقول لحضرات الاساتذة الافاضل المشتركين في وضع هذا التقرير ان في بيئات البلاد سيطرة اجنبية واقتصادية، وان احوال البلاد توجب القضاء على هذه السيطرة، وان اول حاجات الناس، في اي بلد كان، هي ان يكونوا احرارًا مستقلين، وان هذا المثل الاعلى في الوطنية لا يدرك ما زال الاجانب مسيطرين سياسيًا واقتصاديًا في البلاد. ونقول كذلك ان مواهب ابناء البلاد واذهانهم ما زال الوطن في هذه الحال لا تبلغ الدرجة العليا المنشودة، وانهم لا يحققون (الاجتماعية والسياسية)

(1) "لا يجوز لامة من الامم ان تطلب حل مشاكلها التربوية من الهيئات الاجنبية مهما عظمت وسمت مكانتها العلمية." نقد تقرير لجنة منرو صفحة ١٤

يخفقون في مشاريعهم، ولا يجيدون اعمالهم، ما زالوا مقيدين
بقيود المصالح والسياسات الاجنبية. تلك هي حال البلاد وحاجات
اصلاحها. وتلك هي طعنة مساعي الاخيرة في سبيل
التعليم الوطني.

بعد ذلك يقف المتبارزان ويتبسمان ابتسامة
الاعتذار والمجاملة. كان الاستاذين الفاضلين، صديقي العربي والامريكي،
في سوى ما تقدم متفقان، الا في بعض جزئيات الموضوع. ولكن
الاستاذ ساطعاً لا يستطيع، وهو يخاطب اللجنة ورئيسها، ان ينسى
خصومه السياسيين ببغداد. وكيف ينساهم، وهم الذين ارادوا
اذلاله في حلب هذه اللجنة الاجنبية، وهو الاختصاصي الوطني في التعليم والتربية،
وهو العالم الفاضل المجرب المدرب، الواسع الاطلاع والخبرة في موضوعه —
بشهادة خصمه الامريكي — كيف ينساهم وهم يزدرونه ويحملون حتى
الملك على اهماله وهجره؟ أفينتظر منه، بعد كل هذا، ان يقابل
اللجنة المتحدة بوجه باسم، وقلب هادئ، وعقل مستكين؟!
أبشر هو ام اله؟ لا ورب الكعبة. انما هو عربي، يغاضب
ويطول، ويكتب الفصول في الدفاع عن نفسه وعن علمه. ولا يلام
اذا ما دقق في التشريح، ولا يؤاخذ بالقليل او الكثير من التعنت. فهو دم ولحم،
استاذ، وهو اختصاصي!

والغريب في هذه الكرامة المجروحة انها تعدي. فقد سرت منها جرثومة
الى الخصم الكريم، الاستاذ الامريكي الافضل، الناشئ بين ثلوج العقل المشرب
روح القطب الشمالي. نعم، سرت اليه، فتحللت عقدة النفس
المربوطة المضبوطة. فأسمعنا في جوابه الوجيز، تحت ظلل سلاح
العلمي العقلي — هيهات — كارثة. بل أذن في كلمتين، يقطرتين
من حامض الكربوليك . . . وكنا نتوقع منكم هذا الموقف
الانتقادي . . . والكثير من رجال الحكومة ودوائر
المعارف الذين رأونا سخفاً بمقاومتكم . . . نعم لقد كان هذا الموقف
معلوماً

معلوماً قبل ان تطلعوا على التقرير. وذلك ما يخفف من حدة المفاجأة
ويذهب بلذعة الانتقاد". وكيف لا يبتهج
ورد الاستاذ على الرد فكان شاكراً حامداً مبتهجاً.
ورئيس اللجنة نفسه يعترف بما فيه الدليل على تلك الحملة المدبرة.
وان اولئك الذين انذروا اللجنة لزملائه من سعوا الحملة للكشف
التهذيبي." فلا يلام احد سواهم اذا ما انقلب الكشف عما يلائم
وغدا تكشيفاً! بيد ان الاستاذ ينكر ان في ما كتب شيئاً من
الحقد او سوء القصد. وهو يؤكد للدكتور منرو انه ما فكر في انتقاد
اللجنة قبل ان اقرأ تقريرها. فقد احس الدكتور منرو وبعض
وعاد المتبارزان الى الابتسام. ما اخذته اللجنة من الاعتزاز احساس
النعرة في ان استطيع بث لكم لننتقد
العاطفة الوطنية." وفي ذلك ما يحملني على الامل ان موقفكم العدائي
لن يشل جهود الشبان الذين سيعهد اليهم بتنفيذ هذه الاحكام.
ان هؤلاء الشبان يحملون مثلي في قلوبهم اكبر الاحترام لاختباركم الكثير
واطلاعكم الواسع. ويعرفون ان ما بذلتموه من الجهد والمقدرة
في وضع نظام المعارف الحالي هو اكثر من ان خدمة اقوم انا بها
بواسطة هذا التقرير".
فاحنى الاستاذ ساطع رأسه دون ان يبتسم لابتسام
الاستاذ منرو ويقتدي به في المجاملة. فانه يعرف اولئك الشبان — وهم
عراقيون تلقوا دروسهم في جامعات امريكية — هو يعرفهم كل
المعرفة. "وقد عودتهم على سماع آرائي فيهم بكل صراحة...
غير اني اعتقد ان اكبر مساعدة معنوية استطيع ان اسديها
اليهم الان هو السعي لتوسيع افق ملاحظاتهم فتتعدى الدائرة
الضيقة التي هم فيها، وحملهم على تدقيق الامور بنظرة محلية
تستمد انوارها مما يجري في جميع بلاد العالم لا مما يجري في
قطر من الاقطار على وجه الانحصار".

/ اقف

اقف هاهنا والاستاذين الاحصائيين في التعليم وفي المبارزة،
واستأذنهما كلمة انقلها من التقرير لأختم بها هذا الفصل، وهي في
نظري من احسن ما جاء فيه، فتحدد التعليم تحديداً املماً مستوفياً
تحديداً شاملاً يصلح في روسية او في الصين، كما يصلح في العراق.

جاء في التقرير (صفحة ١٠١):

"ان مهمة التعليم هي بث العلم الصحيح بين عموم الناس
بقدر ما تأذن الاحوال من الاطراد والتوسع، لينقذهم
من الامية والفقر والامراض والخرافات، ويقوي ثقتهم
بانفسهم، وبمستقبل بلادهم، ويزيد في انتاجهم الاقتصادي
والزراعي. وبكلمة اخرى، ليحسن العيش الهني للشعب
والفلاح للأمة."

ان هذا التحديد لمهمة التعليم هو احسن ما قرأت، واحسن
ما اختم به هذا الفصل. واني احب في آخر الخاتمة ان اعيد
وأكرر هذه الكلمات:

"لينقذهم من الامية والفقر والامراض والخرافات".

في اوروبه وامريكه ، ثم تقول بعد ذلك: "لو ارادت الحكومة تلك المدارس بان تغير بعض التغيير في برنامج التعليم الرسمي ، او تأخذ اليها ما تراه لازماً لحفظ تقاليدها وعاداتها ومحيطها ، لاحسنت عملاً ولما هنت على كل ما تنكر او تطلب منها من الاعمال."

كمل الإشكالات جنس
هذا الفصل ثانياً

الفصل السادس

في واحات الشعر

—

لغة الشعر الجديدة في المغرب – جمود الشعر العربي عند التقاليد القديمة – التطور الحديث – الصوت الأعلى في شعرنا الحاضر – الوطنية الواسعة النطاق – ارفع صوت لشعراء العراق.

جميل صدقي الزهاوي – ثوائر الحياة – الروح الجبارة – التهكم والمجون – عمر الخيام المعري – «ثورة في الجحيم» – منكر ونكير – المحاكمة والحيرة والاضطراب – تمرد الشاعر – الله والأثير – الملكان المنكران – عذاب الشاعر في الجنة – وصف الجنة – وصف للجحيم – خطاب شاهدهم في النار – عمر الخيام يتغنى بالخمرة – سقراط يلقي محاضرة – ابو العلاء المعري يخطب خطبة ثورية – الاختراع العجيب – الثورة – اندحار الزبانية – النجدة السماوية – انتصار سكان النار – السلم والصعود الى الجنة – حسن الشعر ورديئه في القصيدة – ما هو فيها مقلد لدانتي وابي العلاء، وما هو فيها مبتدع.

معروف الرصافي – «أحب جراحتي قولاً وفعلاً» – الحقيقة العارية في اشكالها والوانها – الفضيلة واخواتها المتهتكات – قصيدة في الاخلاق – اجتماعي الاول بمعروف – القيافة البدوية – ايام في الاستانة – في فلسطين وسورية – العودة الى العراق – اجتماعنا الثاني – الاغارات والغنائم – السعيد في سلم السياسة – اجتماعنا الثالث – معروف في مجلسه

مجلسه الراحة – ما عبرت السياسة بانفسه – روح
الشاعر وجماعته – رأيه في الوحي – الصلة بين الروحية
والحياة – يمتنع عن الجماع ليستطيع ان يتكلم – حديثه
عن النبي – السيرة النبوية الرخامية – ميزاتها العقلية
والفلسفية – رأيه بالله – حبه للجمال – ليلة من
لياليه – الجارة المومسة – العري – اول امرأة
اوروبية شاهدها – قصة طريفة – الشاعر الاكبر.

رضا الشبيبي – عادة من عادات ادباء الغرب – هدية الشاعر
المؤلف – بيته في النجف – طير في قفص – ينفر منه
القفص ويطلق على دبق الشباك – في المجلس الانسي –
العزلة في الكوخ ٥ – القيود التي احتاجها الشاعر لنفسه –
الارث الشعبي – شاعر روحي – مؤمن وطماع حتى
في حيرته واضطرابه – تمرد ينتهي بالخشوع والطاعة –
مجموعة مسلسلة من شعره – "سكرة النفس" – الفرق
بينه وبين الشاعر الانكليزي هنلي – صعوده ونزوله
في سلم الفكر – التعزية في العزلة – محاسبة
النفس – التردد والاقدام – بقاء الانسان –
~~[illegible]~~ الاباطيل الجبرانات – الحصن الحصين –
شبان الشرق – مثال من شعره في التفوق العربي
الموهوم.

احمد الصافي – طيرانه بغربته قفصا بالنجف –
طيور لا كالطيور – انه كانت تقصم الحياة يوم ولادته –
ما عوض النجف له الشيء – اسرته النكداء –
/ السخرية

هو كالطبيعة في
السخرية والعطف - الدموع - الابتسام المحزن
حدقة جملتنا على الشعر الباكي -
والقهقهة الساخرة - القط والفأر - الاطباء -
شيطان الشعر - "أثواب الروح" - قصيدة لا دمعة
فيها تستدر الدموع - ذكاء المرء محسوب عليه -
الغلط في الحساب - هل يلح في دورة فيه دورات
العاطفي في الحياة؟ - حاجته الى الخيال - الخيبة اللطيف -
قصيدة نشيج للغبطة - رنة الشعر تحول دون الشعر والموت -
قصيدة ساعة بطلها برعونة - وصفان عن حالة وأشياء - آفة
العثرة في العقليات - التناقض والاضطراب - ~~مثال~~ -
الإسراف - الصناعتان اللفظية والمعنوية -
~~وحيد~~ الخيال والفهم - مثال منه قصيدة النجمة
الصبح" - تحليلها ونقدها - الوحدة الشعرية.
في العيش - مثال منها في قصيدة الذي -
الفن المستبد.

الفصل السادس

في واحات الشعر

ليس في العالم العربي اليوم، لا في العراق ولا في سورية ومصر، لغة للشعر جديدة باجمعها – بمبانيها ومعانيها، باساليبها وفنونها، باغراضها ومصادر وحيها، فانك لا تجد بين الشعراء العراقيين او المصريين او السوريين شاعراً من طبقة الشعراء الاوروبيين الحديثين في نطاقهم الرحب الاجتماعي والوجداني، الطبيعي والروحي – شاعراً مثل اميل فيرهارن البلجيكي، او وليم ييتس الارلندي، او جان ماسفيلد الانكليزي، او روبرت فروست الاميركي.

وكل واحد من هؤلاء الشعراء يختلف عن زميله بالسلوك الشعري، والاغراض الشعرية، ويتفقون كلهم في الخروج من قديم الاوضاع والمواضيع. هم الاعلام لشعر جديد في اوروبة واميركة، قد يستغرب عندنا، وقد لا يرى فيه القارئ العربي المحب للشعر، المتذوق محاسنه، اذا ترجم منه الى اللغة العربية شيء، ما يستحسنه مبنى ومعنى. فالصور مستبشعة، والاوزان قائمة بالايقاعات جديدة، قليلة الالوان الزاهية، والالحان المدوية في انفس المتحضرين، التي تقع في انفسنا وقع الالحان، بيد ان له هناك منزلة عالية، لما يحتويه من مشاهد الحياة الحديثة ومشاكلها، وما فيه من الفن الفكري، والمعنوي. فلما تجد شيئاً مشابهاً لهذا في الشعر العربي. ولا تزال قلما تجد شيئاً من النفس التي تحررت من قيود التقاليد، من منابع العقل المكتشف الفتاح، وفطرة حائرة، او من اغراض مستحدث، او من الاهواء البشرية المتعرفة بتخوف الاهداف

الاهداف المادية التي تحفها سحب الخيال الورع الوديع.

ولكن في الشعر العربي أنماطاً للتطور ظاهرة، وان كانت لا تزال
ضائعة، او ضئيلة، او متقلقلة. وما امر تبلورها واتجاهها الثابت
ببعيد. ومما لا ريب فيه ان هذا التطور سيشمل
المباني والمعاني، والاشكال الوضعية والوجدانية. عندئذ
يقرأ المتأدب العربي الشعر الاوروبي الحديث ويستسيغه.
عندئذ يدرك الجمال في التصوف المستحدث الذي ينبو عنه
[illegible] التقشف، والتبدع بالاوهام، ذلك التصوف
القومي مثلاً الذي يربط الامم بارواح لها ماضية، ويشعل
انوار رموزه في هياكل البعث والتجدد. عندئذ لا نرحب
بالشعراء الاوروبيين والامريكيين كاخوان لنا في غير
الاوزان والقوافي.

لقد تقيد الشاعر العربي، وخصوصاً في الماضي، بكل ما هو
محسوس منظور، وما تقيد به صناعته بغير القواعد والاصطلاحات
الشعرية. اما تقيد العقل والتصور بما فيه شيء من
الاتساق المعنوي، والتجانس الروحي، وشيء من الاقتصاد
في التعبير، والارتداع في مواقف الاطناب، ومن الذوق
الفني الذي يوجب الوحدة في القصيدة، وضبط الحركة في
خيالها، ومن التحليل الفكري والنفسي الذي يقي
الشاعر هون التعميم والغلو — فكل ذلك مجهول على
الاجمال لدى شعرائنا، ونادر الوجود في شعرهم.
وما الشعر العربي الحديث في مجمله غير اصداء لاصوات
الشعر الماضية، واشباح لالوانه واشكاله. فهكم القصيدة

في /

بوجوهها القديمة كلها، بمحاسنها اللغوية والبيانية *
وبجادر وحيدها، وبقوالبها القياسية، وبمواضيعها الابدية -
المديح والرثاء، والغزل والاستجداء. اما في الجديد من
هذا الشعر فقد تغلب في هذا الزمان الحماس الوطني، [illegible]
والمنازع [illegible] القومية، [illegible] والاكتئاب والتحبب.
ها هو خارث عز واقفا على الاطلال الجديدة حائرة، وفي
نفسه، فيرثيها دمع العين ودامي الفؤاد. وهو يمجد الماضي،
والعهد ومحاسن الاجداد، فيطيع الغواني [illegible]
وحينا من الماء المالح، وحينا من النار والحديد. هي ذي
هي ذي امة عربية مجزأة
امة عربية مستقدة، فلننقذها.
هي ذي امة عربية مستضعفة مستذلة،
فلنوحدها.
مستنيرة
فلنجعلها قوية عزيزة ان كان في القاهرة او في
هو الصوت الاعلى لشاعر اليوم
بيروت، في بغداد او في النجف الاشرف.
مكة، في القدس او في
هو صوت تخنقه العبرات حينا، وحينا يضطرم بنيران الحماس
والفخر، وحينا تتطاير منه شرار النقمة والانتقام.
وانه لينذر حتى بين الشعراء المبرزين من يخلو شعره من
القصائد الوطنية، ومن تخلو قصائده الوطنية من قافية هي طعنة
للاجنبي البغيض، الاجنبي المفسد للمنازع الوطنية كلها،
الاجنبي المستعمر - عدو العرب الاكبر. ان لهذا الشعر، ان كان
من الطبقة الاولى او العاشرة، صوتا مسموعا في كل مكان، فيهز
من النفس فروعها واصولها، بل يضرم فيها نار الغيرة على امة
مستضعفة، ووطن مستعبد، ويحبب اليها الجهاد في
سبيل

السبيل الأشرف، سبيل الحرية والقوة والاستقلال.

أجل. ان صوت هذا الشاعر الوطني لمسموع، وان قصائده لتستذرف الدموع؛ لانه يصوغ قوافيه كما صاغها قبله شعراء الجاهلية، ويرسلها في اوزانها ورنتها وروعتها، وما فقدت شيئاً منه سحرها اللفظي، وجمالها اللغوي والبياني. هو ذا الشيء الذي الفه البدوي في البادية، كما الفه ربيب المدن. ولا يزال الاثنان واحداً في تقدير هذه المحاسن الفنانة الدارقة واحداً في الشغف والطرب لدى استماعها، وواحداً اعتبارا يكون الموضوع مجد العرب المفقود، ومجدهم الشاطر المنشود.

بيد ان هذه الوطنية الجديدة تضيق وتتسع، وتشع وتلتهب بحسب محاسن الشاعر الشعرية والعقلية والنفسية والذوقية. وهي تسمو في بعض الاحيان، فيصفو جمالها، وتفقد لهجتها في قصائد شاعر يحفظ التوازن بينها وبين صناعته، او بين حب الوطن وحب الفن، فلا يرفع الواحد على الآخر، ولا يقدم الزائل على الخالد في الحياة. ان مثل هذا الشاعر ليستطيع التوسع في الوطنية، فيشمل الانسان في منازعه، والانسانية في غزواتها.

— ١ —

وقد اخترت لموضوع هذا الفصل من كتابي اربعة من شعراء العراق تتجاوز منازعهم الشعرية الوطنية والاصلاح. منهم اثنان جابت شهرتهما الآفاق، واثنان لا يزالان في خيام الشهرة. ومن الاثنين الاخيرين واحد يؤثر الاقامة على التجوال، والعزلة على الاجتماع وفقاً لمزاجه، والثاني وقد رفع الاوتاد، يشد للرحيل، وقد يسبق في حب الآفاق زملاءه جميعاً. ~~الزهاوي والرصافي~~ اما الاربعة المختارون فهم الزهاوي والرصافي والشبيبي والصافي. وهم متفقون في ما يتفكك في نظمهم وخيالهم من

من قيود التقليد، ومختلفون روحاً ونزعا. ومختلفون كذلك
في ما وفقوا اليه من التجديد مبنى ومعنى.

لا ريب في ان الزهاوي والرصافي هما اكبر شعراء العراق اليوم
وقد يختلف الناس في من من الاثنين هو اخلق باسم التفاضل، ولا
يخلو الاختيار من الذوق الشخصي والحياز. اما الاثنان واحد
في الحرية الفكرية، سياسياً واجتماعياً ودينياً. والاثنان واحد
في الروح الوطنية التي تشع لكثير من المنازع الشعرية التقليدية
والعصرية. الاثنان واحد في التحليق والاسفاف. إلا ان
الزهاوي يفوق الرصافي على الاجمال في علمه وخياله، والرصافي
يبز الزهاوي في الصناعة والديباجة. الزهاوي في حملاته
الاصلاحية مدفع رشاش، والرصافي سيف بتار. الزهاوي
فيلسوف ينظم الشعر، والرصافي شاعر يهوى الفلسفة. وكفى
بهذا من المقارنة والتعميم.

— ٥ —

جميل صدقي الزهاوي[1] هو في السبعين من سنه الزمني، وفي العشرين
من سنه الشعري. وهو في المصائب ابوها وخالها. على ان السنين
والعرج والدرد وغيرها من نوائب الحياة، لا تفل من عزيمته، ولا
تؤثر على نشاطه. ولا تجرؤ ان تدنو من صوته وقلبه وروحه. فاذا كان لا
يستطيع ان يقف كالرمح فان في نبراته رماحاً، وفي نظراته شراراً،
وفي نبضات قلبه ايقاعاً لا يهن ولا يكل. وهو يحسن المجون، فيضحك
حتى الجائع في حياته، ويسترسل في الشجون فيبكي حتى ابليس. له لهجة
الانبياء، وما يشبهها من آيات، ومن آفات. وله في التجديف
لفظ شريف، وفي التهكم كلمات تتكلم. فهو يفضل الحاد الخيام
بشكوك المعري، ليصنع منهما سوطاً للشيطانة، وحطبة
لبيانه،

[1] راجع الفكر اللبناني في «ملوك العرب» صفحات ٢٨١ - ٢٨٧ ان

ان للزهاوي آثاراً شعرية نفيسة . وانفسها في
نظري، وأحقها بطول البقاء، قصيدة او ملحمته الصغيرة، "الثورة
في الجحيم." فانه، وان اقتفى فيها اثر شاعرين عربي وغربي،
دانته والمعري، ليقف في التقاليد عند الفكرة الاصلية الاولى
في زيارة الجحيم والنعيم، فهو يختلف عن المعري في "رسالة الغفران"
وعن دانته في "الكوميديا الالهية" فيطرق الموضوع من باب
جديد، وقد جاءه كمسلم مشكك في ايمانه، وجاء فيه
باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية. وقد زاراه
تبدأ القصيدة بوصف الملكان المنكران منكر ونكير، تتعلق
وهو في رقدة بقبره، زيارة استنطاقية. فسألاه عن امور كثيرة
بحياته وبدينه يوم كان في الارض حياً. فجاءهما مجيباً على
اسئلتهما بما يجيب المسلم المؤمن بكل شيء: بالله وبالآخرة، وبالحشر
والميزان والحساب، وبالجنة و- الجحيم؟ كلا. فغضبا وصف
الملك منكر الجحيم لوقف الغريم بالمجاملة، فجهر بما كان في شبابه
من ايمان بالنار، ومن شكوك فيها:

"ثم آمنت ثم الحدت حتى قيل هذا مذبذب ممرور(1)
ثم اني في الوقت هذا الخوي لست ادري ماذا اعتقادي الاخير؟"

ويشرع بعد ذلك بوصف الصراط، ويعجب بدقة صنعه، وبكيفية العبور
على شيء هو كغرار السيف، او كالشعرة. ثم يسأله عن الجنة الصالح منهم والطالح، عن الملائكة الابرار، وعن
الخناس والعفاريت والشياطين، فيجيب بجواب الخائف المذبذب:
فهو يرتاب بكل ما لا يدركه العقل. ثم يعود الى المجاملة فيقول:

(1) الممرور من هاجت به المرة

ح/

"لم يكن في الكتاب من خطأ، كلا ولكن قد اخطأ التفسير"

فلا يقتنع الملكان. ولكنهما تبسا هلا رأسه ليمعن في كفره. فيحاول ان يغير الموضوع، فيجيء في سلسلة القصة بحلقة ركيكة. وما دخل المرأة بمجلس التفتيش الديني؟ فالشاعر يطيح [illegible] بالملكين من الالهيات الى النسائيات طفرة واحدة. بل يهبط كالجوهري بثرة يهبط من سماء الملائكة الى السفور والحجاب! وليس في القصيدة التي تعالج مواضيع الآخرة، الالهية والشيطانية، مجال لامور في الحياة [illegible] زائلة كالحجاب والسفور. بيد ان الشاعر في هذا الموضوع صريح فصيح لا تذبذب في رأيه ولا مواربة.

ومن قعر بئر الحياة الدنيا يثب [illegible] مرة اخرى، وثبة واحدة، الى السماء ليجيب على السؤال عن الله، فيصفه [illegible] بالمعلوم المألوف من صفاته، وهو منه شكله فيه يكاد يخور، ثم يلقي بحجته، وهي ان الانسان ولد مفطورا لا مخيرا، فاذا كان كذلك في كفره وايمانه، فان الجزاء شيء نكير"، وينطق بما ظنه اكبر اليقين بعد ذلك يفك قيود الخوف والتذبذب،

وهو ان الله هو الاثير: والله بعد البوار يصير"
ومنه هذا الوجود فاض عنهما (1)

كأني بالزهاوي قد استعار من الهندوس "نرفانتهم" [illegible] وأسماها الاثير [illegible] ثم يتلو هذا الشرح جمجمة اذ يرى فوق رأسه الملكان الفظيعان

"ولكل انف غليظ طويل هو كالقرن بالنطاح حديد
وفم مهروت(2) يضاهي فم الليث، يريني نابا هي الخنقفير(1)
وبايديهما أفاع غلاظ تتلوى مخوفة وتدور"

(1) القلب

(2) المهروت الواسع: الخنقفير الداهية.

(1) نرفانا في ديانة الهندوس هي تحرر الروح
التحرر النهائي
من دورات التناسخ
(Nirvana) الفيض الالهي
هلاكها او حلولها في
* اي النرفانا

(1) عندما تتحرر الروح من دورات التناسخ
اي النرفانا
الالهي الفيض في

ديانة الهندوس تفنى او تحل في
تتحرر الروح من دورات

(1) هي ديانة الهندوس عندما تتحرر الروح من دورات
التناسخ كلها تفنى او تحل في الفيض الالهي اي Nirvana

فلا عجب اذا جبن الشاعر وارتاع، وفقد حتى ~~[illegible]~~ لغة الشعر
فنطق بالنثر المنظوم، وراح يستعطف الملكين ويرجوهما
ان يتركاه، ولا يزعجاه في قبره. ولكن الاستعطاف لم يجده
نفعاً، فنفخ وهاج، ووقف امام الملكين موقف السائل
الحانق، لا المسؤول المرتعب.

«ولماذا لم تسألا عن جهادي في سبيل الحقوق وهو شهير
ولماذا لم تسألا عن ذيادي عن بلادي ايام عزّ النصير
ولماذا لم تسألا عن ~~[illegible]~~ مساعيّ لابطال الشر وهو خطير
ولماذا لم تسألاه عن وفائه وصدقه، وعن دفاعه عن النساء؟
ولماذا لم تسألاه عما نظم من الشعر، وهو سلّم المعالي كلها؟
أسكوت عن كل ما هو حق وسؤال عن كل ما هو زور؟»

ولكن المنكرين لا يهمهما من ذلك شيء. فقد جاءا يستنطقان
الميت في دينه وما اليه من عقائده وفرائضه. هذي هي وظيفتهما
فاستنطقاه الاستنطاق، وقد وصلا فيه* الى جبل القاف، وماذا
تقول، يا كافر، في ياجوج وماجوج؟ – اقول: العقل خير شهيد.
~~ماجوج وماجوج [illegible]~~
العقل – فيصيح به المنكران انك لرجس كافر. فيلين مستعطفاً
فيزدادان غلاظة، فيحاول ان يأوّل ما جهر به، ويلطف
من لهجته، بل يعترف انه هو حشيته. ولكن الايمان بعد الكفر
لا يفيد. قضي الامر. حمّت ساعة العذاب، فهوت
المقامع

المقامع على ظهره وبطنه، فأجرت من جسمه الدم، ومن عينيه الدموع:

"ثم صبّا القطران فوق رأسي ... قطرانًا لسوء حظي يفور
فشوى رأسي ثم وجهي حتى ... بان حتى المجدور فيه بثور"

في هذين البيتين مثلان لما في نظم القصيدة من الركاكة [illegible]،
الاول "لسوء حظي" والثاني "فيه بثور" فالبثور في الوجه المجدور
لا يحتاج الى الافصاح، و"لسوء حظي" هي من مألوف النثر ومن الحشو
ايضًا. لست أشك في أن الشاعر نفسه يدرك ذلك، ولكن
خياله يسبق فكره وعاطفته في بعض الاحيان، فيكبلهما
فيتبدلا ليلحقا به.
هذه الملاحظة لا ابديها لأن ما اشرنا اليه هو غير قليل في القصيدة،
لنواصل الآن القصة. فبعد ان يصب المنكران فوق رأسه القطران،
يوثقانه بحبل، ويطيرانه الى الجنة ليشفعا عذاب الجسد بعذاب
الروح. فيرى الجنان بعينه، ويشتهي جرعة ماء من الكوثر،
ويتألم في حرمانه.
اما وصفه للجنة فلا يختلف عما جاء في القرآن، وهو [illegible]
على اطنابه لا يتفوق الى غيره السخيف المضحك. ان جنة
الزهاوي كجنة غيره من المصايف، فيها كل لذيذ من مأكول ومشروب
مع الحور والولدان،
ومشموم [illegible]

[illegible] كل [illegible]

"فإذا اشتهيت طيرًا هوى من ... غصنه مشويًا، وجاء يزور
وإذا رمت ان يحول لك التين ... دجاجًا الى اليك يطير"

اما هو فمحروم - هو زائر [illegible] للعذاب لا للذة.

ولقد

«ولقد رمت شربةً من نمير فتمنعته فقر النمير»

فودّ لو عاد الملكان به الى القبر، او انزلاه الى الجحيم. وما كان غير ذلك. فقد شدّا وثاقه، وأخرجاه من الجنة، وهبطا به الى اودية النار واغوارها اذا استثنينا انها زيارة للجحيم ليس فيه شيء جديد، اللهم ما يثبت حدود النار، واولهم ليلى عزيزة من شعره ومعشوقة سعيد، وجاذبتها هي وحبيبها الا انهما جهلا الجحيم فعملا عملاً اوجب عليهما هذه الزيارة، ولكنهما مفترقان كل منهما في هوّة. وهكذا هو العذاب الاكبر. فقد رأى الشاعر ليلى

«فوق جمر يشوي ونار تلظى وأنا عنك بالهموم كرور»

وهي تبكي، لا من الاذى والسعير، بل من فراق الحبيب:

«ولو انا كنا جميعاً لخف الخطب في قربه وهان السعير»

وقد اجمع الزهاوي بين الشعراء الفرزدق والاخطل وجرير[1] فسألهم عن حالهم فقالوا ان الهجاء سبب بلائهم ثم بان له بشار وابو النواس ثم المعري الذي حياه ثم امرؤ القيس «وهو لا يزال ينشد المجالس او للملوك الصدور»

وقد سمع الخيام ينشد من شعره في مديح بنت الكرمة فيقول:

«احليني بالله ايتها الخمرة اني امرؤ اليك فقير
انت لو كنت في الجحيم بجنبي لم يرعني نار ولا زمهرير»

(1) ... الزهاوي ... [illegible]

وبعد الشعراء يشاهد العلماء والفلاسفة، وها هو ذا سقراط
وهو يلقي خطبة:

"وإلى جنبه على النار أفلاطون ساخطاً كأنه مسرور"

فيشرح سقراط منشأ النار، وهو أشيب القوم جميعاً، ثم يقول:

"سوف يقضي حينا التطورات تقوى عليها وإن تهون الأمور"

ويرى كذلك منصور الحلاج ويسمعه يخاطب الله ويعاتبه:

"أنت الواحد الذي أنا منه في حياتي شرارة تستطير
ولي بعد الظهور خفاء ولي بعد الخفاء ظهور
لم شئت العذاب لي ولماذا لم تجرني منه وأنت المجير؟"

فلا يستغرب بعد هذا أن يقوم من بين هؤلاء العلماء والفلاسفة
من يخترع آلة تطفئ السعير، وأن يستخدم هذه الآلة في الثورة على
أولياء الأمر في الجحيم. وكان الشباب أول المنخرطين في أبواق الثورة،
المحرضين عليها، الرافعين أعلامها. فقد قام منهم الخطباء يحملون على
الظلم والظالمين، ويدعون للجهاد:

"فاهدموا القوة التي غشمت بالمثل والدهر للقوي ظهير
أنتم اليوم الأكثرون وأما عدد الحارسين فهو صغير"

هاج الناس في الجحيم وماجوا، فراحوا ينشدون الأناشيد ويعدون
العدة للقتال. وكان أن استوقفهم أبو العلاء المعري، فخطب
فيهم، فزادهم هياجاً واشتعالاً.

المعري:

وانه ليتبين لك ان جحيم الشاعر العربي يختلف عن جحيم
الشاعر الطلياني في سكانه. فقد شاهد دانتي في البلاد
اعداءه السياسيين، وفيهم المجرمون والزناة والقتلة
واللصوص، وشاهد الزهاوي غير الذين انكروا الجحيم
ولم يؤمنوا بالآخرة، واكثرهم من العلماء والشعراء والفلاسفة
اي من اصحاب [illegible] النبوغ، ومحبي الحقيقة والجمال

هي ذي الفكرة المستبدة التي اوحت الى الزهاوي فكرة
غير مستبدلة، ولكنه في تبيانها ما نجا من الاسفاف. فجاء
وصفه للنعيم وللجحيم وصفا تقليديا، صوره دنيا، واستعاراته
بالخمر، وجاء التردد في قوافيه، والنثر في كثير منه صيغه.
فلو انه في تقسيمه القصيدة جعل كل قسم منها قصيدة قائمة لذاتها
يصلها حبل القصة باخواتها، دون ان يتقيد الشاعر بالبحر الواحد
والقافية الواحدة في الابيات الالف والثلاثين، لانقذها [illegible]
على ما اظن من آفات التكرار، ومن التبذل [illegible]
والاسفاف.

وهناك حلقة ظهرت في سلسلة الرواية الكوميدية، لانها جديدة
وهي في نظري من اهم حلقاتها، فانك لتقف
الطرق واختنقت.
هذه. اعني بها اختراع الآلة لاطفاء نار الجحيم، ومتوقعا ان يكون لاختراعه الاثر
عندها معجبا بابتكارات الشاعر، وفي انتصارهم المستحيل.
الاكبر في حرب الثوار، فجاءت حربه في الجحيم
ولكن الشاعر نسي اختراعه على ما يظهر،
كسائر الحروب، الا ان السلاح فيها جبال من نار وكور ومراكن.

عندما قرأت هذه القصيدة للمرة الاولى علق في ذهني فكرة

[illegible]

"المري: غصبوا حقكم فيا قوم ثوروا
ان غاصب الحقوق ظلم كبير

الجمهور: غصبوا حقنا ولم ينصفونا
انما نحن للحقوق نثور

المري: لكم الاكواخ الشديدة بالبلا
ولهم في الجنان القصور

الجمهور: غصبوا حقنا ولم ينصفونا
انما نحن للحقوق نثور"

[illegible]

فاشتعلت الحرب والتحم الفريقان زبانية النار واهلها في القتال، وجاءت الشياطين تنجد اهل الجحيم، فاستنجد الزبانية بالعرش الالهي، فانجدهم بجيش من الملائكة بقيادة عزرائيل، وتلاحم الجيشان، [illegible] في ضواحي الجحيم البركانية، وتراشى المتقاتلون بالصواعق والبروق، وتحاربوا برماح تقذف من نارها الصخور، وبحار ماؤها مسعور، وبالجبال والبراكين، فانهزم الملائكة مع الزبانية، وعم النار اهل الجحيم وحلفائهم الشياطين.

هذي هي خلاصة القصة، وفيها الجيد والوسط والردي من الشعر، وفيها منه حسنات الشعرية الخيالية والبيانية، ما يشفع من الابداع الفكري، الاجتماعي والفلسفي، بسيئاتها الفنية.

[illegible]

لست ادري كيف نشأت ، الا ان تكون النتيجة لاحساس طبيعي
معقول ، فختمت بالكلمات التالية ما كتبته عنها باللغة الانكليزية:

قلت في آلة الاطفاء : انه لاختراع عجيب ، تسلح
به اهل الجحيم على نيرانه ، فاستحالت رمادا ، الجبال منها والبراكين
والاودية والانهار . وكان المدافعون عن الجحيم ، وهم محرومون
هذا السلاح ، يقعون بالمئات لا بل بالالوف ، كعمد من الرمال
تذروها ريح السموم . وكان رب السماوات يراقب من علياه
تلك المعركة ، فأشفق على جحيمه ، وهو جزء مكمل لكونه ،
من الزوال ، وعلى ربانيته من الاضمحلال . وكأنه يسمع رئيس
الزبانية يصيح : النجدة ، النجدة ! فلباه سبحانه وتعالى
بان ارسل جيشا من الملائكة المدرعين لانجاده .
واستؤنف القتال . وكان كل واحد من اهل النار
~~فيهجمون بها على~~ فيقتحمون
الثائرين كان يحمل آلة اطفائية ، فيغارون على العدو من
النيران ، فتنطفئ في الحال ، ويقتلونهم بالمئات
خلال دخانها ، وفوق رمادها ، يأسرون امير الظلمات نفسه
والالوف . حتى انهم كادوا يأسرون امير الظلمات نفسه ، ثم امر جيش
فلاذ الى العلم الابيض ، ولوّح به طالب السلم . ثم امر جيش
الملائكة المهزوم ان يقف في تقهقره ، ودارت المفاوضات
بينه وبين الثوار ، فقبل شروطهم . سيما انهم تكملوا
اطفاء نيران الجحيم فامست حفرا يبابا . وركب كل
واحد منهم ~~على~~ بين جناحي احد الملائكة ، وعادوا
جميعا طائرين الى الجنة . كذلك يقول الشاعر :

فلا

ومن الاهداف المادية التي تحوم حولها سحب الوداعة

والزهادة ~~و~~ والعبادة.

ولكن في الشعر العربي آثاراً للتطور ظاهرة، وان كانت لا

تزال مائعة الضئيلة او متنقلة. ومظاهر تبلورها ونجاحها

النابت بعيد. وقد يشمل هذا الجديد من الشعر الشباني والمعاني

والاشكال الوضعية والوجدانية. فاذا تُرجمت عندئذ "الرحمة الخالدة"

وهي قطعة شعرية ~~تتشعر~~ ~~عن الملك اليوم~~ وألحان ما ستقبله، شاعر

الملك اليوم، فلا يقف الاديب العربي عندها وقفة المستبلد

المستغرب، بل يقرأها ويستسيغها. كما انه يدرك

عندئذ الجمال

فلا جحيم بعد هذه الثورة في الجحيم!"

فهل انا مخطئ في هذا التحرير للقسم الاخير من القصيدة؟
ام هل كان ينبغي للشاعر ان يختمها كذلك؟ اظن ان
الصوت، صوت الجواب الايجابي على السطر الثاني من السؤال:
والا فما معنى الاختراع اذا كان لا يُستخدم ويُنتفع به؟
اما روح الشاعر، تلك الروح التي تتجلى في القصيدة، فهي
تشعل على شواطئ الشك والتهكم انوار العقل والعدل
والحب الانساني. وهي في ما لا يدركه العقل، ولا يستقيم
عنده ميزان العدل، تعتصم بالحب الذي يجعل كل ما يلمس
عدلاً وجمالاً، ان كان في حياتنا الدنيا او في الآخرة.

—١—

"احب صراحتي قولاً وفعلاً ... واكره ان اميل الى الرياء
فما حاذرت من احد بامر ... ولا اضمرت حسواً في ارتواء
ولست من الذين يرون خيراً ... ببقاء الحقيقة في الخفاء (١)

جسّكم ثاني

هو ذا امين الريحاني في شعره، وفي نثره، وفي مجلسه. فالحقيقة،
كما تراءت له، احسناء فتانة كانت أم عجوزاً
درداء، هي هي محبوبته المعشوقة على الدوام. ولكن للمعشوقات
الواناً واشكالاً، وللريحاني من حبهن جميعاً جميل الاقوال والافعال،
اما تنبذه في بعض الاحايين بين حقيقة واخرى، فذلك لان
الفضيلة لها اخوات يسكنّ في شارع التهتك، وحب الوطن
له اخوان يحترفون الاقامة في شوارع الكلام. فقد نظم في قديم الزمان
قصيدة في الاخلاق لا يزال مطلعها (٢) يرن في الاذان، ويُروى في

(١) من ديوانه صفحة ٢٠١
(٢) "الا هي الاخلاق تنبت كالنبات ... اذا رويت بماء المكرمات"

في كل مكان.

ما عرفت امة تحسن رواية الاشعار ولا تكثرت مثل الامة
العربية. فهي تروي الحكم نثراً ونظماً وتمشي في سبيلها. ولكنه
أعود الى الرصافي فاقول ان شهرته لا تقوم بحب الفضيلة وحب
الوطن منذ اساطين بيتها. انما الانسان من الحجارة والتراب
في اساس البيت. وللانسان قيمته في البناء.

اذا لم يكن معروف بدويّ المولد فهو بدوي الارث. اني اذكر اجتماعنا
الاول سنة ١٩١٠، يوم كان يلبس العباءة والعقال، ويلقي الشعر
بلهجة بدوية ساحرة. وانظر الى الاتراك،
ثم سافر الى الاستانة، ولبس هناك الجبة والعمامة، ثم وثب
في صفتهم المشرّفة فحمل ~~[illegible]~~ يحمل اللواء والمصحف ليلة ونهارا،
وثبة واحدة من المسجد الى الحانة. خلع معروف العمامة والجبة
وكل ما ترمز اليه، وجعل القهوة محط رحاله، فنظم من الشعر ما
ينافح عن الحقيقة الجديدة في حياته. هي حقيقة التحضر وطيلسانها.
وبعد ذلك يمّم الافكار الفلسطينية، وفقد في بيت المقدس ما بقي في صدره
من ايمان. ثم ولى وجهه شطر سوريا، وهو المفلس في عقائده الاجتماعية
والسياسية والدينية، فوجد في البلاد من التهذيب الخشوع ما لم يرقه
كثيراً. فعاد الى العراق.

واني لاذكر اجتماعنا الثاني سنة ١٩٢٢، يوم كان في العراق حاملاً
لواء الوطنية وسيفها، فيخرج من «خانه» (١) عاثراً على
رجال الانتداب ونسوته، ويعود خفيفاً الا بالغنائم. وما
الفائدة من مثل هذه الغزوات؟ وكيف، وهو البدوي المجرب،
لا يحسن الانتفاع بسيفه وبندقيته؟ انه لفاعل، وانه
لصائر من السياسيين، وانه لصاعد في سلم السياسة الى
اعلاه.

(١) «سكنت الخان في بلدي كأني اخو سفر تقاذفه الدروب»

الحق

[illegible]

منه هذا الوجود فينا

الى كرسي في مجلس الامة.

اعلاه - الى كرسي في مجلس الامة.

اجل: لقد كان ~~[struck-through]~~ معروف، يوم اجتماعنا الثالث في سنة

١٩٢٢ — هنيئاً لمن يتاح له الاجتماع بصديقه الشاعر ولو مرة واحدة

في كل عشر سنوات! — قد كان معروف عضواً في مجلس النواب

ببغداد! وعاد في قيافته الى العباءة والعقال.

معروف الرصافي أعرابي في مجلس النواب! لا يزال هذا الشرق

يهدي الاعاجيب. وقد سمعت صديقي معروفاً يدافع عن الحكومة في قضية

تتعلق بابعاد بعض الصحفيين المتطرفين في صحفهم، فيذكر مبدأ

النسبية كمبدأ عام في الحياة، ويبين او يحاول ان يبين

ماله شأن بحرية الصحافة. وما اظنه ان احداً من النواب

ادرك معناه، او فهم شيئاً مما قال. ولكن صوته العربي الاجش

فعل فيهم فعل البيان، وما اراد منه. وهؤلاء المبعدين

استحقوا الابعاد جزاء ما فعلت اقلامهم.

ولكن الشاعر لا يغير ما بنفسه وباديه من الارث البدوي، واظهرها

تيه السذاجة، والصراحة، والجرأة، وعدم المبالاة، فهو يعيش اليوم مستلهماً

مستهتراً، وهل يكترث لما تبدو وتجن له الايام، والا غيرت

الايام والتجارب شيئاً من طبعه هذا، فهو اليوم ~~[struck-through]~~ في ما ذكرت

عنه سجاياه كما كان منذ خمس وعشرين سنة.

وهو شاعر الرقيق الشعور على بداوة طبعه، الواسع الخيال، السهل الاسلوب

والعبارة، لا تقعّر في بيانه ولا اجتهاد في صناعته.. وانه في ادراكه

المحاسن الشعرية، شديد الحس لما تتراجع وتشيح من اصواتها واشكالها.

ولكنه في الغالب يؤثر الظاهر على الخفي من الجمال البشري

والطبيعي. هو لا يؤمن

ان للرصافي رأياً في ~~[struck-through]~~ الوحي الشعري غريباً.

بالوحي، او بالجري الوحي المنزل. انما يعتقد ان القوة

الشعرية

الشعرية في الابداع تتعلق بقوة الباه في الجماع، وان الضعف الذي
يعتري القوة الواحدة يتصل بالاخرى. اذن لا بد من التوازن بينهما، بل
هو ضروري. وقد قال متمثلا بحاله: «يجب ان امتنع عن الجماع سبعة
ايام لا يمكن من نظم قصيدة» كأنه يرى في هذا الاستجمام ان
المني يستحيل فيضا شعريا او عقليا - وهو يفضل البعث الثاني.
ثم ذكر النبي محمداً، وهي نظرة معروفة لشاعر عظيم. على ان اجمل
قصائد النبي، اي اجمل السور القرآنية، انما هي التي جاء بها في عهد
الاعتدال الجنسي يوم لم يكن له غير خديجة زوجا؛ اما بعد وفاة
خديجة فقد اصبح محمد مزواجا، وكانت القصائد - السور - في هذا
العهد مثل نسائه، اي دون ما تقدم منها ومنهن.

قد كتب الرصافي سيرة النبي محمد، واطلعني عليها مخطوطة بيده،
في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية. فما ادهشني ما فيها من العلم والتحقيق والتدقيق
لان مصادر الموضوع متوفرة لمن يشاء مطالعته، واحسن البحث والموازنة،
انما ادهشني القوة الناقدة، والمقدرة على التحليل والاستخراج،
والجرأة والصراحة والتفلسف في عقائد لا تستقيم لغير الايمان،
مع الاتكال على العقل والعلم فيهما.
فقد استخدم في "سيرته" المصباح الذي يستخدمه العلماء
الاوروبيون في نقد التوراة، اي مصباح النقد الاعلى الذي ينير
العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية. ومما يزيدك
اعجابا بالرصافي انه لا يحسن لغة اجنبية. فقد ركن، في كل
ما حلل وأوّل واستخرج واستنتج الى اجتهاده الخاص، والى
علومه الواحدة العربية.
إنك لتدرك الروح في مصنفه هذا اذا ما علمت رأيه
بالله. فقد قال لي مرة: "ان الآية: لا اله الا الله لا معنى لها

أ. نجيب

ويجب ان نبطل، او نبدل بالاية: لا اله الا الوجود. اي
ان الكون هو الله والله هو الكون. هي عقيدة البانتيئزم
اي الحلول. وهو فيها على اتفاق والزهاوي. قد
يتأمل ويبقى كثير منه شعر الصافي في المستقبل، وتظل
سيرته النبوية من الكتب القيمة التي تُقرأ وتُكتنز.
هو ذا الصافي في دينه، وهو الفيلسوف العقلي. اما الصافي
في حبه، فهو الشاعر العاطفي المشغوف بالجمال على انواعه —
الجمال الفني، والجمال الطبيعي، وجمال المرأة الفائق كل جمال.
انه ليشاهد التجسيد الالهي في المرأة، وفي الطبيعة. وانه
ليقف امام هذا التجسيد مشدوهاً متضعاً متعبداً، وخصوصاً
امام المرأة. فهو المبهور المسحور على الدوام.
لقد [illegible]
فاجأناه ذات ليلة في شرابه، فحدثنا وهو يحسو ولطف حلاوة العرق،
قال: «المرأة بهجة الوجود، وريحانة الحياة. وما الحجاب، وما
السفور ساعة تدنو منك؟ فان جسمها لينطق حباً، ويتنسم
حباً، ويتضوع حباً، سافرة كانت او محجبة. نسمع الكتاب
في هذا الزمان ينادون بالسفور: وهل يسفر الرجل، يا اخي؟
اليس كل منا محجباً — لابس القناع. كل واحد من الناس
هو سر من الاسرار للناس. ليخلع الرجل القناع، وليطالب
بعد ذلك بسفور المرأة ... أو تسألني عن العري؟
نعم، اني من انصاره - العري في كل شيء. وعري المرأة مثل
هذا الكاس. نعم. نعم. انا في البيت المجاور لبيتي هذا
بنت حلال لطيفة جميلة. هي موسيقية يا امين. ندعوها
الينا

في بعض الاحيان، فتجيئنا مسرعة كالطفل اذا لوحت له بالعروسة او بقرص من
الحلوى. ويشع في هذه الغرفة نورها الاصغر نور عينيها، ثم نورها
الاكبر نور جسدها، فيكسف نور الكهرباء. نعم يا احباب. فان
كل واحد منا ينزع عنها حجابا من الاحجبة، وهي الكريمة المطواعة،
فتقف عارية على هذه السجادة، كما خلقها الله عز واكبر، تبارك
تعالى عليه وعليك. ثم ترقص فترقص حتى يشع من صدرها
ومن جوانبها النور الاقدس. ان المرأة الجميلة، يا احباب
الجميلة الوجه والجسد لأعز واغلى من الممالك العربية كلها».

ومن الطف ما رواه تلك الليلة خبير خطورته للمرة الاولى يشاهد
سيدة بيضاء اوروبية:
«كنت لا ازال بدويا ما شاهدت من النساء غير العجائز وبائعات
اللبن، والباشات والشاحبات والمشوهات، وقد ثقب
الجدري، او عصفر المرض وجوههن. وفي ذات يوم جئت
وصديقا لي الى القهوة - الى كهف قاتم، ويسمى بلبق تامبا لبنان -
وكنا نحن الاثنين في نشوة من الخمر. وقبل ان انتحينا مكانا
هناك ~~[illegible]~~ وقفت في الباب سيدة انكليزية. سيدة جميلة بيضاء
هيفاء، تلبس قبعة زانها الريش، وتحمل مظلة. دخلت هذه
السيدة القهوة، ومشت الهوينا بين الدواوين الخشبية
المكسرة، تجيل نظرها بالمكان وبروّاده. كنت واقفا الى
جانب الطاولة التي جلس اليها رفيقي، فاحسست ببهجة
تجليني، وبخلاء قلبي، واحسست كأني تسمّرت في مكاني.
ما كان في حياتي من نعمة ربي يا احباب، مثل هذه
النعمة. للمرة الاولى في حياتي اشاهد امرأة حسناء
بيضاء هيفاء. فقد عقل الابتهاج لساني والله يا فاصبحت كالطفل
ينظر

ننظر الى دمية تمشي. وعندما دنت هذه الدمية منا
مكاننا، فزدت جسمي، ورفعت يدي الى صدري، وطأطأت
الرأس مبتسما. فابتسمت هي كذلك يا امين، ~~[illegible]~~
فانحنيت مرة ثانية، فأحنت هي
~~خلال اللطف والكرم~~
رأسها، وكانت في تحيتها الصامتة مثال اللطف والكرم.
ما توقعت ذلك منها، لا والله. بل كنت اظنها انها
ستوبخني، لتعرضي لها بنظرة وابتسامة. ولكن الشاعر
الاكبر يا امين، ينظم قصائده، لا كما ننظم نحن الشعراء الصغار،
بل هو ينظم من لا مانية عين نقاده، فتجيء القصيدة كاملة
في كل محاسنها. وتلك الحسناء البيضاء من عزر
قصائده. وكأنه سبحانه وتعالى، كان يتلوها علي للمرة
الاولى في ذات اليوم. ~~[illegible]~~ فسمعت والله حتى انها لتغني،
ورأيت والله جمالها يزهو ويرقص امامي. ولكني ~~[illegible]~~
سألت نفسي: هل السيدة التي عشقتها فخرجت من القهوة،
هي صنعتها ام صنعتني انا لذلك؟ هو امر يحيرني. وساعة
اكون في حال اليقظة هذه - وقد اكون ساعتئذ سكرانا او صاحيا -
اشعر بالنفس الالهي، واحاول ان اقلد الشاعر الاعظم. وما الشعر
يا امين؟ انا نفسي آية شعرية، وهل آية الهية، ساعة
انظم الشعر واجيده.»

. . . .

وما الشعر الا كل ما رنح الفتى   كما رنحت اعطاف شاربها الخمرة
وان ابتسام الغيد في كل انشيد   لتطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر (1)

(1) راجع الجزء الثاني من ملوك العرب صفحات ٢٧٦ - ٢٨٠

فلا عجب اذا جبن الغريم وارتاع، وفقد حتى موهبة الشعر،
فنطق بما هو شبيه بالبشر، وراح يستعطف الملكين ويرجوهم
ان يتركاه ولا يزعجاه ولكن الاستعطاف لم يجد نفعاً، فنفخ
وهاج وشرع يقرع المنكرين، وقد وقف امامهما موقف السائل
الخائف، لا المسؤول ~~المحكوم~~ المرعوب.

ان للادباء والشعراء في اوروبه وامريكه عادةً
في الاكرام مرعية مستحبة. فاذا كنت معجباً بشاعر منهم
شعرائهم، وجئته للمرة الاولى زائراً، لتعلم منه، فهو
يهديك رسمه او نسخة من ديوانه، ولا يخفى
ما في ذلك من الانانية — ها انا ذا في رسمي وفي
عبقريتي — التي تكاد تكون مجهولة في الشرق. فعندما
زرت الشيخ رضا الشبيبي في بيته بالنجف في فصل
الخريف من عام ١٩٢٢، ما اهداني رسمه، ولا
شيئاً من شعره. بل قدم لي ما يشرف النظر عن
نفسه، وما هو في نظره اثمن واعز - قدم لي
نسخة خطية قديمة من كتاب عربي قديم.
وما كان اشبه الشاعر في صباح ذاك اليوم، وهو متربع
على فراش فوق حصير على الارض، في وسط قاعة
فرشها عادي قليل، وامامه طاولة صغيرة عليها
اوراق وحولها كتبه، ما كان اشبهه بصورة من الصور
التي تزدان بها الكتب الخطية الفارسية. الا انها
قاتمة ساكنة، لا تذهيب فيها، ولا وهج
لالوانها. وما اطار هذه الصورة الحية غير جدرانه
الغرفة الدكناء العارية، وفيها نافذتان تشرفان على
جدران البيوت الملاصقة لبيت الشاعر. كأن الصورة
واطارها صنع فنان يحسن التجانس في فنه،
فيلتئم الوجه الهادئ والبيئة الدكناء التي تماثلها
والتقاليد السقيمة القاسية التي احيى الشاعر
فيها ايامه ولياليه.
أ أقول احياها؟ ما اخذت انا طفراً في قصة كان
يغبط الشبيبي، او لو ود ان يكون على شيء من
حالة

حاله في تلك الايام. هل يغبط السجين اخاه في
سجنه ؟
ولكن الشبيبي فرَّ من قفصه في السنة
الثالثة هاربًا الى بغداد، حيث علق جناحه في دبق
السياسة، فغدا عضواً في المجلس التأسيسي. من
قفص عتيق الى قفص جديد مطلي بالذهب! فلا
عجب اذا طاقه سنة او سنتين، ولا عجب اذا فرّ بعد ذلك
منه، كما فرّ من قفص النجف، متبرمًا من الشرائع ومن
المجتمع. طار الشبيبي الى الكرادة، فبنى له عشًّا
هناك، وطفق يغرّد على افنانه للحرية والحب والزهادة.
هناك على شاطئ دجلة، في ظلال النخيل لا قفص ولا
رقابة، ولا من يقطع عليه نعمة العزلة. هناك
ظفر الشاعر بأمنيته الكبرى.
ومع ذلك فهو لا يزال في قيود اختارها لنفسه،
هي قيود التقاليد او بعضها في الشعر وفي الدين. فان
كان قد نفض غبار النجف عن جبينه، وعنكبوت
النجف عن عمته، فهو لا ينبذ ولا اظنه يستطيع
ان ينبذ من عقله ومن قلبه ما ورثه الشيخ العربي
من الاجداد، اي الارث الشعري الادبي الديني.
وهذا ما يميزه عند الشعراء الآخرين. فقد يكون افق
شعره دون آفاقهم اتساعًا، وقد يكون خياله حسل
ضاعنه الشعرية عنه المقلد المألوف، ولكنه شديد
الحس، صادق اللهجة، نقي الفكر، نقي العبارة،
مع شيء فيها من التجهم والقساوة.
رضا الشبيبي شاعر روحي لا يغره الغلم، ولا يطوح به
الجمال. وهو شاعر تقليدي يحترم الماضي، ويتورع للحاضر
ا. ريحاني

وينظر الى المستقبل بعين الرضى والاطمئنان. انما سبيله الروحي
لا يخلو من الوعور والعقبات. بيد انه مؤمن على الدوام
حتى في حيرته، ومطمئن حتى في اضطرابه. وقد
يُعدُّ من ~~المترددين~~ وهو ضمن دائرة محدودة وان اتسعت،
من المترددين. وقد نفترضه اذا ما حاول اجتياز الحدود،
عناية الهية او شبه الهية، فنعود الى ربوع الايمان،
وفي قلبه خشوع، وعلى لسانه كلمات الحمد والرضى.
وقد يدنو الشبيبي في غفلة طاهرة من ظل العرش
الاعلى، قد يدنو حتى من العرش، والشعلة لا تزال في
قلبه، والشرر في ناظريه، فنخرّ بعد ذلك جبهته
ويتضمخ بالطيب، ويجلس على فراش الحب والوداعة،
وقد صفا نوره، وسكن شعوره، مثل سلفه الشريف الرضي.
في مجموعة متسلسلة من الشعر، شبيهة بملحمة
وجدانية، تتجلى روح الشبيبي في نضارتها وقتامتها، وفي
يقينها وحيرتها، وفي اطمئنانها واضطرابها، فهي تحلق
في سماء الخيال والخفقة حول رواسيها العالية، وفوق
الوهاد السحيقة بين تلك الروابي؛ فتثب من قنة الى قنة
ثم تعود سليمة آمنة الى بستانها في الكرادة. او انها
"سكرة النفس" في بحر زاخر منه
تجري في لجج ... ولا قاربت مرسى -"
الهول ، وما انشطأت حيناً ولا قاربت مرسى.

«تجللها ليل طويل وما رأت
على طوله بدراً ولا طالعت شمسا
سفينة نفس غامرت وتعرضت
لها اللجج لا يبقين من احد نفسا»

ولكنها نجت من تلك الاهوال، وما نجت من توبيخه لها.

/ خيالي

«فيالك عقلاً ما أشد عن الهوى
ويالك قلباً ما أشد وما أقسى»

قد يكون الشبيبي رباناً لسفينته ماهراً، ولكنه لا
يستطيع أن يقول ما قاله الشاعر الانكليزي إرنست هنلي:

«إني لنفسي الربان
وإني على أمري المهيمن»

بل هو يتقلب ويتردد في أقدامه وتطوحه، فيصعد
ثم يهبط في سلم الفكر والإحساس:

«الحمد لله من بعد أغوار زللت بها
فانجاب عنه نفسي بالله إنجادي
وقد حدتني أهواء مضللة
عدلت عنها وضل الركب والحادي»

وهو يدرك في ساعة الندم أن الله سبحانه وتعالى لا يزال على
عرشه، مشرفاً على الكون، يبدأ بحياة الإنسان شقاءً
وبلاءً لما فيها «من ضلال، ومن كفر وإلحاد». فيشكو الشاعر
ولا غرو حتى صحبه وخلانه، وينشد التعزية والسلوان
في الوحدة والزهادة:

«غريب بهذي الدار طال اغترابه
فلا بد ذهبه أهله وصحابه
وأسعد خلق الله من جاء في غد
قليلاً تقضيه يسير احسابه»

وقد سدد خطواته في السبيل الذي يصدق فيه
العمل القول، والخبر الخبر، فقال:

«وإني

"وإني لميّال الى محو ما جرى
به قلمي او ما تضمنه طرسي"

كتبت وقد جاريت فيما نظمته
علاجًا لأهواء النفوس هوى نفسي"

انه لشاعر صادق اللهجة، متقد الوجدان، وهو الى ذلك حلو الشمائل لطيف المزاج. فيحاسب نفسه ويؤنبها، ويستمر في سبيله متمهلاً متورعاً، حيناً على طرب، وحيناً على كرب. وها هو يشجيك وقد وقف بين قلبه وعقله وقفة الحائر المكتئب. فهناك الحبيب، وهناك الرغبة بالزيارة والرغبة عنها تتنازعان فؤاده.

وقد جاء في هذه القصيدة ببيت فريد في معناه، ما قرأت مثله في الشعر العربي ولا الانكليزي. ففيه ما يتغلب الشاعر على التردد في نفسه، ويعتزم الزيارة، يرده في الباب رادع متورع:

"وطالما جزت في وجد فلم ادرِ
الا وقد علقت يمناي بالباب"

والناس يزوره من الاحباب ليزورون الجسم منه، اما الاحباء فهو يتمنى ان يزورهم، وهم مع ذلك المقيمون في نفسه على الدوام:

"يشغل السمّار جوارحي وشغلتم
روحي فكنتم دونه سمّارها،
لكم حقيقتها التي خلصت لكم
طوعًا ونال سواكم آثارها"

وفيه الحقيقة الرحيبة تبرز في بيت عن عمره اجاد في معناه:

/ كمل

« حلل ما نشاء زماني لست لي عمراً
اداركها اتمناه هو العمر »

قلت ان رضا الشبيبي حرباً على التقاليد الشعرية قلباً وقالباً. ولكنه في صعوده ونزوله في سلم الفكر والحقيقة يستحب الوقوف عند بعض المبادئ العلمية الحديثة كمبدأ بقاء الانسب مثلاً فيقول:

« اطبقت اسفاري وقلت لها اغربي
سفر العوالم بعض ما اتصفح

واذا تنازعت البقاء عوالم
مع الأصح بقائه والاصلح »

وهو يحمل على اهل الضلال والخرافات في قوله:

« عهدت اهلك لم يبطل تكيدهم
على الطغاة فلم جاروا طواغيتا

ملفق من مخاريق كلامهم
ومن محال وان اسموه لاهوتا »

ثم يعود الى حسه الشرقي الحقيقي - الى ايمانه بالقضاء والقدر:

« ومن الجهل لا من صحة العقل اننا
نحكم في الاقدار اوهام عاقل.

امور باسباب المقادير علقت
على حين أعيى نيلها بالوسائل »

١٠/

هو لا يرى ان في هذه العقيدة عقالاً لشبان
الشرق، وهم في معترك هذه الحياة الحديثة الغربية
الالوان والاشكال. بل يرى عكس ذلك. اني انقل
ما نثره السلمي [?] المتين كلمة كتبها في "التفوق الغربي
الموهوم" قال:

"نحن الان في عصر الشك، كما يقول فريق من اهل
الغرب. ومن ذلك ان شكّنا الان يتناول حتى أُسس
الثقافة التي يريدها معظم الغربيين للشرقيين. ومن بين
هذه الأُسس غمز الشرق والشرقيين، والتنديد تصريحاً
او تلويحاً بقيمة اثرهم في الحياة. حتى ضعفت ثقة
شباب الشرق بانفسهم، وسيطرت الاوهام [?]، وتلاشت
في بعض الجهات، وحل محلها الثقة المطلقة بتفوق
الغربيين وعبقريتهم

"هذا الى ان نشبت الحرب العامة الاخيرة، واسفرت
بعد ان ظهرت اسبابها ونتائجها للعيان، عن حركة
فكرية عامة تجتاح الان اذهان البشر بدون تمييز، ويتوقع
ان يكون من نتائج هذه الحركة الفكرية رجوع القوم عن الشطط
في احكامهم على الشرق والشرقيين، ونبذ دعوى التفوق الغربي
الموهوم، والتسليم بتكافؤ المواهب والكفايات في اصل
فطرة الجنس البشري. فليس في الدنيا من هذه الناحية
شرق ولا غرب، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة
وفق احكام سنن الكائنات العامة (النواميس الاجتماعية
والعمران) ولا شيء افعل في تجديد شباب الشرق،
واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته وعمرانه،
من رسوخ هذه العقيدة القومية فيه."

ومن قفص النجف فرّ طير آخر هاربًا، فرّ طالبًا
قسمته من الإرث السماوي. هو طير ولا كالأطيار،
له منقار البومة، وصدر الورقاء، وجانح الهدهد،
وذنب الطاووس. وله في الشدو هديل الحمام،
وصفير البلبل، وعندلة العندليب. هو طير غريب،
فريد، يدعى بين الناس بأحمد الصافي، ويُعرف
بأنه من المجددين وأنه من البائسين.

فقد ولد في النجف الأشرف، يوم كان الحسن الخلقي
والصحة والنعمة تتنزه كلها في الكون الأعلى، فما حققته
بنظرة ساعة الولادة، ولا دنت بعد دنت من ملعبه
أو من رحله، أو من كوخه. ولا أحسن الترحال
ما عوّض عليه النجف بشيء مما حُرم، ولا
ما لزمه من سوء الحال. فقد تنقل من كوخ الى كوخ، ومن
بلد الى بلد، ومن صحار في البادية الى أخرى، ومن مضارب
البدو الى مراتع الحضر، ومن مستشفى الى ~~[illegible]~~ لا
يشفي الى مستشفى لا يرحم، وهو في كل أحواله مجهول
غريب. فقد كان يدعى عجميًا في النجف، وعربيًا في
بلاد العجم. ثم راح يقيم بين البدو فظنوه من الحضر، وجاء
سورية فظنه أهلها من البدو.

إنه لطير عجيب غريب. يحسن الطيران والغناء، ولا
يحسن سواهما. وهو كما المحب وليد برج النحوس:
فالدمامة أمه، والبؤس والده، والسقم أخوه، والفقر
ابن عمه. بل إن له من الأسقام إخوانًا يعيشون في
أعضائه الحيوية كلها وفي أعصابه. أما الروح منه فهي سليمة
قوية. هي روح جبارة في هيكل سقيم

"أسير بجسم مشبه جسم ميت
كأني إذا أمشي به حامل نعشي"

ر. كليلة

ولكنه ثائر لنفسه من أسرة الأسقام والآلام
أسرته، فصب عليها من قوافيه جام السخرية والغضب.
ومن ذا الذي يلومه، إذا انهمرت دموعه، لعد رعود
الغضب وبروق السخرية؟ هي الطبيعة، هي سنّة
السماوات. وهذا الشاعر هو كالطبيعة في
صدقه، وكسنّة السماوات في خيانه وغضوبه
وتجاه بروقه، ورعوده، وتهطاله.
فإذا نحن حملنا على الشعر الباكي، الذي ألفه شبان
هذا الزمان، وقلّ فيهم من كان محروماً لنعم الحياة،
فإننا نحمل على عادة أصبحت مرضاً اجتماعياً مهلكاً للنفوس
والأخلاق. أجل، إننا نحمل على التعمل والتعمد والتخنث
في الشعر الباكي، نحمل على دموع الزور، وعلى دموع الخوف
والجبانة، وعلى دموع الشعر السوداء، المكونة من الحبر
الممزوج بماء العواطف الأنثى، فهي مثل اسمه حانية
أما دموع هذا الشاعر فهي من نفسه ومن قلبه، لأنه
وهي من نفسه
مثل نفسه صادقة، لتتلألأ بالابتسام المحزن،
وإنها الى ذلك
صور شعره وهيبته
والقهقهة الساخرة، ليجس الضحك
أجل، إن الطائفي على بؤسه وشقائه(1) ليشفي نفسه
والتهكم. فهو هو الى القط والفأرة
من وراء الناس. وهو يعجب منه الأطباء الذين يحاولون
أن يحرموه داءه، ذلك الإرث الوحيد من أبويه.
وهو يكفر ويتوب، ويبرأ الى الله من شيطان
شعره، مخلده في النار. وهو يبني قصوراً في

---

(1) "الشاعر والفأرة" و"الشاعر والقط" من قصائده المبكرة في ديوانه "الأمواج"

وان له نظرات

الجبان: «فيهدمها دَرْويش لعنة الله»

في النفس نافذة ذابحة، فيريد مثلاً ان ينزع عنه

كل اثواب العقائد، ولكنه يخشى، وهو ينزع الثوب

تلو الثوب، ان يكون قد كوّن منه الاثواب، والا

يجد روحاً وراءها (1) وله قصيدة عنوانها

العدالة، لا دمعة فيها، ولكنها تستذرف الدموع،

مطلعها:

«وجهي دميم وقلبي عدو كل دميم
لذاك تبدو لعيني المرآة مثل الخصوم
اني لأرثي لعيني تشكو لوجهي الدميم
لو كان وجهي بكفي القيته في الجحيم»

قد يكون في الكلمة المأثورة: ذكاء المرء محسوب عليه

شيء من العدل الاعلى. وقد يبالغ رب ذلك العدل في

المحاسبة، فيحرم صاحب الذكاء كل نعيم الحياة، الا هذه

التي توحي اليه الشعر، ولكن الشاعر يتشدد غالباً

~~الليل~~ للبادية والليل — وللكوخ والسراج، فمثل هذا

الشاعر النجفي، وللقطط والفئران: ذكاء المرء محسوب

هل يستطيع ان يتحول والحال هذه

عليه؟ وهل هو يجد في ذلك شيئاً من التعزية تغبر

تلك التي يجيء بها النظم والابداع. فما اضألها من

تعزية، لا سيما اذا كان الشاعر لا يمده على الدوام

بانوار الوحي والابتكار.

لاورثه الوحي. لا نظنه ان القدر كان عادلاً في

يحسب صفائيسا للعدل —

ل نظيف، احمد الصافي

محاسبة احمد الصافي من قصائده الصغيرة

(1) «اثواب الروح»

وليس لدينا سواها - ان الحساب مغلوط فيه، ونأمل ان يُصحَّح في حياة اخرى، بالتصافي او بالجبر في دورة ثانية او ثالثة من حياتنا الارضية.

اما في هذه الدورة فالخيال وحده يخفف من نتائج ذلك الخطأ في الحساب. فاذا كان فيما هو قوت القلوب يعيش في الخيال، فما ذلك اختياراً منه. فهو كما نقول لا يرضى الجنس الخشن، فمنه انه لا بد ان يرضي الجنس اللطيف وانه ليجد حتى في الجنس اللطيف، وجوهاً غير لطيفة لا يستطيع ان يستميلها اليه. وكيف بالحسناء؟!

"التي تأبى الزحمة حتى في النفس"

ان ذلك ليشجي ويغيظ وانه ليبعث في النفس قنوطاً ليس وراءه قنوط او رجاء. فلولا رحمة الشعر لهتف الشاعر: على الدنيا السلام واستحب الحمام. ولكنها تغريه بوجهها فتستوقفه في الباب متلطفاً ومتجملاً - الا انه ما حاول في شعره على ما اظن غير الموت!

"وانا اهواك غير اني لا ارضاك
تأتي بالكره والاجبار
وكم هممت ان ازورك لكنه
خفت ان تشتكي الاذى من مزاري"

ان دمية الشعر للغربة بالحياة فتفتح له ابواباً جديدة، فيلج منتهجاً، وقد نسي كل ما به لا قيد [illegible] الجمال [illegible] الشمثاء التي تمثله برغوثاً في ثوب احدى النساء.

"انال منها بغيتي بالرغم عن حجابها
اشمها من فرعها والمسها كعابها"

فينظم القصائد التي ليس فيها غير مرهم لجروحه،
كقصيدة "فتنة الجمال"، وينظم غيرها وغيره
الجديد المبتكر، مثل تلك القصيدة الشعثاء
(أقلب)

وليسكرني شبابها، وهو يتزلق فوق جسمها،
سكرة غرامية عمياء:
"فندوم سكري كما تسكر من شرابها"
ثم يتجلى فيختم القصيدة متفاديا!
"وان تحدّي كفها أمت فدا شبابها"

ومن ارق ما اوحى اليه الحرمان، وصور الخيال، ثلاثة
ابيات نظمها اذ رأى رسمه في احدى الصحف ينطبق
على رسم آنسة في الصفحة المقابلة فقال:

ادن قوامك ضمّا
رما نلت من فيك رشفا
من رسم خدك لثما
لكنما نال رسمي
رسم يغازل رسما!!
فاعجب لحب غريب

لا نكران ان شعر الصافي مرآة روحه، وهي تعكس صورة
على شيء كثير منه بحسن، ومن النبل والحنان. وهي كذلك
روح بدوية ساذجة، غبار البادية لا يزال عليها. فهو
بدوي في صراحته المشجية، وفي نبراته التي تتخللها العبرات
او القهقهات، وفي شدوه المتبجح بابن الربابة،
ميزة شرقية عالية هي الصدق والصراحة، فهو
وحنينه الساقية: لا يتستر بشيء، ولا يأنف
لهذا الشاعر في وصف حالته واحتياجاته وغطاءه. ولا يهمه
ان يريك سراجه ولوحه، وحتى فراشه
ان ترى — اللهم — حرفا من رداءة
تغض الرضى والاحترام
احمد الصافي
او تقشفا في عباءة احمد الصافي تغني بكل ما هو
مما اختاره هو لنفسه، ومما فرضته عليه الاقدار،

فلسطين

فيطربك ويشجيك ، وان اسلوبه في الوصف
سهل قويم بليغ يلتزم الحقيقة فيه ، ويزينها بالمعاني
الجديدة . مثال ذلك قصيدته "الوحدة" وخصوصًا
ابياتها الاخيرة التي تبدأ بقوله :

وان رمت تاريخ حزني   سل مفرشي وغطائي !

او الابيات الاخيرة من القصيدة التي يصف فيها غرفته :

"أغرفة للمنام هذي   ام هي منفى له نصبت !"

على ان البدوه تبدو ~~[illegible]~~ اصدق مظاهرها في ما يصلح ان
نسميه "العقليات" في شعره، وهو فيها الحائر
المضطرب الذي لا يزال حتى [illegible] بعض النزعات القديمة [illegible] المتأرجح بين
الشك واليقين . فهو حينا يتغنى بالزهد
وحينا يحن الى طيبات الارض ، وتارة يحمل على الجهال ، وطورا
على العلم . انا في مقاطعه "انغام مشوشة" كثيرا
من هذا التناقض ، ~~[illegible]~~ وفيها البرهان على
صدق شعور الشاعر واخلاصه .

وقد شاب في الحب رأسي   والقلب ما زال طفلا

يا رب ارجع شبابي   او هب فؤادي عقلا "

ثم ~~[illegible]~~ يقول في الصفحة المقابلة وهو صادق في الحالين :

"كلما يبنيه قلبي   يهدم العقل بناءه "

ومن هذا ~~هذا~~ الباب قوله في المعاني والالفاظ :

"ارى الشعر في الارواح لا الكلم كامنا
ولا في بحور خاليات من الدرّ

فكم شاعر فاه بالنظم مرة
وكم ناظم ما قال بيتاً منه للشعر؟!"

ثم تقول:

"اللفظ قشر وفيه لب المعاني لقرّائه
فاللب يفنى سريعاً ان لم يحط فيه قشر"

أفلا ترى [illegible] الحقيقة في جهتي المسألة؟ كأن
الشاعر والفيلسوف يتنافسان فيهجم الواحد على الآخر.
"لست أدري اذا كان الصافي نظر الى المسألة نظرة
سقراطية أفلاطونية. وقد لا يكون مدركاً لغير الحيرة
التي يلزم الشاعر [illegible] في موقف لا [illegible]
تتناسب فيه المعقول والمحسوس وتتوازنان، كالبدنين الإثنين
من واحة واحدة. فالفطرة تبني لهما البيت، والصراحة
تصيغ لهما القوافي."

ومع ذلك فأنا أرى الصافي غير صاف في عقلياته،
وما هو فيها [illegible] بالمفكر المجدد. وكذلك قل في
قصائده الوطنية التي قلما تمتاز عن شعر سواه، وهي تكاد
بقي ان أقول كلمة في آفة الشعرية، أريد
تكون آفة الشعر العربي خصوصاً في هذا الزمان.
بها الإسراف في الخيال، وفي الألفاظ، وفي المعاني،
الرصين منه صور لا وحدة منفردة، أجادت في محلها أم
لم تجئ. وهي تنزح في التعقيد، فتبدو فيها
[illegible] أو مقلقلة.

[illegible]
وكلمة أخرى ان الشعر العربي الحديث يكثر فيه

الصائغ

الصناعة اللفظية على الاجمال، وثقل الصناعة المعنوية، كما انه
عام بالخيال، ومفتقر الى الفن في التكوين
اي الى الاتساق والتجانس في الصور والاستعارات،
والى الوحدة المعنوية في القصيدة.

مثال ذلك من شعر الصافي قصيدة "نجمة الصبح"
فان فيها صورا شتى تتزاحم في ذهن القارئ، ولا تترك فيه
اثرا بارزا، او شكلا واحدا جذابا، كامل التكوين. فالشاعر
في مطلع القصيدة يمثل كوكب الصباح رفيق سفر سبقه
الرفاق، فيسليهم تارة، وطورا يشتعل كمدا، وحينا
يرف كجناحيه ليطير فيدركهم، وحينا يتخبط حائرا قلقا.
ثم يبصر رفاقه وقد غرقوا في بحر من النور، وهو الذي
نجا من الغرق يسبح لينجيهم.
اما النور فهو في كل حال من احواله يتغير صفاته
واشكالا، فهو الدموع، وهو النار، وهو الجناح، وهو الغرق،
وهو الاكف التي يمد بها عن رفاقه لينتشلهم من اليم
فيهتاج البحر لذلك، ثم تجيء الشمس هائجة لتغرقه هو
كذلك. فالصورة هذه لو وقف عندها، هي صورة
كاملة موحدة على ما فيها من اضطراب. ولكن الشاعر
استسلم للخيال الخصب فراح يصور كوكب الصباح - ذلك البطل
الذي انبرى لانقاذ رفاقه من الغرق - راح يصوره
كطائر اصبح في قفص، وقد استحال نوره سلسلة
او كسجين في السماء، وقد استحال نوره سلسلة
على عنقه ورجليه!

فلو اقتصر الشاعر على صورة واحدة من هذه الصور،
مثل كوكب الصباح ينازل الشمس مثلا، فبينا زعا الوجود،
او مثله رفيق سفر يجد ليلحق رفاقه، وشذب الصورة
(ولينقذهم)

عنها من الزيادات ، لبرزت
من كل ما يعرض الذهن
القصيدة في صورتها الواحدة الكاملة أبلغ وأجمل مما هي
في صورها المتعددة ، ولكان لها وقع في نفس القارئ
شديد ، وأثر لا يمحى . فإن التبدد وجلية
لأن الذهن الصافي يجهل هذه الحقيقة .
في قصيدة "ليلة ماطرة" ذات الصورة الواحدة المتسقة
~~ولكنه لا يتوفق دائماً الى~~
المجردة من فضول القريحة ، ~~[illegible] الذي يقوم على~~
~~[illegible] الفن الصافي الشيق [illegible]~~ وخيالاً ،
الإحساس والنماس [illegible] وحقاً
ولذلك في تلك القصيدة الفريدة في بابها التي لم
تسبق على ما أظن اليها - أعني بها قصيدة الشاعر
~~وطلوعها~~ وعند ما تبهر !
تغيب بشعور المرء في الكوس الطلا
ويلحق كأنما في عقل المفكر

إذا ساق همّ الدهر نحوي جيشه
لاقيته من أقداح ساري بعسكر

~~[illegible]~~ حافلة بالمعاني الجليلة وهي كاملة حتى نسبته
في الوحدة الشعرية . فعسى أن يتوفق ~~[illegible]~~
الشاعر ~~[illegible]~~ دائماً الى هذا الفن المشذب
العالي الذي يصفو ويستقيم فيه الصنعة
والخيال .
والفكر

الفصل السابع

الصولجان والرمح والعصا

—

القوة المعنوية في الامة - الالعاب الرياضية -
ومسألة اهم من المعاهدات - ساحات الالعاب -
لعبة الصولجان اي البولو عند العرب - بشار بن برد
والخليفة المهدي - الفروسية والمطاردة - الفرق
العراقية والفرق الانكليزية في لعبة الصولجان - فوز
العراقيين بكأس البطولة - في الميدان - الصولجان
والخيول العربية - البولو واصلها العربي -
الالعاب والاديان من الشرق -
في نادي الضباط - ثناء الضباط العراقيين على الاساتذة ثم
الانكليز - الانكليزي الكريم الاخلاق والانكليزي المتعجرف -
صيد الخنازير البرية - المطاردة بالنبال - ضابط
انكليزي يغرق وحصانه في الوحل - يلاحقه العراقيون
ينقذونه - العراقي امهر من الانكليزي في صيد
الخنزير البري - اخطار الصيد - من يصيد
الخنزير ومن يأكله - قصة طريفة
الكشافة - تاريخها في العراق - اهتمام الانكليز
بها - تأسيس سبع فرق في العاصمة - الاحتفال
الاول - الاستغناء عن المعلمين الانكليز - الادارة
تنتقل الى الوطنيين - الملك فيصل حامي الكشاف
الاعظم - الكشافة في الالوية - الاحصاء الاخير -
حالة الكشافة اليوم - الاجتماع الكشافي العام
خمسة الاف كشاف يستعرضهم الملك غازي -
مطلع الوطن الجديد - النهضة الوطنية
من هو الكشاف

—

الفصل السابع

الصولجان والرمح والعصا

—

القوة المعنوية في الامة تضمن وتعزز قواها المادية كلها. فقد حدثت القارئ، في الفصول السابقة، عن السياسة والتعليم والشعر، وهي بعض العناصر التي تتألف منها تلك القوة، بل هي بعض عوامل النهضة العراقية الوطنية والاجتماعية. فالسياسة وحدها لا تصلح شؤون الامم. والسياسة والتعليم وحدهما لا يرفعان تلك الشؤون الى المستوى الاعلى. واذا اضفنا الى الاثنين الشعر، مغذّي الارواح ومهذّب الاخلاق، فالارتقاء المنشود ممكن، الا انه غير مأمون السلامة والثبات. لا بد اذن من عامل آخر. فقد تكون الامة مهذبة وضعيفة معاً، وقد تكون راقية في تهذيبها، صادقة في وطنيتها، وتظل في حاجة الى القوة المستيقظة الوثابة للذود عند دمارها حين الخطر، والتعزيز جانبها في كل حين. اجل، مهما كان مقام ارتقاء الامة، وطنياً واجتماعياً* وادبياً، فهي تظل في حاجة الى ما يحفظ كيانها العالي، اي الى القوة المعنوية المخزونة، التي تبعث في ابنائها النشاط والحزم والشجاعة والاقدام. هي القوة التي تنشأ عن الصحة والمرونة في الاجساد وفي الاخلاق، وهي وبكلمة اخرى هي القوة الكامنة في الارواح والعقول. الالعاب الرياضية. فالامة التي لا تحسن اللعب – اللعب في الفلاة لا في القهاوي المظلمة – لا تحسن العمل، ولا تأمن في رقيها وعمرانها غوائل الزمان.

* عندما زار بغداد في سنة ١٩٢٢ اللورد دانبلي، مدير جريدة المورننج بوست بلندن، قابل الملك فيصلا ابشأن

بشأن المعاهدة الانكليزية العراقية في تلك الايام. وبعد المحادثة
السياسية قال: «وهناك مسألة هي اهم من المعاهدات
احب ان اعرضها على جلالتكم». فاشرأب الملك فيصل اليه
واصغى من كان حاضراً أذنه، فقال سيادة اللورد: «نعم
هي مسألة مهمة جداً. متى يصير عندكم في العراق فرقة للعب
البولو؟» فضحك الملك، وما ظنه ان سيكون لهذه
المسألة شأن [illegible] في المستقبل القريب.

—

ان لعبة البولو فارسية الاصل كما جاء في دائرة المعارف.
وقد ساحت شرقاً من بلاد العجم الى الهند والصين، ثم غرباً
طريق الاستانة الى اوروبة، ثم راحت من الهند الى انكلترة
في سنة ١٨٦٩، على يد ضباط انكليز. وهي الآن، والحمد لله
ولصاحب جريدة المورننك بوست الشريف الظريف اللورد [illegible]،
تعود لبغداد تحف تُرى من لندن الى الشرق. فما اعجب
سياحات الالعاب!
لو كان العرب، بل لو كان الشرقيون يعنون بتواريخ العالم
عنايتهم بتواريخ الملوك والحروب، او عنايتهم بالشعر والاساطير،
لجاء في كتبهم عن هذه اللعبة الشيء الكثير من الطرف
والاخبار. ولعلمنا [illegible] ما كان من شأنها ببغداد.
بيد ان العرب يذكرون، على ما يظهر، الكرة كيفما لُعبت:
على الاقدام او على صهوة الخيل، بالرجل او باليد او بالمحجن،
ويحسبونها تليق بغير الاولاد. وما جاء ذكر البولو،
اي لعب الكرة بالمحجن على صهوة الخيل، غير مرة، على ما
نعلم، وذلك في بيت من الشعر لبشار بن برد.
على ان اللعبة هذه كانت معروفة عندهم، وان لم تكن
مألوفة، وقد أسموها بالصولجان (١) اي باسم العصا التي
تُطارد

(١) اقلب

(١٦) صلح فلزنا بالعاخر ب... والصولجان المحنة

ومنه صولجان الملك

تطارد بها الكرة. فقد نظم ابن بشار في هجاء الخليفة
المهدي بيتين من الشعر البذيء يكفي ان نذكر منهما
البيت الاول، وفيه الشاهد على ما نقول:

"خليفة ينكح عماته ويلعب الدبّوق(1) والصولجان"

قيل ان هذا البيت والآخر الذي يليه كانا السبب في غضب المهدي على
الشاعر القديع ... الغضبة التي حملته الى الموصل ليقتل بذلك
فامر بضربه بالسياط، فضرب حتى زهقت نفسه. اذا
صحت هذه الرواية كان للصولجان ببغداد ذكر منجع
وهناك شاهد آخر على ان لعبة البولو كانت معروفة
عند العرب، وانها تسمى بالصولجان. ذلك ان الصولجان
شبيه بالمحجن(2) والمحجن اي العصا المنعطفة الرأس،
هو شبيه بالعصا التي تلعب بها هذه اللعبة الشرقية
القديمة. اما العرب اتخذوا اسمها من المحجن اي
الصولجان، لا منه الكرة. فذلك معقول.
اما انهم فضلوا غيرها (من الالعاب عليها) [illegible]
[illegible]
[illegible] لاستعدادهم لشن ... الفائدة حتى في العابهم.
ان لعب الجريد مثلا يعلم الفروسية، والفروسية لازمة في
الغزو. وكذلك الرماية فهم يلعبون بالقضب في صباياهم
اللعبتان اذن، الفروسية والرماية، تعلم العرب
الاصابة [illegible] والمطاردة، والاغارة، وهي
من الصفات اللازمة في لعبة الصولجان، وقد اخذت
من تراث العرب مثل الكرم والشجاعة. فعندما بدأ
الضباط الانكليز يعلمون العراقيين الصولجان ما خطر
في بالهم ما تكمنه لهم الفروسية العربية. ولا خاطر
ما لديهم

دبق دبقا لصق به، ودبّقه اصطاده بالدبق

(1) من دبق يدبق دبقا لصق به ... والدبوق لعبة. ويقول
(2) محجن العود عطفه، ومحجنه التي جذبه بالمحجن الى نفسه. ... اي عصا طويلة في رأسها عقفة. العامة في لبنان محجيلة.

في بال اللورد إيسلي عندما عرضه على الملك فيصل

"مسألة هي اهم من المعاهدات" ان سيطرحي

المستقبل القريب ان تنشر في جريدته اخبار فوز الفرقة

العراقية على الفرقة الانكليزية في لعب الصولجان.

هي الحقيقة. فقد انتصرت فرق الجيش العراقي سبع مرات،

في خلال ثلاث سنوات على فرق القوة الجوية الملكية البريطانية،

فظفرت بكأس جاكسون في اذار سنة ١٩٢٩، وفي الشهر

التالي من السنة نفسها احرزت [illegible] كأس البطولة

المهداة من السر بنثم كارتر (١). ثم جرت المباراة

في الهنيدي، في شباط سنة ١٩٣٣، بين اربع فرق منتخبة

من اللاعبين جميعاً العراقيين والانكليز، على الكأس

المقدمة من السر جان كادمان (٢) فخسرها الانكليز.

فهل ينتظر منهم ثلاث مرات متوالية ينتصر العراقيون [illegible]

التلاميذ ان يغلبوا معلميهم اكثر من [illegible]

ذلك في خلال سنتين او ثلاث سنوات؟

جميل باشا الراوي من غواة لعبة الصولجان، وهو يفتخر

ابن عمه الملازم الاول شفيق الراوي، بطل الميدان في الفوز

على الانكليز. دعانا جميل باشا ذات يوم لمشاهدة فرقتين

من الجيش العراقي تتباريان في اللعب، فيمما الميدان

خارج السور الشمالي، ونحن نتوقع المدهشات في المشاهدات،

فما كان منها غير القليل. ذلك لان العراقيين لا يقبلون

---

(١) السر إدغر بنثم كارتر المغرم بلعب البولو والمسبح

عليه، هو من الانكليز الذين يذكرهم العراقيون بالخير على الدوام

وان فضله الاكبر لفي تنظيم العدلية العراقية في بداية عهد

الاحتلال، يعترف بذلك جميع الساسة الوطنية منهم.

(٢) السر جان كادمان رئيس شركة النفط [illegible]

السوم على الصولجان اقبالهم على سباق الخيل [illegible] او
على لعب الكرة بالقدم، وارضه الميدان من التراب
الناعم فتثير حوافر الخيل، وكثيرا ما يخفي الكرة
عن انظار اللاعبين، فيخطئونها ولا حرج
ومع ذلك فقد امتاز لعبهم بالخفة والنشاط
وكانوا في الفروسية على اروع مبدعين، يتقاحرون في
جولاتهم ويفسحون، يكرون ويغيرون، وهم
يتجاحفون الكرة بصوالجهم. قال حاري الانكليزي
وهو من غواة هذا اللعب ان في جولاتهم خفة ورشاقة
وان ضرباتهم لتقفا الصولجان لضربات محكمة، هي
ضربات الحاذقين المتقنين. على اني كنت معجبا
بفروسيتهم اكثر مني بمهارتهم الصولجانية. فما
كان في ذلك الميدان جواد، ولا كان الفرس [illegible]
الصولجان [illegible] اما ما كان من
مراعة وطمعانا من جيادهم العربية
ضربات صاردة [illegible] كما قلت لا
يلامون عليها. فقد طالما عطف الغبار الكرة
فخفاها عن الابصار، [illegible] ليستحقون
ان الصولجانيين [illegible]
ميدانا ببغداد ارضه طرية متماسكة، او ترابه
تحت فراش من العشب المجزوز. وان حكومة
العراق لتحسن صنعا اذا ما عنت بتربية الخيول
العربية خصوصا للعبة الصولجان. فالحصان العربي لا
يُنَدّ في المرونة والقيادة، انه في الجولات وفي
الدورات السريع المطواع في الكر والفر اللامع
المجيد. فاذا ما عنت الحكومة بهذا الامر
تكلفت

الى اوروبه

تمكنت من تحدير الخيل للعبة الصولجان، فتجاري في سكوتها هناك

بل تسبق أشهر الجياد الارجنتين: عندئذ نقول

معاصرينا: [illegible] دونكم والصولجان وخيوله العربية! فاللعبة

من الغرب الى الشرق

التي عادت ~~الى العراق~~ بعد الفاتحين، تعود بخيلها هذه المرة

~~الى العراق~~ الى الشرق الى الغرب.

—٥—

(والأرجح ان)

ولا غرابة لسياحة الالعاب، واكثرها، مثل الاديان،

من الشرق. فالنرد والشطرنج ~~[illegible]~~ من بلد الصولجان.

والفروسية عربية الاصل. وهناك لعبة كان لها

ازدهار في اوروبه منذ ثلاث سنوات، هي اليويو، وقد

عادت فشارة الى مسقط رأسها، الى هذه البلاد.

وهل نعرف كيف

اجل. ان اليويو لعبة عربية المولد.

ولدت وتطورت؟ لقد ولدت في مشاهد البزاة

والصقور، بل في منتجع الابل. فالعرب عندما يسوقون

الابل الى الماء، يحدونها: جو! جو! ولفظ العرب

في نجد وفي البادية هنالك تقلبون الجيم ياء فيقولون!

يو يو. ثم استخدموا يو يو في صيدهم بالصقور

والبزاة.

يو يو! طار الصقر لينقض على فريسته.

يو يو! عاد الصقر الى صاحبه. هل كان لك وجه

الشبه بينه وبين اللعبة؟ يو يو! أفلتت

الدولاب المربوط بالخيط. يو يو! عاد على خيطه

الجديد. وكذلك البازي الذي يطير طوعا

للصوت الهاتف يو يو! ثم يعود فيقف على زند

الصياد او على القضيب بيده.

—٥—

وفي نادي الضباط للفرقة الهاشمي دار الحديث ذات
ليلة على الالعاب وعلى الصيد. كان جميل باشا الراوي
مضيفنا للعشاء فعرفنا الى عشرين ونيف من الضباط
العراقيين، وكل واحد منهم في بزته وروائه وحديثه
مثال الاناقة واللطف والتهذيب. هو التعليم
الانكليزي، وما اكثر محاسنه اذا ما نُزِّه عن السياسة.
والضباط العراقيون محقة يفصحون فضل معلميهم:
فقد حدثونا بلهجة حادثة وطريفة عن اولئك الضباط الانكليز. وقال
احدهم: "الاعتراف بالجميل واجب." وقال
الآخر: "حسن التقدير من اكرم الاخلاق."
وقال الملازم الاول صبحي العمري: "ما رأيت
في الناس الطف من اولئك الضباط اساتذتنا،
ولا من هم ارحب منهم صدرا، واكثر صبرا. كنا نأتمر
باوامرهم في ساعات التعلم والعمل، وكنا نلعب وإياهم
بعد ذلك كالاخوان الاكفاء، فنغلبهم في البولو
وفي الصيد. وما مرة في الصيد او في اللعب،
جعلونا نشعر باننا دونهم، او انهم وهم المغلوبون،
ارفع منا شأناً ومقاماً. فهم يستقبلون الغلبة
بصدر رحب وصبر جميل، شأن من تعودوا الالعاب
الرياضية، وعززوا آدابها القائمة على كرم الاخلاق
والصبر والانصاف."

~~فقال الملازم الاول الراحل~~
ولكن للقاعدة شواذها، فقد ~~[illegible]~~
عرفوا هؤلاء الضباط الانكليزي المتكبر المتغطرس
الشرس الاخلاق. وعندما يكون مثل هذا الرجل
ضابطا في الجيش، واستاذاً لضباط اجانب،

ذكر احد الضباط استاذاً

فالعياذ بالله... ولكنهم لايزالون من اساتذتهم

لتعدد صفاته المنكرة، فقال

الملازم الراوي:

"هي الشجاعة في كل حال، وعليها المعول حتى

في صيد الخنازير".

ثم دار الحديث على الخنزير البري الذي لايزال

يصطاد على الطريقة القديمة بالرماح والنبال

فروى لهم احدهم قصة مطاردة كان ذلك الضابط

الانكليزي بطلها، قال:

"خرجنا واياه ذات يوم للصيد فضل الطريق

وهو يطارد خنزيراً في هور من الاهوار، فغرق حصانه

في الوحل، وعلق به. وكان الخنزير قد فر شاهراً نابه، ونبل

استاذنا الضابط غارز في جلده. اتذكر ذلك؟

لقد تشكرنا عندما انقذناه وحصانه من الوحل.

ثم طاردنا ذلك الخنزير، وادركناه، ورميناه

فقتلناه، وعندما

وسهم الاستاذ لايزال غارزاً في كفله.

اتذكر ذلك؟ أو تذكر كيف نظر الينا؟

شزراً. نعم. ولكني قرأت في عينيه انه يود

لو كان ذلك السهم في قلب واحد منا".

الخنزير البري يكثر في الاهوار

والمستنقعات [illegible] العراقي اعلم [illegible] الانكليزي

//

لا ريب بحال ان العراقي امهر من الانكليزي في
مطاردة الخنازير البرية وصيدها، لا سيما وهو اعلم منه
بارض العراق واهوارها. فالخنزير يكثر في تلك
الاهوار والمستنقعات، والصياد الذي لا يعرف
مداخلها ومخارجها، وموحلاتها ومزالقها، يخفق
في صيده، وقد يقع هو وفرسه في نهر يحجبه
الاعشاب، او في موحلة بين القصب. اما
العالم بتلك الاهوار فهو يعرف متى ينبغي ان
يثب، ومتى يجب ان يدور او يتقهقر، وهو
يدرك حتى من وقع حوافر فرسه اذا كان على
حاشية بركة من الوحل والماء، او في ارض تدلوه
الهوى. بيد ان الانكليزي هو الرابح في
كل حال، ان كان هو او العراقي
صاحب الصيد. ذلك لان العراقي المسلم يكتفي
بلذة صيد الخنازير البرية، والانكليزي يأكل تلك الخنازير.

حدثنا راوي هذه قال: كان لاحد ضباط الانكليز
غلام هندي، وخادم عراقي، والاثنان من المسلمين. فاخبرنا ذات
يوم عند [illegible]، ولولا استرضائه لهما لتركاه. وما كان السبب
غير نكتة لذلك الضابط تتعلق بالخنزير. فقد
كان داعيا للغداء بعض اصحابه، وحاشاه ان يأكلوا الخنزير
دون ان يسمعوا النكتة. "ان ما قاله صحيح والله،
ولكن الغبي والخادم حسبا النكتة اهانة للمسلمين".
فقد اصطاد الخنزير مسلم، وحمله الى البيت مسلم، وطبخه
مسلم، وقدمه على المائدة مسلم – خدم الانكليز!!

في عنوان هذا الفصل، الصولجان والرمح والعصا،
ثلاثة رموز، كشفنا النقاب في ما تقدم عن اثنين منها،
فقد حدثنا القارئ عن لعبة الصولجان، وعن صيد الخنازير
البرية بالرماح والنبال، وسنحدثه الآن عما ترمز إليه العصا،
أي الكشافة، وهي ركن وطيد من أركان النهضة الوطنية
ومظهر باهر من مظاهر الحركة الرياضية، والرقي الاجتماعي
التهذيبي في العراق.
إن للكشافة العراقية تاريخاً إليك خلاصته. فقد تشكلت
الفرقة الأولى في سنة ١٩١٥ في عهد الأتراك، لأغراض عسكرية، ببغداد،
اقتداءً بالألمان، وكان مشرفاً عليها ضابط من ضباط الجيش
التركي، بمشاركة الكولونيل الألماني فون هوف.
ولكنها أهملت في خلال الحرب الكبرى وما أثمرت.
ثم احتل الانكليز العراق، وفي سنة ١٩١٨ عيّن المستر كاربت
ناظر المالية يومئذ بأمر الكشافة، فاستدعى بعض أفرادها
الذين كانوا في الجيش البريطاني (إلى بغداد) فشكلوا بمساعدة
بعض المعلمين الوطنيين سبع فرق في العاصمة،
وربطوا كشافة العراق بمقر الكشاف البريطاني. وقد نمت
هذه هي البداية المثمرة لبلاد الحركة المباركة في السنين الثلاث التي تلت، بمساعدة ناظر
المعارف، نمواً سريعاً، وكان احتفالها الأول، الذي أقيم [illegible]
احتفالاً باهراً، أدهش الناس، ولاسيما
الأجانب. فكانوا معجبين بإقبال أبناء العراق
على الكشافة ومهاراتهم. وعندما تأسست الحكومة
الوطنية في سنة ١٩٢٠ كانت السبع فرق قد أصبحت
سبع عشرة فرقة، وأكثر الوظائف في
يد الوطنيين فاستغنى عن المعلمين الانكليز.

/ بعد

وبعد ذلك بدأت الكشافة تنتشر خارج
العاصمة. فقد انتدبت وزارة المعارف جميل بك
الراوي لبث الدعوة في الالوية، فأسس ست
فرق في الموصل. ثم أُقيم الاحتفال الثالث في سنة
١٩٢١ بادارة المعلمين الوطنيين تحت رعاية الملك
فيصل الاول، [illegible] الذي كان من اكبر المشجعين
للكشافة، وصار بعدئذ حاميها الاعظم، فتجلت في
ذلك الاحتفال مقدرة ابناء العراق ومهارتهم في اتقان
الاصول الكشافية،
عندما انتقلت الادارة الى الوطنيين، وخصوصاً بعد [illegible] الاحتفال
الثالث، [illegible] اخذ المشروع يتعمم في البلاد
فأسست الفرق في اكثر الالوية، واستمرت في
الازدياد، فتجاوز عددها في بضع سنوات الستين فرقة،
وهي اليوم [illegible] في مجموعها تربي على الاثني
عشر الف (١) تضاف ما الاصناف الثلاثة والفضل في
[illegible] نجاح النهضة، واتساع [illegible] اعلامها هو الاستاذ [illegible] انما هو
لعدد من [illegible] العراقيين
[illegible] الوطنيين الغيورين،
وفي مقدمتهم جميل الراوي وساطع الحصري،
وطه الهاشمي ورشيد الخوجه وسامي شوكت.

ا/ا

---

(١) الاحصاء الاخير من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٢ هو كما يلي:

الكشافة	الرواد	الطلائع	الاشبال	المجموع
٢٥٠	٥٨٠	٩٠٠٠	٢٠٠٠	١١٩٣٠

اما اليوم فان القائم بأعمال الكشافة، العامل
بنشاط دائم واخلاص في ارتقائها الدائم، انما هو السيد
السوري مسيحي، درس وزوجته المسيحية
المهذبة في اوروبة، وعاد واياها ليخدما وطنهما
فكان ذلك الوطن العراق (الكل قطر في الاقطار) وما العراق وما سورية وفلسطين
السورية وطن للعربي الصادق، المخلص في
حبه لابنائه جميعاً، ان كانوا في صيدا
او في بغداد، في القدس او في الرباط.
«ساعد بأرض تكون فيها ولا تقل إنني غريب»

قلت في فصل سابق ان الدكتور شريف عسيران هو رائد الكشافة الكبرى
الكاظمية، وها اخاه عبد الكريم، وزوجة اخيه البيروتية
بركات الله عليهما، فانهما من
مصابيح الرياضة والتهذيب
في النشء العراقي الجديد.

أجل وان الفضل الاكبر لنجاح الاجتماع الكشافي العام
الذي أقيم ببغداد في ١٢ اذار سنة ١٩٢٤ *
واستمر اسبوعاً، للاحتفال لذكرى مولد جلالة
الملك غازي، والمناداة به كشافاً اعظماً، ان
معظم الفضل في تنظيم ذلك الاجتماع يعود الى قائد
الكشافة ومدير التربية البدنية عبد
الكريم عسيران.

وما كان اجمله من اجتماع، وما كان اجمله! لا
يطرف ابداً من الالوف الذين حضروا الاستعراض
في اليوم الاول، يشيء روعة ذلك المشهد
الوطني

الرضي الذي تمجدت فيه عصا الكشافة، وتجلت
في الحفلة الألف كشاف من شتى الألوية روح
النهضة العراقية، الرياضية والاجتماعية، بل
روح النهضة الوطنية بأجمعها.
ومما أثار إعجاب الناس في ذلك اليوم المشهود
تلك الألعاب التي قامت بها، على الألحان الموسيقية،
بنات المدارس تترأسهن معلمة سورية. وقد تجلت
هي في ذي طلائع الوطن الجديد،
روح في الحسن من النشء العراقي.
هي ذي البوتقة التي ستنصهر فيها كل الفوارق
القومية والدينية، لتتكون منها القومية
العراقية الواحدة. [illegible] هي ذي الكشافة
العراقية التي يحق للعراق أن يفاخر بها جميع
الأقطار العربية.
[illegible]
وخير ما أختم به هذا الفصل، وهذا الكتاب،
كلمة في المثل الوطني الإنساني الأعلى أوحى الكشاف بها. من هو
الكشاف؟
هو من رعى نفسه ليحسن رعاية غيره،
وقيدها بنظام ليدرك قيمة النظام، وعودها عمل
الخير دون ذكره، وحرية الفكر والقلب مع الشجاعة
والصدق فيهما، وكان إلى ذلك [illegible] ممن يجلون الإخاء
العدل الدولي في الحكومات، وللتعزيز الحق الإنساني في
القوميات، فيرى في وطنه صورة محبوبة
لجميع /

الملحق

١- الأمة الحديثة في وادي الرافدين

٢- مقاطع الأعمال المنجزة .

٢٧٥

اما القائم باعباء الكتابة في اليوم والحاصل

الأمة الجديدة
في وادي الرافدين (١)

إذا قابلنا العراق بعد معاهدة سنة ١٩٢٠ بالعراق في عهد الاحتلال، أي قبل عشر سنوات، يتضح لنا عدد من الفوارق نذكر منها عشرة فقط:

في سنة ١٩٢١

١- كان النزاع مستمراً بين الحكومة المدنية البريطانية والحكومة الوطنية، وقد اشتد في السنة الأولى بعد تتويج الملك فيصل، حتى كاد أن ينذر بثورة ثانية.

٢- كان الشيخ محمود ثائراً على الحكومة العراقية وعلى الإنكليز

٣- كانت الشيعة علناً وجهاراً تناوئ الحكومة والإنكليز والملك

٤- لم يكن في استطاعة الحكومة، لضعفها واضطرابها، أن تجبي الضرائب من العشائر.

٥- كانت ميزانية الحكومة أربعة ملايين ليرة إنكليزية، وفيها نقص يربي على الثلاثمائة ألف ليرة

٦- كان على العراق من الدين العثماني [illegible] بالليرة الإنكليزية.

٧- كان الجيش البريطاني لا يزال محتلاً البلاد.

٨- كانت قبائل نجد تغزو العراق غزواً متواصلاً.

٩- ما كان يدخل على خزينة العراق شيء من ريع النفط

١٠- كان في الحكومة العراقية أكثر من ألف موظف بريطاني

---

(١) من مقال للمؤلف في مجلة آسيه (ASIA) الأمريكية لشهر كانون الأول سنة ١٩٣٢

بعد معاهدة سنة ١٩٢٠

١- السلام مستتب، والأمن موطد في البلاد.

٢- أُخمدت الفتن في بلاد الأكراد، وتأسست في آخر معقل من معاقل الثورة في بارزان حكومة مدنية.

٣- الشيعة موالية على الإجمال للحكومة.

٤- أحوال العشائر في تطور دائم، وتحسن مستمر.

٥- ميزانية سنة ١٩٢٢ بلغت ٢,٢٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزية، والنقص فيها ٦٥ الف ليرة.

٦- في خلال خمس سنوات، من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٩، زادت ميزانية الحكومة ١,٥٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزية، فاستخدم قسم من الزيادة لدفع اقساط الدين العثماني، أدخر دفع القسط الاخير في السنة التالية.

٧- أجلت الحكومة البريطانية جيشها عن العراق، واستعاضت عنه بقوة الطيران الملكي، وشرعت الحكومة العراقية تجد في تنظيم جيشها الوطني وتزيد قوته.

٨- تحسنت وتوطدت صلات الولاء وحسن الجوار بفضل الملك فيصل بين العراق وجيرانه شمالاً وشرقاً وجنوباً.

٩- في البلاد ثلاث شركات للنفط ستدر على الحكومة، عندما تباشر كلها العمل، أكثر من مليون ليرة انكليزية في السنة.

١٠- عدد الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية لا يربي على المائة موظف، وعدد كان الفاً ونيف.